أجمل تاريخ للمرأة

فرانسواز إيريتييه

ميشيل بيرو

سيلفيان آغاسينسكي

نيكول باشاران

ترجمة

نرمين عمري

مراجعة

د. محمد دبس

أجمل تاريخ للمرأة

فرانسواز إيريتييه
ميشيل بيرو
سيلفيان آغاسينسكي
نيكول باشاران

ترجمة
نرمين عمري

مراجعة
د. محمد دبس

أكاديميا

أجمل تاريخ للمرأة

حقوق الطبعة العربية © أكاديميا إنترناشيونال (تشرين أول/أكتوبر) 2012

ISBN: 978-9953-37-814-5

Authorized Translation from the French Language Edition:

La plus belle histoire des femmes

Copyright © Editions du Seuil, 2011

Cet ouvrage publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des affaires étrangères et européennes et, du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban et de l'institut Français.

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب. أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو. وبأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدما.

الناشر

أكاديميا إنترناشيونال — Academia International

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس — Verdun St., Byblos Bank Bldg.

الطابق الثامن، ص. ب. 6669 - 113 — 8th, floor, P.O. Box 113 - 6669

بيروت 2140 1103 لبنان — Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف 861178 - 862905 - 800811 (1 961+) Tel

فاكس 805478 (1 961+) Fax

بريد إلكتروني academia@dm.net.lb

daralkitab@idm.net.lb

www.academiainternational.com

www.kitabalarabi.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال ش.م.ل.

ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International S.A.L.

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

المحتوى

مقدمة الكتاب 7

القسم الأول
فجر الإنسانية

الفصل 1. من الاختلاف إلى التدرج 17
الفصل 2. فرض السلطة باللجوء إلى العنف 35
الفصل 3. جذور العالم الغربي 53

القسم الثاني
ألفا عام في حياة امرأة

الفصل 4. الحميمية 63
الفصل 5. متمردات وطريدات 116
الفصل 6. غزو ميدان العمل 148
الفصل 7. تصدّر الكلام 169

القسم الثالث
نحو عالم مختلط

الفصل 8. إعادة غزو الفكر 197
الفصل 9. بناء التكافؤ 217
الفصل 10. إعادة هيكلة العلاقة الزوجية 236

مقدمة الكتاب

بقلم نيكول باشاران

لن أدّعي أنني كنت فتاة متحررة. عندما ناهزت العشرين من عمري وقعت في براثن أول كمين تقع فيه الفتيات الجاهلات عندما اعتقدت أن حرية المرأة هي أمر مكتسب بحد ذاته. هل نثير موضوع المساواة بين الجنسين؟ لقد حسمه جيل والدتي التي شاركتْ في التصويت في عمر الثامنة عشر حين كانت تنتمي إلى حزب الممانعة، وعملتْ بلا هوادة. كانت والدتي تقوم بكل الأعباء المنزلية، لكنني كنت أعتقد في قرارة نفسي أن والدي هو المسؤول الأول والأخير عن هذا الخطأ. واعتقادي هذا لم يكن نابعاً عن حسن نيّة. هل نتطرّق إلى موضوع المساواة في البحوث العلمية والمهن بين الرجل والمرأة؟ إنه لأمر بديهي. هل نقول إن المساواة في العمل يقابلها مساواة في الأجر؟ سبق للقانون أن تطرق إلى هذا الأمر وفرضه. وماذا عن حرية الإنجاب وفق المعتقدات الشخصية، سواء كانت أخلاقية أو دينية؟ إنها أدنى درجات الحرية. لم يساورني أدنى شك أن هذه القضايا لا تحتاج إلى نقاش. ألم تفرض نفسها هذه المعطيات بالحس السليم؟ ألم يرضَ بها عالم الشباب الذين هم أقراني من الجنسين؟

أما الآن عندما أعود بذاكرتي إلى المسار الذي اجتزته وأنا في ريعان الشباب، يطالعني مخلوقٌ صغيرٌ يَعْبر في حقلٍ للألغام، وقد خلع درعه، وجردته سذاجته من أي سلاح، لم يكن يعير التفاتاً إلى التناقض السائد داخل العائلة ولا إلى الأقوال التي لم تتفوه بها المدرسة، لم يمعن النظر في الإصرار على تدرّج القيم أو المتطلبات الدينية الفاسدة أو حتى الملابس الجديدة التي تعبّر عن الذكورية.

كنت على إلمام بالقواعد المسطَّرة والرسمية. لكنني لم أكن أدري بوجود

الأسقف الزجاجية، أو الخيوط الرفيعة للرأي السديد أو الرمال المتحركة لحركة تحررٍ غالباً ما تكون مضلِّلة. لم أكن أعي أن جسد المرأة الشابة عندما يكتمل نموه، كان وسيبقى غنيمة يتنافس بشأنه الذكور فيما بينهم بشراسة، وفي الوقت نفسه يبقى موضوع رهانٍ مثيرٍ لصراع مجرد من أية لمسة رحمة، تتراهن عليه العائلة والكنيسة والدولة والمدرسة بل وحتى عالم التجارة والطب...

ففي الوقت الذي تبلغ فيه بناتي سن الرشد، أبادر إلى قياس الدرب الذي يتخبّط فيه جيلٌ كامل، والمخاطر الجديدة التي تحدق بالحقوق والحريات التي نرتكب بشأنها خطأً فادحاً مرة أخرى حين نظن أنها حقٌ مكتسب. لا تزال قناعتي تزداد يوماً بعد يوم بضرورة نقل الصراع الطويل الذي خاضته أمهاتنا وجداتنا، صراع البطلات في الزمن الغابر، سواء اللاتي ذاع صيتهن أو اللاتي آثرن البقاء في الظل، إنهن ملايين النسوة اللاتي مهّدن لنا الطريق.

من هنا بزغتْ فكرة هذا المؤلَّف الذي هو أشبه ما يكون برواية، إذ إنه سرد لتاريخ وضع المرأة، بدءاً من كرو مانيون Cro-Magnon حتى يومنا هذا. الهدف منه هو إظهار تطور عقلياتنا والنظرة الموجهة إلى المرأة، مع التنويه إلى التحولات التي طرأت في حياتها اليومية، والطريقة التي تم اقتباسها للتعامل بموجبها معها على مر العصور في مختلف مراحل عمرها. لن نغفل هنا عن عرض المسافات الشاسعة التي سلَكتْها من أجل تحطيم الأغلال التي فرضها عليها الملوك والقساوسة والأزواج منذ قرون بعيدة. سنشهد ذلك في كل صفحة من صفحات كتابنا، إذ لا بد لنا من نكر هذا التاريخ لنتمكّن من فهم عالم اليوم، لأنه يضفي ضوءاً حيوياً على مشاداتنا داخل مجتمعات القرن الواحد والعشرين.

حاولتُ إعادة بناء هذه المغامرة المثيرة للذهول والدهشة بطريقة الحوار المتناوب مع ثلاثة من الشخصيات الاستثنائية، من المتخصصات اللامعات في عالم النساء، وهنّ فرانسواز إيريتييه Franoise Hritier، وميشيل بيرو Michelle Perrot، وسيلفيان آغاسينسكي Sylviane Agacinski. وافقتْ كل منهنّ على حدة على الرد على أسئلتي بروح حماسية وسماحة نفس وحِلْم من دون توخّي الحيطة أو الحذر، وافقتْ كل واحدة منهن على مشاركتي بعلمها وفطنتها العميقة أحياناً وبشكوكها وقلقها أحياناً أخرى. كانتْ كل واحدة منهن رائدة في مجال تخصصها واستصلحتْ

أرضاً مجهولة في عالمَي العلم والفكر. توصلنا في خصوصية غرف الاستقبال الخاصة بهنّ، ووسط المؤلفات والمخطوطات، إلى تلمّس الخيوط التي تربطنا بسلفنا، بروح الصداقة التي سادت بيننا. احتفظتُ بذكريات نادرة من خلال هذه النقاشات الطويلة، التي كانت مفعمة بالوفاق الفكري والإنساني، والضحكات الرنانة وسط المشاعر الجميلة. ذلك هو تاريخ المرأة: قاسٍ ومأساوي في معظم حالاته، لكنه لا ينأى عن كونه غريباً أحياناً.

لنُعِد إلى قيصر (ما هو له)... يجب أن نقرّ أن الفضل بالفكرة الأصلية لهذا الكتاب يعود إلى دومينيك سيمونيه Dominique Simonnet، ذلك الرجل الذي حوّل الرغبة التي كانت تتملكني في معرفة تاريخ النساء ونقله إلى مشروع حقيقي، إلى واحدة من "أجمل القصص". لا يسعني إلّا أن أعبّر له عن عمق امتناني وشكري لمواقفه الثابتة في دفاعه الحازم والمندفع عن كرامة المرأة.

عندما كنت أعدّ لهذه اللقاءات، كان يتبادر إلى ذهني في كثير من الأحيان ذلك الصراع الذي خاضته نصيرات الحركة الأمريكية المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل، تلك النسوة اللاتي يتحدّرن من أمهات بطلات، كنّ قد شاركن في حرب الاستقلال، وأخصُّ بالذكر آبيغيل آدامز Abigail Adams. ففي عام 1776 كانت تحثّ زوجها (رئيس البلاد القادم جون آدامز) أثناء حربه التي خاضها ضد ظلم السلطة الملكية البريطانية على "ألا ينسى السيدات"، ولا يُخضِعهُنَّ لقوانين تمّ تبنّيها من دون أن يكون لديهن فرصة الإدلاء برأيهن أو من دون أن ينوب عنهن من يمثلهنّ". كانت تلك الزوجة الحكيمة توصيه:"لا تمكّنوا أزواجنا من سلطة غير محدودة، فالرجال ظالمون بطبعهم، هذه حقيقة لا تحتمل النقاش". أما جون آدامز، ومع كونه زوجاً محترماً، إلا أنه وجد في هذه الادعاءات في مجملها مدعاة للسخرية...

ومع إكراههن على لزوم المنزل، لم تتوانَ النساء عن المطالبة بحقهنّ في المشاركة في الحلم الأمريكي. لقد أردنَ أن يمارسن حق المواطنة مثل الآخرين، وحقهنّ في "الحياة والحرية والبحث عن السعادة". "نريد أن نكون أمريكيات حقيقيات" ذلك كان أيضاً الحلم المدمّر للزنوج. لكن النساء، على غرار الزنوج، غير قادرات "بطبيعتهنّ" على شغل منصب رفيع في المدينة. ألم يظهرن بفطرتهن بمظهر الخانعات واللاعقلانيات والساذجات؟ لا عجب إذاً أن نجد بين النساء المطالبات بإلغاء

الرق في الحقبة التي سبقت حرب الانفصال، أعداداً كبيرة من نصيرات الحركة المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل اللاتي اغتنمن الفرصة وتقدمنّ بشكوى ضد "عبودية بنات جنسهنّ" وأصرّين على "المطالبة بإلغاء العبودية" و"بحقهن المطلق في التصرّف بأجسادهنّ".

بعد تحرير العبيد، تابعتْ نصيرات الحركة الأمريكية المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل، نضالها متمثلة بنضال الزنوج، في سبيل نيل المساواة، لدرجة اعتبرت تلك النساء أنفسهن أقليات عنصرية مقهورة، ليس من حيث العدد بل من حيث الوضع الاجتماعي. مما لا شك فيه أنهنّ تعرضن لاستهزاءات بل ربما لإهانات، إلا أن تلك النساء اللاتي يطالبن بحقهن في التصويت وبالدفاع عن قضية "تحديد النسل" (مصطلح اخترعته الممرضة مارغريت سانجر) بادرن إلى إحراق حمالات الصدر، وحمالات مطاط الجوارب! لذا أصبحن موضع سخرية الرجال وسيدات المجتمع والسيدات العريقات– أو أنهن عُرفن بهذه الصفة نتيجة تلهّفهنّ على إرضاء أهواء الرجال أو تكيفهنّ مع متطلبات الساعة. لم تكن "الأخريات" نساءً بكل معنى الكلمة، هكذا بدا الأمر بالنسبة لهنّ. هل نعتبر نصيرات الحركة الأمريكية المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل، نساءً متطرفات؟ غالباً. هل هنّ قاسيات، أو عدائيات؟ نعم بالتأكيد. ولكن كم من موقف انتصار حققته تلك الرائدات ذات العواطف الملتهبة والجياشة؟

كان لا بد لي من العودة إلى الماضي السحيق كي أبدأ قصتنا، ذلك الماضي الذي سبق حركة نصيرات الحركة المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل سواء الأمريكية منها أو الإنكليزية أو الفرنسية، كان لا بد لي من العودة إلى فجر الإنسانية في محاولة مني للتعرّف إلى اللحظة التي انزلقت فيها النساء إلى مكانة التبعية التي لازمتهن حتى أمس القريب. تلك النسوة اللاتي يلدن الأطفال، هل ينتمين حقاً إلى المرتبة الثانية بالنسبة للجنس البشري أو الأولى؟ ترى كيف عاشت جداتنا في العصر الحجري قصص الحب والأمومة؟ أي دور لعبنه في توفير أسباب الرزق لمن حولهنّ؟ وماذا عن الرجال؟ هل كانت لديهم الرغبة في السيطرة على بطون النساء الواعدات بالنسل وباستمرار العيش؟ كيف السبيل إلى معرفة ذلك؟ هل كان هناك زمنٌ مباركٌ استطاعت فيه الأنثى أن تعبّر عما يجول في أعماقها بحرية

مطلقة؟ وهل هذه الأنثى موجودة حقاً؟ أو بتعبير أبسط: من هي المرأة؟ أين تنتهي حدود الطبيعة وأين تبدأ حدود الثقافة؟

لقد وجّهتُ هذه الأسئلة الجوهرية إلى **فرانسواز إيريتييه**. اختصاصية بعلم الإنسان، واختصاصية عريقة بالمجتمعات الإفريقية، وبشكل خاص بأنظمة الزواج والمصاهرة وصلة الرحم. كانت تلميذة لكلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss قبل أن تتولى منصب أستاذة باحثة في المركز الوطني للبحوث العلمية، وشغلت منصب مديرة الدراسات في كلية الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، وعملت أستاذة في الكوليج دو فرانس. باحثة علمية بالغة الدقة، نصيرة الحركة المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل من الدرجة الأولى، ثائرة ضد كافة أشكال الظلم. ستبيّن لنا كيف أراد الرجال الاستحواذ على الهبة الخارقة التي تتميّز بها زوجاتهم، ألا وهي "ميزة الإنجاب المفرط". ستشرح لنا كيف أن نظام الأمومة[1] لم يكن سوى محض خيال وأنه في كل العصور والأماكن وجدنا أن "التكافؤ التفاضلي للأجناس" يفرض نفسه: حيث إن الرجل يُفضَّل على المرأة، دميماً كان أو أحمق أو بغيضاً وكانت هي جميلة أو فطنة أو كريمة أو كادحة أو مثقفة... لن تنسى فرانسواز إيريتييه أن تعيد إلى أذهاننا أن المرأة – منذ أقدم العصور– لم تتخذ من البغاء مهنة لها وأن التمييز العنصري الذي طُبِق عليها لم يمكن غير ذات أهمية: بل كان له دوره في تشويه الجسد والروح في آن واحد في كل أصقاع الأرض وعلى مر التاريخ، بل لقد كان قاتلاً في بعض الأحيان.

أما **ميشيل بيرو**، فإنها ستلتقي بنا على أبواب العصور القديمة، لكي نتابع سوية الحياة اليومية للمرأة في مراحل حياتها المختلفة، طفلة، فتاة صغيرة، شابة يانعة مقبلة على الزواج، عروساً، أُمّاً مغمورة أو منهكة من تتابع الولادات، جدة وحيدة وواهنة. بعد أن تخرجتْ من الجامعة بتفوق، عملت ميشيل بيرو كاختصاصية في الحركة العمالية قبل أن تنطلق إلى الأرض شبه البكر في تاريخ المرأة، تاريخ هزيل من حيث المحفوظات، وأدلّة الشهود، والروايات المباشرة أو غير المباشرة. اهتمت بموضوع الآثار التي خلفتها النسوة اللاتي قبعن قسراً في بيوتهن وأجبرن على الصمت. تحاول ميشيل بيرو جهدها منذ سنوات طويلة، لإعطاء صوت إلى

---

(1) نظام الأمومة: وهو عادةٌ عند بعض الشعوب إذ تعطي الأم بموجبه اسمها لأولادها، وتعود إليها سلطة المنزل- المترجم.

أولئك النسوة ومنحهنّ مكانتهن الصحيحة عبر التاريخ الشامل. الحماسة، الفضول، روح الفكاهة، الحدّة في الأخلاق والذكاء، الأناقة... إنها بعضٌ من صفاتها الحميدة ولن أفيَها حقها، فصفاتها تفوق ما ذكرتُ. تلك هي ميشيل التي كان لي الحظوة في البقاء معها لفترات طويلة، فقصتنا طويلة.

ستقول لنا إن حياة المرأة في معظم الأحيان تبدأ بشكل خاطئ، انطلاقاً من خيبة أمل الأهل، وشعور الأم بالذنب لأنها وضعت كائناً حياً من الدرجة الثانية. ستروي لنا أيضاً كيف استُبْعِدت الفتيات عن حقل التعليم، وأُعطيتْ بالمقابل في أفضل الأحوال، الحق في التربية النموذجية لتمارس دورها كزوجة صالحة في المستقبل وكأم. ستروي لنا ما آل إليه مصير اللاتي تمرّدن على واقعهنّ ورفضْن الارتباط بالزوج، واللاتي تمَّ رميهن في الدير، واللاتي دخل حياتهن أكثر من رجل، وكنّ يعرفن بأنهن "نساء تائهات". ستعيد ميشيل إلى أذهاننا أن النساء وقبل أن ينتمين إلى فئة "العاملين"، كنّ يعملن باستمرار ولفترات طويلة في الحقل، والمنزل، والورشة، والمخزن... ستروي لنا ميشيل أخيراً نضال النساء الطويل والمرير لانتزاع حقهن في التعلّم، واختيار المهنة بحريّة، والتعبير عن مواهبهن، والتكلم في الأماكن العامة، والإدلاء بأصواتهن كناخبات والترشّح و... – نقطة التحول الحاسم في حياتهن– تحديد النسل، تلك كانت إمكانية خارقة – ولكن لأي نوع من النساء، وفوق أية أرض، وكم من الوقت سيستغرق ذلك؟ كما ستتحدّث عن التخلّص من القلق الذي يساورهنّ منذ آلاف السنين من الحمل غير المرغوب فيه.

ثم سنتوجه نحو اختصاصية علم الفلسفة **سيلفيان آغاسينسكي** لكي نثير معها موضوع الحاضر والمستقبل. فالفلسفة بالنسبة لها كانت لقاءً حاسماً، وموهبة وجدتْ فيها المادة المناسبة لتُغذّي فضولها النهم ولتفك رموز العالَم من حولها. ولكم كانت خيبة أملها كبيرة عندما اكتشفت أن أبطالها، أولئك الحكماء والمفكرين، لم يكونوا سوى رجالٍ استبْعَدوا النساء عن عالمهم السامي حيث يتحركون. وأن المؤلفات الفلسفية التي يزعمون أنها موضوعية لم تكن سوى نتاج نظرة ذكورية موسومة بميزة خاصة. من هنا، أضافت قائلة، يتوجب على النساء أن يتفحّصْنَ بعين الناقد الأداة الأولى للمفكرين، ألا وهي اللغة، وإعادة التفكير بشكل تصوري، بالعلاقات بين الذكر والأنثى.

كيف إذاً نوجّه تفكيرنا اليوم فيما يتعلّق باختلاف الجنسين؟ إذ لا يمكننا تحديد هذا الاختلاف أو إزالته، تقول سيلفيان آغاسينسكي، وتدعونا إلى ترجمته بحرية مطلقة. ستفسّر لنا نضالها من أجل التكافؤ لتتيح للنساء احتلال مكانة عادلة في خضم الحياة العامة. إن اختلاف الجنسين أمرٌ كوني، لذا يتوجب علينا تصور عالم مختلط لا عالم حيادي. ولكن ماذا بشأن الزوجين والعائلة؟ كيف نخلق "ثقافة تعادلية" في حياتنا الخاصّة تكون قريبة من مثلنا العُليا فيما يتعلّق بقسمة الأعباء؟ وأخيراً كيف نتصدّى لكل تلك الاضطرابات في دور الأبوين التي تثيرها العلوم المعاصرة (التدخل الطبي في عملية الإنجاب، وممارسة الحقوق الأبوية للمِثْليين، والتبرع بالنطاف والبويضات التي لم يكتمل نموها بعد، والولادات بالأشعة، والأمهات البديلات)؟ كيف ننشئ نسلاً أخلاقياً؟ وأخيراً كيف نحافظ على ما هو أهم من كل ذلك: كرامة الإنسان، وحريته في الرغبة والحب؟

إن تاريخ المرأة الذي نحاول أن نتتبعه في هذا الكتاب يبقى كما نعلم موضوع صراع غير مكتمل الجوانب. كلنا أحفاد الثورة الكبيرة التي طرأت حول مصير الإنسانية: يستطيع بطن المرأة الإفلات من رقابة الرجل بفضل وسائل منع الحمل، جسد المرأة هو ملك لها، كما أنها تملك القرار في منحه أو منعه. ولكن! كم هو صغير عالم النساء الحرائر! لا يزال العالم في أنحاء كثيرة، كما هو الحال في مناطق قريبة منا، يشهد رجالاً يحتجزون النساء في الجهل والتبعية من أجل استمرار سيطرتهم على "امتياز الإنجاب المفرط". لا نزال نشهد حتى يومنا هذا نساءً تُضرب أو تُذبح دفاعاً عن الشرف الذي وضعه الرجل في جسد ابنته، أو أخته أو زوجته. لذلك ورغم التطور الذي شهدته مجتمعاتنا فإنها لم تتخلّص بعد من براثن التخلّف.

علينا ألا ننسى أبداً أن حرية المرأة لا تزال حديثة العهد وواهنة، وأنه يتوجب على المرأة المبادرة إلى تحديد مصيرها بنفسها والدفاع عن حقوقها يوماً بعد يوم، وخلق عالم مختلط تعيش فيه على أساس إنسان مستقلّ بشكل كامل.

ن. ب

القسم الأول

فجر الإنسانية

الفصل الأول

من الاختلاف إلى التدرج

هل هذا موجود في الطبيعة؟

نيكول باشاران: إنك كاختصاصية في علوم الإنسان وعلوم الأجناس، تهتمين بسلوك الإنسان داخل المجتمع. كانت لك مشاركات في الحياة اليومية لمجموعات عرقية يقال إنها "قديمة"، وهذا ما دعاكِ إلى إمعان النظر في الماضي السحيق، في محاولة منكِ للعودة إلى جذور الإنسانية. ولكن قبل كل ذلك، كيف السبيل إلى معرفة إن كانت تلك المجتمعات البدائية التي نجدها في أفريقيا وآسيا وأستراليا، تشبه مجتمعات أجدادنا القدماء؟

فرانسواز إيريتييه: المعيار الأساسي الذي نعتمده هو طريقة توفير أسباب الرزق. إننا عندما نتعامل مع "أناس يصطادون ويجنون الثمار"، أناس لا يزرعون، ولا يربون الحيوانات، ولا يعرفون بالضرورة شيئاً عن تصنيع المعادن، نعتبر أنهم يخلّدون منهج حياة يعود إلى العصر الحجري القديم. يكتفون باقتطاع ما يحتاجونه من الطبيعة. يمارسون صيد الحيوانات البرية، وصيد الأسماك، وقطف المزروعات. تعتمد حياتهم على الترحال ويجدون أنفسهم أحياناً مضطرين لقطع مسافات طويلة. قد تجد قبائل البيغميه Pygmées والبوشمن Bushmen في أفريقيا مساكن دائمة نسبياً، ولكنهم يدركون أن عليهم تغيير مساكنهم بين عشية وضحاها بسبب فَقْر المكان وأن عليهم البحث عن مناطق بديلة للاقتطاع. تبدو طريقة معيشتهم قريبة

جداً من طريقة معيشة أجدادنا في العصر الحجري الحديث (عصر الحجر المصقول). مع ذلك نقول إن هؤلاء كان لهم تاريخهم الخاص الذي خضع للتطور. يمكننا إذاً أن نتحدث عن تشابه ولكن لا عن تماثل.

– هل استطاعت تلك المجتمعات القديمة أن توفّر لنا المعلومات الكاملة عن كنه العلاقات السائدة بين الرجل والمرأة في فجر الإنسانية؟

– المجتمعات الإنسانية لا تعكس بالضرورة صورة ثابتة وحقيقية للعلاقة بين الذكر والأنثى. قد تقع تبدلات وقد تقع خلافات ويبقى الأصل متوافقاً. ولكننا إذا بادرنا إلى المراقبة والتحليل والمقارنة، وإذا استمعنا إلى الأساطير المؤسِّسة – حيث إن لكل المجتمعات، بما فيها مجتمعنا، خرافته المؤسِّسة التي توضح "نقطة البداية" – تجرّأتُ عن طريق الاستنتاج، وأعدتُ بناء ما كانت عليه مجتمعاتنا الإنسانية في أصلها. إنني هنا بصدد تقديم الفرضيات لعدم توفّر الأدلة، فالفكر لا يترك آثاراً مادية. ولكننا نستطيع تكوين صورة عما كان عليه ماضينا البعيد وبالتالي كيف كانت العلاقات القديمة التي تربط الرجال بالنساء، تلك العلاقات التي اعتمدَتْها المجتمعات اللاحقة كنموذج لها.

– هل توصلتِ إلى إيجاد جواب على السؤال الأزلي: ما الذي يُبقي المرأة امرأة بغض النظر عن الصفات الواردة في علم التشريح؟ وإذا عدنا إلى الجذور، هل نستطيع اكتشاف ما يسمى "بالطبيعة الأنثوية؟"

– كثيراً ما يوجّه إلينا هذا السؤال. يقرّ الاعتقاد السائد داخل كل المجتمعات بوجود طبيعة أنثوية تماماً كوجود الطبيعة الذكورية. هذا يفسّر أن أعضاء الجنس البشري الواحد، بالإضافة إلى صفاتهم المميزة التشريحية أو الوظائفية، يتمتعون بقدرات، وسلوكيات، وحسنات أو عيوب خاصة بجنسهم.

– إذاً يمكننا القول إن النساء هنّ...

– كائنات ضعيفات، حمقاوات، فضوليات، لسن أهلاً للثقة، ثرثارات، غيورات، تافهات، غير عقلانيات ومصابات بالهستيريا! أو إذا أردنا أن نعطي صورة أكثر إيجابية، نقول إنهن سريعات التأثر، رقيقات، متفانيات، ساذجات، طاهرات، عفيفات... فالمرأة هي كل تلك الصفات مجتمعة "بالفطرة". لذا فمن الطبيعي أن يجد الرجل نفسه في موضع السيطرة للتحكم بالسلبيات الكامنة في طبيعة الأنثى حيث إنه

يتمتع بالقوة والعقل والإرادة والشجاعة "بالفطرة"... وحدها الثقافة هي التي قادتنا إلى الاعتقاد بوجود طبيعة أنثوية وطبيعة ذكورية، ويتجدد هذا الاعتقاد بطريقة ثقافية. فمن وجهة نظري، لا يوجد في تركيبة كل جنس ما يدعوه إلى الغيرة والتبذير والتفاهة، أو على العكس إلى التسامح والاقتصاد والجديّة إلخ... لا توجد تركيبة طبيعية خاصة بعلم الحياة لنقل القدرات والسلوكيات التي تبرر سيطرة أحد الجنسين على الآخر، حيث تأتي التبدلات بشكل فردي. أما فيما يتعلّق بالتغيرات المطابقة للنموذج لأحد الجنسين فقد أدخلتها الثقافة المتوارثة بشكل علني.

إنها ليست أمك، ولا أختك

– لا بد لهذه الصفات الذكورية أو الأنثوية التي نعتبرها مكتسبة بالفطرة، أن تختلف من مجتمع لآخر؟

– نعم إنها تختلف، مع ذلك فقد توصلتُ إلى النتيجة التي تعترف بتفوّق الذكر على الأنثى في كل زمان وفي كل مكان. فمنذ فجر الإنسانية توطّد ما أسمّيه "بتكافؤ الجنس البشري التفاضلي". إذ لا يوجد تعادل بين الجنسين، فأحدهما يساوي أكثر من الآخر، وبالتالي فالذكر يساوي أكثر من الأنثى.

– كيف توصلتِ إلى هذه النتيجة؟

– بدا لي ذلك من خلال عملي مع كلود ليفي- شتراوس، الذي اعتَبَرَ تحريم زنا المحارم شرطاً أساسياً في تشكيل مجتمعٍ قادرٍ على الاستمرار. فمع بزوغ فجر الإنسانية، انفصلت كافة الفروع المؤدية إلى الإنسان العاقل[1] وإنسان نياندرتال[2] عن الشجرة الأم، حيث وجدت أنواعٌ مختلفة من البشر، ولم يستمر سوى هذين النوعين، وفي نهاية المطاف اندثر النوع الآخر وبقيت فصيلتنا أي الإنسان العاقل. ولكي نحفظ للمجتمعات مكانتها المرموقة بين المجموعات البشرية الأولى كان لا بد للآباء من الامتناع عن التزوج ببناتهم، وللإخوة بأخواتهم.

– لماذا اعتُبر ذلك شرط أساسي في بناء المجتمعات؟

---

(1) *Homo sapiens*.

(2) المجموعات التي عاشت في أوروبا وآسيا الغربية في العصر الحجري القديم - المترجم.

– تخيلي وضع هذه المجموعات الصغيرة من البشر العقلاء: جميع أفرادها تربطهم علاقة مصاهرة فيما بينهم، ويجمعهم سقف واحد، ويتوالدون فيما بينهم، ويرفضون الارتباط بشخص غريب. لا بدّ لنا عندئذ أن نحصل على مجموعات من قرابة العصب، يعيشون على النهب من الطبيعة المحيطة بهم، ويواجهون بلا ريب عصابات مماثلة لهم. قد يحصل فجأة وبالمصادفة أن تعجز بعضٌ من تلك العصابات عن الإنجاب: بسبب وفاة النساء، أو بسبب تفوّق نسبة الذكور على نسبة الإناث... إلخ. مما يدفع بتلك العصابات إلى غزو عصابات أخرى بهدف سبي نسائها.

– إنها بداية غير مطمئنة...

– هذا صحيح، لذا يأتي تحريم زنا المحارم الأداة المنظّمة للأمر: فبدلاً من الاقتتال، يتم اللجوء إلى التعاون بين أفراد هذه المجتمعات. تمَّ تبنّي هذا القرار، على حد قول ليفي – شتراوس، في كل مكان تواجدت فيه البشرية، حيث قرر الرجال الاحتفاظ ببناتهم وأخواتهم – اللاتي توقفوا عن معاشرتهن معاشرة الأزواج – ليبادلوهنّ كعملة مقايضة ببنات وأخوات رجال من المجموعات الأخرى. بذلك يصبح الرجال أنسباء فيما بينهم، وقد تنشأ العداوة بينهم كما تنشأ روح التعاون. يتم تقاسم سلطة الخصوبة بين تلك المجموعات كما يتم التعرّف إلى الآخر، ذلك الشخص الغريب، وتتوطّد العلاقة معه.

– وما هو شكل المجتمع الذي نحصل عليه؟

– مما لا شك فيه أن الارتباط بين أفراد هذا المجتمع يتميّز بطابع رسمي يدعى الزواج. يتم تسجيل هذا الزواج في عقد اجتماعي يربط بين السلالتين، يوطّد السلام الجماعي في بقعة ما، ويدعم التبعية الجنسية الكفيلة بإخضاع النساء. يجب على الرجل والمرأة أن يشعرا بالتبعية المتبادلة فيما بينهما لتيسير أمور هذا الزواج وهذا العقد بين السلالتين، ويترتّب عليهما أن يتخصصا بمهام إضافية. وبصورة عامة، يقوم أحدهما بالصيد بينما يهتم الآخر بعملية جني الثمار. فيحتفظ الرجال لأنفسهم بمهمة صيد الحيوانات المفترسة، وتأمين الحماية لمجموعاتهم ضد اللصوص. بينما تلوذ النساء في المنزل وتتحمل مسؤولية الأطفال الرضّع الذين لم يُفطموا بعد. قد يتأتى هذا التوزيع للأدوار أحياناً من خلال حالات اضطرارية موضوعية: كأن لا تستطيع امرأة حامل أو مرضِع أن تتحرك بسهولة، ولكن هذا لا يتضمّن شعوراً بالنقص، جسدياً كان أو فكرياً، حيث تُصَنَّف الحالات الاضطرارية الحقيقية تحت مسمى الفكر. وعلى كل

حال، يتم توزيع المهام تبعاً للثقافات. ففي غرب أفريقيا، كانت كل من مهنة الخياطة والنسيج محصورة بالرجال إلى زمن ليس بالبعيد.

– الزواج، النَسَب، توزيع المهام: يمكن ترتيب كل ذلك وفق مصلحة الجميع، دون التمييز بين الجنسين.

– بالفعل، لذلك بدا لي وجود بعض الخلل في هذا البناء، فحتى يقرر الرجال منح بناتهم وأخواتهم إلى رجال آخرين، لا بد أن يشعروا بأنهم يملكون الحق في ذلك. التجربة الخاصّة بعلم الأجناس هي وحدها القادرة على أن تبيّن لنا على أرض الواقع هذا النوع من العقود بين البشر. ففي كل المناطق، وبين المجموعات المختلفة فيما بينها، نلاحظ أن الرجال هم الذين يبادرون إلى مبادلة النساء، وليس العكس. لم نشهد أبداً نساءً يقمن بعملية مبادلة الرجال، كما أننا لم نشهد مجموعات مختلطة من الرجال والنساء تبادر إلى مبادلة الرجال والنساء فيما بينها. ينحصر هذا الحق بالرجال تماماً كما يملكون الحق في كل شيء. هذا ما يدعوني إلى الجزم بأن "التكافؤ التفاضلي للجنسين" كان موجوداً منذ فجر البشرية، أي منذ العصر الحجري القديم.

– هل يمكننا القول بأن التكافؤ التفاضلي للجنسين قد سبق وجوده تحريم زنا المحارم؟

– لن أقول ذلك، ولكنني أجزم أن التكافؤ كان ملازماً لتحريم زنا المحارم على الأقل، من حيث ربطه بين العناصر الضرورية للبناء الاجتماعي، ألا وهما العقد بين السلالات والزواج بين الأفراد وتوزيع المهام. كل ذلك يخضع لقوانين التكافؤ التفاضلي للجنسين.

الذكر يتغلّب على الأنثى

– ولكن لماذا؟ كان بمقدور النساء مشاركة الرجال في اتخاذ قرار تحريم زنا المحارم للعيش بسلام مع الجيران أو على الأقل لدعم التعاون فيما بينهم. ذلك بأن القرار لم يخص بالذكر الرجال وحدهم من دون النساء فيما يتعلّق بحق تبادل النساء. لماذا وافقت النساء إذاً على هذا الوضع؟

– لكي نستطيع إدراك هذا الوضع، لا بد لنا من القيام بمحاولة لإعادة بناء عالم السلف. لقد انكبوا مثلنا على مراقبة الوسط الذي يحيون فيه، في محاولة منهم للخروج ببعض الاستنتاجات. اجتهدوا في دراسة ظواهر الطبيعة من حولهم، وفصول السنة، وتعاقب الليل والنهار، وجسم الإنسان، وحالات الولادة والوفاة، إلخ. حاولوا ترجمة الثوابت التي لا يملكون أمامها أية حيلة. هذا ما يدعى بـ" إضفاء معنىً للعالم". لم يكن بحوزتهم سوى وسائل بسيطة للقيام بمثل هذه الدراسة: الحواس الخمس. لم يكن لديهم مجهر أو أشعة تحت الحمراء أو أي جهاز متطوِّر. وإلامَ توصلوا؟ إلى الثابتة الأكثر أهمية على الإطلاق، التي يشترك فيها عالم الحيوان بأكمله الذي ينتمي إليه الإنسان، إنه تباين الجنسين. فبعد الاختلاف بين الأنواع، والاختلاف بين الأفراد، نلاحظ وجود هذا الاختلاف المعاود: هناك دوماً الذكر والأنثى. كلاهما يملك أعضاءً مميزة تشترك فيها كافة الأنواع: قضيب الرجل لدى الذكور وفرج المرأة لدى الإناث. إني أخص بالذكر هنا عالم الحيوان الذي نستطيع مراقبته بشكل مباشر، أي عالم الثدييات (نموذج الحيوان الحقيقي) أكثر من عالم الحشرات أو حصان البحر!

– إنك تتكلمين عن أعضاء أنثوية، وأخرى ذكرية: هل نعتبر أن هذا الفارق هو الوحيد الثابت وغير القابل للجدل بين الذكور والإناث؟

– نعم، إنه الفارق الخاص بعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). تفرز هذه الأعضاء مواد نمطية إلى أقصى الدرجات: فالذكر يفرز النطفة (الحيوان المنوي) بينما تفقد الأنثى كمية من دمائها بشكل شهري ومنتظم وتنتج الحليب. هذا اختلاف واضح ولم يكن ليغيب عن فطنة أجدادنا. تلك هي القاعدة المتينة للملاحظات الأولية.

– وما الذي ترتب على ذلك فيما بعد؟

– أعتقد أن انتظام الفكر البشري انطلق من هذه الملاحظات. هناك أفكار مطابقة كما أن هناك أفكاراً متباينة. أما باقي الأمور فسيتم تحليلها وتصنيفها تحت هذين العنوانين: أمور مطابقة تماماً، وأمور أخرى متطابقة فيما بينها ولكنها مختلفة عن سابقتها. هذا هو منهج تفكير البشرية، لم نلحظ أبداً وجود مجتمعات شذّت عن هذه القاعدة الأساسية. ففي كل اللغات نجد الفئات الثنائية التي تضع الساخن في مقابل

البارد، والجاف في مقابل الرطب، والقاسي في مقابل الرخو، والمنير في مقابل المظلم، والمرتفِع في مقابل المنخفِض، والمعلوم في مقابل المجهول، والصحي في مقابل الملوّث... كما نجد أصنافاً مجردة تساعدنا في عملية التفكير مثل المجرد والمحسوس، النظري والتجريبي، الثقافي والطبيعي... وهذه أيضاً تبنى وفق الأضداد: التطابق والتباين. كل ذلك ينجم عن عملية التصنيف الجليّة التي تضع الذكر في مقابل الأنثى.

– ولكن متى نعتبر أن هذا التصنيف إلى فئتين رئيسيتين يصبّ في التكافؤ التفاضلي للجنسين؟

– يتم التعبير في كل اللغات عن الفئات الثنائية بدلالة المذكر والمؤنث. فمثلاً يصنف الفلاسفة الإغريق في لغتهم مفهومَيّ الساخن والجاف تحت لواء المذكر، بينما يصنفون البارد والرطب تحت لواء المؤنّث. نجد هذا التصنيف لدى الكثير من المجتمعات التقليدية، إذ إنها تنطلق من الملاحظة الحسيّة. نحن عندما ننحر حيواناً فإننا نجعل دمه ينزف، وعندما يفقد هذا الحيوان دمه بالكامل يصبح بارداً، جامداً أي ميتاً. فالحياة تعني الحركة والحرارة بينما يعني الموت الجمود والبرد. لماذا نقول عن الرجل إنه ساخن وجاف؟ لأنه لا يفقد من دمه على عكس المرأة، فإنها باردة ورطبة لأنها تفقد من دمائها بشكل شهري ومنتظم من دون أن تملك القدرة على التغيير.

– "الساخن والجاف" يفترض أنهما من الصفات الذكورية، فهل تتفوقان في التصنيف على "البارد والرطب"؟

– لقد تسلل ترتيب الأصناف إلى هذه الثوابت الثنائية: لذا نجد دوماً الفئة الإيجابية والفئة السلبية، الفئة العليا والفئة الدنيا. تُبيّن لنا الملاحظة الخاصة بعلم الأعراق أن الموجب ينتمي إلى المذكّر والسالب إلى المؤنّث. هذا لا يرتبط بالفئة نفسها: إذ لا تُقيَّم الصفات بالطريقة نفسها في كافة خطوط العرض. كلا، هذا يتعلّق بالانتماء إلى الجنس الذكري أو الأنثوي.

– يعني...؟

– لنأخذ على سبيل المثال عندنا في الغرب، تزداد قيمة "الفعل المبني للمعلوم" الذي هو دلالة على وقوع العمل على المادة، لذا فهو يتوافق مع المذكر. في حين أن "الفعل المبني للمجهول"، تقل قيمته لذلك فهو يتوافق مع المؤنّث. في بلاد الهند، الأمر معكوس حيث إن السلبية هي مؤشر على السكينة التي نبلغها

بمجموعة من أعمال النسك. فالسلبية هنا تتوافق مع المذكر، وتزداد قيمتها، بينما الفعالية أو النشاط – التي يُنظر إليها على أنها فوضى – تتوافق مع المؤنّث وتقل قيمتها. يمكن لوجهات النظر أن تتغيّر وفقاً للمكان والزمان، لكن عملية تقييم المذكّر تبقى ثابتة وشاملة.

– ألم يُنظر للجنسين في وقت من الأوقات على أنهما متممان لبعضهما؟

– حتى لو أظهرتهما هذه النظرية أو تلك بهذا الشكل لكن الواقع يكشف عن وجود الجنس الخشن والجنس اللطيف، الجنس القاهر والجنس القاصر. إليكِ مثالاً آخر، في المجتمعات التي تعتمد على الصيد وجني الثمار، يصطاد الرجال بواسطة القوس والحربة ويجلبون اللحم، طعام قيّم لكنه يكاد يمثّل 20% من غذاء المجموعة. وتبادر النساء من جهتها إلى جني الثمار – وهذا عمل ذو منزلة متدنية نوعاً ما – لكنها توفّر 80% من المواد الغذائية. يتفق كافة علماء الأعراق لدى هذه المجتمعات على رأي واحد: أن هذه النسبة ثابتة. تلعب النساء دوراً مهيمناً في استمرار حياة المجموعة. لكن هذا لا يمنع أن تبقى قيمة الصيد أرقى من عملية الجني. ففي كل مكان يحظى الجنس الخشن بالمكانة الأولى بالنسبة لتقاسم الأدوار مع تقييم رفيع لناتج عمل الرجل.

"مزيّة الإنجاب المفرط"

– إذاً يمكننا القول بأن التكافؤ التفاضلي للجنسين ينتج عن شيء آخر مختلف تماماً عن عملية المراقبة البسيطة للتباين التشريحي ولمخاطر توزيع المهام...

– هذا صحيح. أعتقد أن هذا ينتج عن مراقبة أمر آخر: فالأنثى هي التي تتولى عملية الإنجاب. وهذا ما أسميه، من وجهة نظر الذكور: "مزية الإنجاب المفرط". هناك إبهام في الموضوع!

– اشرحي لنا...

– حاولي أن تتخيلي أن الموضوع عُرض على أجدادنا الذين يتمتعون برجاحة العقل وحدّة البصيرة: كيف يمكن لجسم أنثوي، امرأة، مطابقة بجسدها لنساء أخريات أن تضع مخلوقاً مختلفاً؟ كونها تضع مخلوقات مطابقة لها، هذا أمر يمكن لنا أن نتصوره، يمكن لنا أن ندرك بالعقل أن تضع المرأة الإناث. ولكن كيف يمكن

للنساء أن يضعن مخلوقات مختلفة عنهن، أي الذكور؟ ولمَ لا يستطيع الرجال إنجاب مخلوقات مشابهة لهم، لماذا لا يستطيعون إنجاب الذكور؟

– لا بد أن الأمر كان يشكل لغزاً بالنسبة إليهم. كيف استطاعت المجتمعات القديمة التغلّب على هذا الغموض؟

– الجواب هو نفسه. إذا أنجبت النساء مخلوقات مختلفة عنهن، فهذا لا ينجم عن قوة، أو عن قدرة خاصة بهن. كلا فهذا المخلوق المختلف عنهن، تمّ وضعه داخل جسدهن من الخارج. إنهم الرجال الذين يضعون الأطفال داخل جسد النساء. وبين الفينة والأخرى، يطغى العنصر الأنثوي أثناء عملية الجماع فيكون المولود أنثى، وفي هذا فائدة بما أنها ستصبح في يوم من الأيام أماً بدورها. أما بالنسبة للمواليد الذكور، فإن الرجال هم من يدخلونهم في جسد النساء. فالنساء في النهاية لسن سوى قالَب، ووسيلة أو كما يقال في أفريقيا، قِدر (وعاء)!

– ولكنها بهذا الشكل تلد الذكور. يمكننا أن نتخيل أن تُوَقّر المرأة في دورها كقِدر وتُكرّم...

– قد يحصل ذلك أحياناً، ولكن هذا لا يمنع من الانتقاص من قيمتها. إذ يترتب على الرجال إيجاد حل لمشكلة عملية: كيف يتولّد لديهم اليقين بأن المواليد الذكور هم من أصلابهم في الوقت الذي يُحرمون فيه من "مزية الإنجاب المفرط"؟ عليهم تملّك النساء. فالعملية تتطلب الكثير من الوقت: هناك فترة الحمل تليها فترة الإرضاع التي قد تبلغ الخمس سنوات. حتى في الخامسة من عمره قد يكتسب الطفل عادات تبعية لأمه فيما يتعلق بغذائه. إذاً يجب الاحتفاظ بالمرأة التي تنجب أطفالاً ذكوراً وتملّكها.

– كيف ذلك؟ هل عن طريق القوة؟

– تلعب القوة – أو التهديد باللجوء إلى القوة – دورها أحياناً، ولكن ليس بالضرورة. المهم هو سلب المرأة حريتها منذ نعومة أظفارها. تُحرم من حقوقها كإنسان، أي من حق التصرف بنفسها. فهي لا تملك حق تقرير مصيرها، توهَب كإنسان منتِج، مجرد أداة يحتاجها الرجال لإنجاب الأطفال. كما تُحرم من حقها في التعلّم. فعندما تتاح لها الفرصة للوصول إلى العلم الذي بلغه الرجال هذا يعني إمكانية منحها وسائل التحرر.

– هل تدرك كافة ثقافات العالم بأن العلم ما هو إلّا وسيلة للتحرر؟

– نعم، هذا موجود حتى لدى الثقافات التي لا تعرف الكتابة ولا تملك الكتاب، وليس لديها علوم ثابتة، هناك أناس يواجَهون بالاحترام لأنهم "مطّلعون". يعرفون الأساطير، والنباتات والأسرار... لديهم إجابات على كل الأسئلة. لقد لمست ذلك شخصياً في بلاد السامو حيث تستشير النساء إلَه المطر أو إلَه الأرض لمعرفة أي نوع من الغذاء تتناول وأي النبات تقطف وما هو أنسب وقت لذلك. لا يجيب على تلك الأسئلة إلّا من يحيط بهذه العلوم. ومع مرور الأيام تتعلم النساء ولكنها تبقى عاجزة أمام بعض الأسئلة، ويتوجب عليها مراجعة من لديه العلم بذلك. إن الحرمان من التعليم أمر جليّ، خاصة بعد اختراع الكتابة وبعد نقل المعلومات إلى الكتب. فحرمان المرأة من التعليم، الذي يعتبر وسيلة لتحريرها، ساد طويلاً في المجتمعات الغربية ولم يتح لها إلّا منذ قرن ونيف.

– ألا تملك النساء علماً نوعياً خاصاً بها؟

– بلى، هناك النساء المشعوِذات، والنساء المولِّدات... ولكنها تبقى علوماً محدودة ومن نوع خاص. أما العلوم الأكثر شمولية، فالرجال هم من استحوذ عليها، ويرفضون إعطاء المرأة هذه العلوم النابعة من الحياة المنزلية التي تمّ سجنها فيها. لذا تبقى المرأة أسيرة الجهل وتحت الوصاية ويُفرض عليها قبول المصير الذي رُسم لها. فمصيرها يقتصر على إنجاب الأطفال – وبشكل خاص الذكور منهم – وإرضاعهم والعناية بهم.

– تلك إذاً الوسائل التي يتم اعتمادها لإبقاء المرأة في حال تبعية للرجل: حرمانها من الحرية ومن التعليم ونفيها إلى الأعمال المنزلية.

– وبالنتيجة، حرمانها من السلطة والنفوذ. كل ذلك مصحوباً بالتحقير.

– ولماذا يتم اللجوء إلى التحقير؟

– إنه ضرورة جليّة ! إذا لم يكن هناك تحقير للأنثى كيف السبيل إذاً لتبرير حرمانها من حق التصرف بنفسها، ومن حقها في التعليم وفي السلطة؟ كلا، إن اللجوء إلى التحقير أمر ضروري. يجب إقناع المرأة بأنها إنسان ناقص، ويجب

تذكيرها بأن حرمانها من الحرية ما هو إلّا ليجنبها من سوء توظيف هذه الحرية. أما حرمانها من التعليم فهو ناتج عن غبائها وحماقتها، وحرمانها من ممارسة السلطة يأتي بسبب تفاهتها وإصابتها بالهستيريا!

– بتعبير آخر، يجب المبالغة في تحقير المرأة لكي تقتنع في أعماقها بأن تبعيتها للرجل ليست سوى أمر طبيعي.

– نعم، فأنا أطلق على هذا الكم من الملاحظات الأولية، التي تشكّل أساساً للتكافؤ التفاضلي للجنسين، تسمية "النموذج القديم السائد". ولا نزال نعيش وفق هذا النموذج. فَكِّري بالطريقة العصرية التي يشرح بموجبها الأهل لأطفالهم مجيء أخ صغير أو أخت صغيرة. لقد تخطينا قصص طائر اللقلق والملفوف والأزهار التي كانت تُلقى على مسامعنا في شبابنا! ونرغب اليوم مراعاة الحقيقة الخاصة بعلم الأحياء. ولكن ما الذي يقولونه لأطفالهم؟ "لقد وضع بابا حبة في بطن ماما، وكبرت الحبة الصغيرة، وذات يوم خرج الطفل من بطن ماما". قد يبدو ذلك تافهاً، ولكنه يعكس النموذج القديم السائد. وكما في المجتمعات البدائية، تبقى المرأة قِدراً! لقد أوردت لكِ هنا مثالاً سلمياً. ولكن هذا النموذج القديم السائد يتكرر في الجرائم، كحالات الحمل القسري في زمن الحروب.

– يبادر الرجال إلى اغتصاب النساء وحجزهن في الأسر لمدة طويلة تكفي لثنيهن عن عزمهن في الإجهاض...

– خلال حرب إسبانيا، كان أنصار الجنرال فرانكو يقولون للنساء الجمهوريات "ستحملن بين أحشائكنّ حفيداً لفرانكو!" وللأسف تكرر ذلك في يوغسلافيا السابقة. إذ كان الرجال المسيحيون يقولون للنساء المسلمات: "سوف تحملن بين أحشائكن أطفالاً مسيحيين"، وكذلك الأمر بالنسبة للمسلمين. هذا يعني أن هوية الفرد بأكملها حتى السياسية منها والدينية، موجودة في نطفة الأب. بينما علينا أن ندرك أن المولود الجديد، وهو ثمرة جريمة اغتصاب، سينشأ وفق التربية التي سيحصل عليها والوسط الذي سيترعرع فيه.

– وبشكل خاص فيما يتعلّق بالسياسة والدين...

– من خلال هذه التصرفات الإجرامية، يتبين لنا أن طريقة التفكير لدى أجدادنا القدماء وسلوكهم، أي النموذج القديم السائد، لا تزال تنبض بداخلنا.

التنافس بين الرجال

– ولكن من أين يأتي الرجال بهذه الإرادة لإذلال النساء، وبشكل خاص، لتملكهنّ في أوقات الحروب إلى أقصى الدرجات؟ هل تأتي نتيجة التنافس بين الرجال والنساء بمعنى أن الرجل ينتقم من المرأة نتيجة حرمانه من "ميزة الإنجاب المفرط"؟ أم إنه الصراع بين الرجال، والعزم على سحق رجال معسكر العدو وإذلالهم؟

– إنه فعلاً التنافس بين الرجال. وهو موجود أصلاً في مسألة تقاسم النساء الذي هو أبعد ما يكون عن المساواة. ففي المجتمعات التي تعترف بتعدد الزوجات وتمارسه، ينتظر بعض الرجال فيها طويلاً قبل أن يحظى بالزوجة، لأن غيرهم من الرجال من ذوي النفوذ والثروات الطائلة تمكنوا من الحصول على عدة زوجات. ولكن الموضوع أعمق من ذلك. ذلك بأن النشاط الجنسي لدى بعض الرجال يراه البعض الآخر عملاً عدوانياً وضاراً تجاههم، دون اعتبار المعتقدات الخاصة بفكرة التشرّب[1] لذلك فإن النساء اللاتي وقعن ضحايا لحالات الحمل القسري، يجدن أنفسهن منبوذات من طائفتهنّ. فالخطر الذي يراه الرجال والذي يشكله النشاط الجنسي عند رجال آخرين، يتجسد أيضاً بالعزم على الاحتفاظ بالمرأة من دون مشاركتها مع أحد، عزمٌ قد يصل أحياناً إلى ارتكاب الجرائم.

– هل هذا نوع من أنواع التقزز أو الهلع اللذين يشعر بهما الرجال حيال النشاط الجنسي الذكوري؟ هل يشعر الرجل أنه "لمجرّد قيام رجل آخر بممارسة الجنس مع زوجته أو ابنته أو أخته، فقد تدنّستْ وعليها الابتعاد، بل ولِمَ لا تموت"؟

– الدنس لا يطال المرأة بقدر ما يطال الرجل في هذه الحالة، بل إنه عرضة للخطر من خلال المرأة. يمكنني القيام بتحليل ذلك من خلال علم الإنسان (الأنتروبولوجيا)، وإذا بدا ذلك غريباً عن عقليتنا للوهلة الأولى فإننا أقرب ما نكون إليه. عندما كانت المرأة في المجتمعات القديمة تجمع بين الزوج والعشيق في آن واحد، لم يكن الزوج عرضة للدنس فقط بل كان معرضاً للخطر أيضاً. إنه التقاء لقوتين في مهبل واحد. ولم تكن هاتان القوتان على قدم واحد من المساواة بسبب

---

(1) التي تُعرف في علم الوراثة بأن تلد الانثى من ذكر ثانٍ أولاداً يحملون صفات الذكر الذي سفدها قبلاً وولدت منه – المترجم.

أن أحد الرجلين لم يكن على علم بوجود منافس له في هذه المرأة. فالزوج المخدوع لا يعرف أنه وقع فريسة للخديعة، والعشيق من جهته، يُدخِل في جسد هذه الزوجة مادة مطابقة للمادة التي يدخلها زوجها. بعض المجتمعات الإفريقية تعتبر أن هذا اللقاء أمرٌ في غاية الخطورة إذ إنه يتسبّب بموت أحد البطلين نتيجة ضعفه.

– وكيف ذلك؟

– ذلك أن السائل المنوي لأحد الرجلين يتوقف عن التدفق بشكل طبيعي، فيعود إلى الأعضاء التناسلية، وهذا يفسّر ظهور أمراض من نوع خاص، كداء الفيلة في الخصيتين؛ أو أنه يعود إلى الدورة الدموية مسبباً لصاحبه بصاقاً دموياً. في بعض حالات مرض السل تُسجَّل بعض الأعراض على حساب خيانة الزوجة: فمهبلها يحوي مادة غريبة تسبب مرضاً للرجل الآخر. هناك صدمة مواجهة ستنشأ بين قوتين، بين رجلين. الطرف الأضعف هو الذي لا يدري عن الأمر أي شيء، أما العشيق، أو الدخيل فإنه على علم بالأمر، بذلك يجد الزوج نفسه أنه الطرف الأضعف.

– كيف يستمر هذا العرض القديم لمخاطر الزنا اليوم؟

– نراه في نفور الرجل من زوجته وامتناعه عن ممارسة الجماع معها إثر / تعرضها لحادثة اغتصاب. براءتها أصبحت مشوبة بالخطورة. قد يبادر الزوج في بعض المجتمعات إلى لفظها، أو تطليقها، بل وحتى قتلها.

– هل يترافق ذلك مع الفكرة التي سادت لفترة طويلة والتي تنص على حق الزوج في قتل العشيق؟

– نعم، لا بد لأحد هذين المتنافسيَن أن يلقى حتفه. فالزوج يحمي ممتلكاته، أي ما نُطلق عليه "شرفه"، كما يحمي نفسه. فإذا تخلص من العشيق عن طريق القتل، يكون قد قضى على المنافسة. يقال أيضاً بأنه "غسل العار بالدم". إنه تعبير مثير للدهشة، فالمعروف أن الدم يلوث بدل أن يغسل! لكن علينا ألا ننسى أنه في المعتقدات القديمة، المني هو الدم. فعندما "يغسل العار بالدم" يقوم الزوج بإزالة أسباب الخطر الملازم لالتقاء السائل المنوي الخاص به مع السائل المنوي للرجل الآخر في جسد زوجته. فإذا قتل الزوج غريمه، يخرج السائل المنوي من جسد هذا الغريم، كما يخرج من جسد زوجته والى الأبد.

– هذا يقودنا إلى نتيجة مألوفة جداً: لا يمكن وضع فحلين في مرج واحد، ولا ثورين في حظيرة واحدة! فإذا كان سلوك الرجال مشابهاً جداً لسلوك الحيوانات فمن باب أولى أن نتعرّف إلى الطبيعة الذكورية لغياب الطبيعة الأنثوية والتي من المستحيل تحديد ملامحها؟

– لا أرفض أي نوع من الأحاديث الماديّة، ولا يمكننا إنكار وجود هرمون الخصية (التستوستيرون)! مع ذلك سبق لي مشاهدة ثورين في نفس الحظيرة: من الممكن أن يتآلف هذان الثوران مع بعضهما في غياب الأنثى. وفي هذه الحالة لا مهرب من العداء، خاصة وأن حركة الهرمون لا تستلزم عدم السيطرة على الأمور، لأن البشر ليسوا حيوانات، فالثقافة والعقل يتضمنان السيطرة على النفس، وعلى الغريزة الجنسية. فالرجال لا يشبهون الأيائل التي تبادر إلى النزب والتذمّر وتتشابك بقرونها في فترة الضَبَع (النشاط الجنسي) للثدييات!

نساء بقلوب رجال

– إلّا أنه... في جميع الأحوال يبدو أن كافة السبل متاحة لكي ينسب الرجال لأنفسهم خصوبة المرأة و "ميزة الإنجاب المفرط".

– خصوبة النساء وهيمنة الرجال أمران مرتبطان ببعضهما بشكل متين. أما النساء اللاتي تجاوزن سن الإنجاب فإنهن لا يمثلن الرهان نفسه، ففي كل المجتمعات تقريباً نلاحظ أن وضع المرأة يتغيّر جذرياً عندما تبلغ سن اليأس. وقد يقترب من وضع الرجل. مما لا شك فيه أن الاحترام الذي تتمتع به المرأة في تلك المرحلة منوط بالرجال الذين يحيطون بها. يقول أوسكار لويس Oscar Lewis في كتاباته بأنه في المجتمعات الهندية من أصل كندي، عندما ترتبط الابنة المفضلة لأب من ذوي النفوذ والسلطة، بزوج ثري، وتصبح أماً من الممكن أن تتحول عند دخولها سن اليأس إلى امرأة بقلب رجل. تكتسب حرية شبيهة بحرية الرجل، وتمتلك الحق بتبنّي سلوكيات وأنشطة محظورة على النساء: كأن تعاهد وتتكلم أمام العامة، وتتعاطى الكحول، وتنظّم الحفلات، وتتقدم بالأضاحي وأيضاً... تتبول وهي واقفة!

– يا للحظ... يتم تقييم المرأة في هذه الحالة بكونها صورة عن الرجل. فالذكر يبقى متفوقاً على الأنثى.

– هذا صحيح، عندما تبلغ المرأة سن اليأس فذلك لا يعني أنها أصبحت حرة أو أن وضعها بات مشابهاً لوضع الرجل، بل يلاحَظ عند غالبية المجتمعات البدائية أن سن اليأس ليس سوى إشارة لانتهاء المرأة. إذا تقدم بها العمر، وكانت فقيرة ووحيدة لابتعاد الابن وغياب الزوج فإنها تصبح منبوذة، وفي أغلب الأحيان يَحْذر الناس منها ويبلغ بهم الأمر إلى اتهامها بالسحر والشعوذة، لأنها تصبح مصدر خطر عليهم.

– هذا يعني أن الاقتتال يتوقف من أجل الاحتفاظ بامرأة تجاوزت سن الإنجاب. ولكن ماذا بشأن المرأة الشابة العقيمة؟ ألم يكن مصيرُها مثيراً للقلق في كل الأوقات؟

– اعتُبر العُقم على مر العصور وفي كل الأماكن مشكلة أنثوية بحتة. اعتمدت المجتمعات القديمة في هذا المضمار على الملاحظات المحسوسة لا على المعلومات العلمية التي اكتسبناها مؤخراً. أما من ناحية الرجال، فقد ثبت أن عجز الزوج هو السبب البديهي لعقم الزوجين. بالفعل، لا يوجد هناك شعب، مهما كان بدائياً، لا يعرف أن المرأة لا يمكن أن تنجب أطفالاً إذا لم تمارس الجماع مع زوجها.

– هل تعتقدين أن هذا المفهوم كان سائداً حتى في العصر الحجري القديم؟

– بكل تأكيد، ويشير إلى ذلك علم الثقافات البشرية. ربما اعتقد أسلافنا أنه يجب على الروح أن تأتي المرأة، ولكن الطفل لن يأتي إلى هذا العالم ما لم تجامع المرأة زوجها. لا يبدو هذا المعتقد غريباً: هناك من يؤمن بهذا الأمر داخل مجتمعاتنا، معتقدين أن الدعاء الذي تتوجه به المرأة إلى السيدة العذراء يسفر عن ولادة الطفل. ومع ذلك لكي ترسل السيدة العذراء هذا الطفل لا بد من الجماع مع الزوج! على كل حال، عندما يكون الرجل سليماً وقادراً على الإنجاب، وعندما يجامع الرجل زوجته ولا يحصل الحمل، تُتهم المرأة بمسؤولية العجز عن الإنجاب. فالمرأة العاقر ينظر إليها على أنها كائن ناقص، غير كامل، بل وتتهم في أنوثتها. كما تتهم في بعض الأحيان بأنها مذنبة بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، مما يجعلها عرضة لأعمال عنف سواء الإرادية منها أو العفوية. وتتعرض للنبذ أو الطلاق أو الاستبدال بزوجة أخرى.

– وماذا عن النساء اللاتي لا ينجبن سوى الإناث، ألا يُنظر إليهن على أنهن مخلوقات ناقصات؟

– بالفعل، فهؤلاء النسوة غير عقيمات ولكن مصيرهن ليس أفضل بكثير من الأخريات. ففي كثير من المجتمعات والبلدان، يعتبر الطفل الذكر هو المهم، والرجل الذي ليس لديه أطفالاً ذكوراً يعتبر في الغالب بأن لا أولاد لديه. وتتهم زوجته بالخبث بتمنعها عن إعطائه الطفل الذكر. فهي لا تقوم بدورها كما يجب، لذا فمن السهل تطليقها أو استبدالها بأخرى.

– هل تقوم كافة المجتمعات البدائية بنبذ المرأة "التي لا يعتبرونها امرأة"؟

– نعم بصورة عامة، ولكن ليس بشكل دائم. فإذا ثبت عند قبائل النوير Nuer في أفريقيا الغربية أن هناك زوجة عاقراً، فإنها تعود إلى عائلتها... كابن أو كأخ، هذا ما قاله البريطاني إيفانز بريتشارد Evans-Pritchard. تُعامَل على أنها رجل، وتستطيع أن تجمع قطيعاً من الماشية، ومن ثمّ تحصل على زوجة أو عدة زوجات. وتتهيأ لها عندئذٍ جميع امتيازات الزوج، فتقوم الزوجات على خدمتها وتبجيلها، وتستطيع أن تجنّد خادماً من عرق آخر ليقوم بإخصاب زوجاتها. لكن هذا الرجل لا يحظى بصفة الأب، فالأب هو تلك المرأة–الزوج، ويناديها أولادها (بابا).

– حتى لو كان مصيرها أفضل من غيرها في مجتمعات أخرى، إلا أنها ليست امرأة.

– هذا مؤكد. فالخصوبة هي التي تجعل من المرأة امرأة. والتسلّط الذكوري يعادل العزم على السيطرة على خصوبة المرأة وهي في سن الخصوبة.

في خدمة الرجال

– إذا بالنسبة للرجال، لا يقتصر دور النساء على إنجاب الأطفال فقط، إنهن أيضاً مصدر للمتعة... الا يشكل ذلك سبباً إضافياً لامتلاك المرأة وتخليصها من أطماع الرجال الآخرين؟

– نعم، خُصِّصت النساء من أجل خدمة الرجال وإنجاب الذكور من الأطفال، أما البنات فوجودهن ضروري أيضاً. إضافة إلى ذلك، يترتب على النساء تقديم المتعة للرجال. أما في بعض المجتمعات كالإغريق، واليابان، والهند، والطوائف اليهودية القديمة، فقد كانت هذه المهام تقسّم بين عدة نساء. أما فيما يتعلّق بالعلاقة الزوجية، فإن مسؤولية الزوجة تنحصر في عملية الإنجاب؛ في حين تقوم نساء

أخريات بمنح الرجل اللذة، ويُعتبر الأولاد الذين يولدون نتيجة هذه العلاقة غير شرعيين. تَلزم الزوجة جناح النساء في المنازل الإغريقية القديمة، معزّزة مكرّمة، يقيم معها زوجها العلاقات الزوجية بهدف إنجاب الأولاد، ولا يتعدى الأمر هذه الحدود. ثم هناك نوع آخر من العلاقات، ألا وهو المعاشرة غير الشرعية، حيث تعيش العشيقة في المنزل وتوفر الرفاهية المنزلية، وتهتم بتأمين ملذات الحياة اليومية، والطعام والغسيل. أما فيما يتعلّق بوسائل التسلية الزائفة، الجنسية والفكرية، فهي من اختصاص المومس المنحدرة من طبقة اجتماعية رفيعة. هذه المومس لا تقوم بالأعباء المنزلية، بل ترافق الرجال إلى الولائم، وتناقش المواضيع الفلسفية، وتضاجعهم عند الضرورة. إلى جانب هذه المومس، هناك العاهرة، وهذه تبقى مخصصة للمتعة الجنسية البحتة، ولا علاقة لها بالمناظرات الفكرية.

– ذلك يعني أن هناك العديد من النساء يعملن في خدمة رجل واحد... هل لاحظتِ هذا التفكك في الأدوار الموكلة إلى النساء في عدد من المجتمعات القديمة؟

– كلا. هذه الأدوار بعيدة عن التفكك في غالبية المجتمعات، حيث تمارس الزوجة دور الأم، وتؤمِّن وسائل الراحة، وتعمل خارج المنزل، كما أنها تشكل مصدراً للمتعة الجنسية.

– ولكن مهما تنوعت التسمية في المجتمعات القديمة المختلفة، يبقى جسد المرأة ملكاً للرجل، ومهمته الرئيسية هي إشباع جميع متطلباته مهما تباينت...

– يجب أن ندرك جيداً أن تحريم زنا المحارم والعلاقات الجنسية التي تؤدي إلى إنجاب الأولاد وتأمين الملذات في آن واحد لها متطلبات قوية. هذا يعني أنه يجوز للرجل من الناحية النظرية أن يتزوج أية امرأة، كلهن رهن إشارته، فيما عدا تلك اللاتي تخص أحد الرجال وتحتمي بحماه. أما المرأة التي لا يوجد من يحميها، فإنها معرضة للانتهاكات. إذ تعتبر الغريزة الجنسية الذكورية قانونية وشرعية، ومرخص لها. وهذا ما أُطلقُ عليه تسمية "الشرعية المطلقة للغريزة الجنسية الذكورية".

– هل اعتُبِرت الغريزة الجنسية في كل الأوقات: قانونية وغير قابلة للكبت؟

– نعم، إنه النموذج القديم المسيطر الذي ورثناه عن أجدادنا، ولم نتخلَّ عنه حتى الآن. بل ولم تخضع مسألة الغريزة الجنسية الذكورية لإعادة نظر، حيث تعتبر

أمراً طبيعياً محصوراً بالذكور. وهنا يأتي دور النساء لإشباع هذه الغريزة، وعلى الفور. في حين أن شهوة الأنثى كانت ولا تزال قيد السيطرة الصارمة. ففي غالبية المجتمعات، يجب على الفتيات أن يحافظن على عفّتهن إلى يوم زفافهن ليلتزمن فيما بعد بالإخلاص لأزواجهن، حيث كان الزناة يلقون عقوبة صارمة. فالزواج في هذه الحالة يعتبر عقداً حصرياً للعلاقات الجنسية.

– على اعتبار أنه لا يمكن كبت الغريزة الجنسية الذكورية، لماذا يفترض أن تُشبَع في جسد امرأة بشكل شرعي؟

– لماذا حقاً؟ إنني أعتقد شخصياً أنه من الممكن كبح جماح هذه الحاجة الملحّة. هناك العديد من الرجال الذين يعيشون على الإخلاص والعفة، وقد نجحوا في ذلك. ومن ناحية أخرى، هناك طرقٌ عديدة ومتنوعة لتفريغ هذا الفائض من الطاقة. ولكن كلا! يبدو أن المجتمعات تطرح وجود جسد امرأة لإتمام العملية كشرط أساسي، بينما تذعن بعض المجتمعات على أن جسد طفل يفي بالغرض.

– هل يكمن الهدف بالبحث عن المتعة أو عن السيطرة؟ هل نستطيع أن نقول إن اللذة التي يشعر بها الذكر تكون مشوبة بالعنف الذي يمارَس على جسد المرأة أو على جسد أي كائن آخر أضعف منه...

– لا تخلو عملية الولوج من العنف. حتى في بلاد الهند حيث إن سلبية الرجل أمر مطلوب، فإنه هو من يقوم بالولوج لذا لا يمكن له أن يخضع للعنف. لقد أدلى كل من فرويد Freud وغاندي Ghandi برأيهما في هذا المضمار، وقالا إن النموذج الأول للعنف يتجسد في عملية الولوج الجنسية. كما يمكن أن نجد هذا العنف بين الرجال. يقول بول فين Paul Veyne في كتابه "روما القديمة" كانت الجنسية المثلية والشذوذ الجنسي على طريقة قوم لوط شائعين، أما الشخص الذي يخضع لعملية الشذوذ فكان موضع احتقار جذري. فإذا خضع رجل حر لعملية الشذوذ الجنسي من قبل العبد، فذلك هو العار المطلق، وتدمير لمركزه! بينما العكس لا يشكل أية أهمية: أي أن يستخدم المواطن الروماني جسد صِبْية لإشباع لذته الجنسية بدلاً من اللجوء إلى جسد النساء فإن ذلك لا يعطيه لقب الشاذ جنسياً.

الفصل الثاني

فرض السلطة باللجوء إلى العنف

نظام الأمومة الوهمي

– **نيكول باشاران:** المهم إذاً هو دور الرجل: إليه يرجع الأمر في الاختيار وفي ممارسة الرقابة. ولكن ألم تصادفي واحداً من المجتمعات القديمة جعل من المرأة المسيطر الأول؟ ألم يتكلم أحد عن نظام الأمومة البدائي؟

– **فرانسواز إيريتييه:** ورد الحديث عن هذا النظام القديم على أنه حقيقة تاريخية من خلال أعمال أدباء لمع اسمهم لفترة وجيزة في الماضي ثم لم يلبث ان انطفأ بسبب فقدانهم للمصداقية. أخص بالذكر هنا جوهان جاكوب باشوفن Johann Jakob Bachofen الاختصاصي بعلم الإنسان في القرن التاسع عشر، حيث اعتقد أنه في وقت من الأوقات، أمسكت فيه النساء بزمام الأمور والسلطة. ثم انتزعت منها هذه المزية بسبب عجزها عن المحافظة عليها. فطغت سلطة الأب وحلّت مكان سلطة الأم، ليسود ذلك في كل بقاع الأرض.

– ما هي العوامل التي اعتمدها باشوفن في نظريته؟

– لم يكن بمقدوره أن يأتي بأي دليل تاريخي، لذلك اعتمد على الأساطير القديمة التي تناقلها الإغريق القدماء حول المجتمعات البربرية – إذ اعتبر الإغريق أن

البربر وكل من كان غريباً عن اليونان، اعتُبر أجنبياً بالنسبة لهم. تحدثت هذه الأساطير عن مجتمعات شهدت سيطرة النساء فيها على كل شيء من خلال نفوذها. قد تكون تلك الأساطير من الخرافات البعيدة عن الواقع أو أنها وقائع حقيقية لكن مداها لا يصل إلى الوصف الذي أورده باشوفن في كتاباته التي اعتمد فيها على نظرة الإغريق إلى جيرانهم فحسب: كانت تلك النظرة محقّرة، إذ إن تصرفات هؤلاء الأقوام كانت غريبة وتنم عن أخلاق رديئة. وقد استهجن الإغريق وجود مجتمعات تقودها النساء!

– لكن ألا تعتقدين أن الأساطير ليست سوى تجسيد لحال العالم القديم في بعض الاحيان؟

– هناك نوعان رئيسيان من الأساطير. لقد قام كلود ليفي – شتراوس بتفسير النوع الأول، أي الأساطير المتعلقة بالحيوانات، وقال إنها ربما تكون الأصل المؤسس للبشرية، في زمان كان كل من الإنسان والحيوان داخل غلاف مشترك، ثم تذكر الأسطورة الانفصال الذي حدث بينهما نتيجة ظهور اللغة. عندئذٍ انفصل الإنسان عن الحيوان بشكل نهائي. أما النوع الثاني من الأساطير فقد جاء ليبرّر النظام الاجتماعي القائم. لقد تصورت هذه الأساطير أن العالم القديم كان يعمل بشكل سيئ فكان لا بد من تدميره لإنشاء عالمٍ أفضل.

– ألم تتعرّض هذه الأساطير للفردوس المفقود؟

– كلا، على العكس تماماً، بل تحدثت عن عالمٍ قديم سيئ للغاية. لقد كثرت هذه الأساطير، ونجدها في مناطق مختلفة من العالم. فإذا عدنا إلى مؤلفات مارتن غوساند Martin Gusinde وآن شابمان Anne Chapman، تطالعنا أسطورة من أرض النار تقول بأن الرجال كانوا يحيون في حالة من الخضوع السافل والحقير. كانت النساء يجلسنَ في البيت ويتمتّعن بحياة رغيدة، خالية من أي نوع من الهموم المادية، بينما كان الرجال يجلبون لهنّ الطعام زحفاً على البطون ويضعونه قريباً من المنزل. لم يحاول الرجال أبداً الدخول إلى البيوت من شدة خوفهم من جبروت النساء الخارق للطبيعة. كانت أولئك النساء يدرنَ الرومب (وهي آلة موسيقية تُصدر غطيطاً قويًا)، وعندما يتناهى إلى أسماع الرجال هذا الصوت الذي يشبه زئير الحيوانات، كانوا يعتقدون بأن هناك أرواحاً تنزل من السماء وتعيش بين النساء

لدعم سلطتهنّ. إلى أن جاء يوم تجرأ فيه أحد الرجال واقترب من المنزل زحفاً على بطنه، فتبادر إلى سمعه صوت الضحكات وتبيّن له أن النساء يهزأن من حماقة الرجال وسذاجتهم، ويهنئن بعضهن للخدمة الممتازة التي يقدمها لهن هؤلاء الرجال. بادر هذا الجاسوس إلى إعلام الآخرين الذين قرروا على الفور قلب نظام الأمور رأسًا على عقب. فقاموا بمهاجمة المنزل الذي تقيم فيه النساء وقتلوهن عن بكرة أبيهن. وتركوا الفتيات الصغيرات – لقد كانوا على يقين أن النموذج ينتقل بسرعة إلى الفتيات الصغيرات. فأبقوا على حياتهن واهتموا بتنشئتهنّ على أساس أنهن كائنات من الطبقة الدنيا، خُلقت لتكون مخلصة للرجال وخاضعة لهم. تمّ بذلك تأسيس جيل جديد وسعيد، سيطر فيه الرجال على السلطة وأجبروا النساء على خدمتهم.

– مجمل القول، جاءت الأسطورة لدعم مصير كل فرد في المجتمع...

– هذا صحيح. سأورد لك مثالاً آخر عن أسطورة تبرّر توزيع الأدوار بين الذكر والأنثى. ففي غينيا الجديدة، يروي موريس غودليه Maurice Godelier أن العالَم في أصله كان يسير بشكل سيئ، ويتسم بالفوضى. كانت النساء يتمتعنَ بقوة الإبداع والغليان مما أتاح لهنّ اختراع العديد من الأشياء. ولكنهن أسأن توظيف هذه القوة. في مرحلة ما قمن باختراع القوس والسهم للصيد، ولكن بدل أن يطلقن السهام إلى الأمام كنّ يطلقنها إلى الخلف فتصيب بها الرجال الذين يتبعونهن وترديهم صرعى. لم يحاول الرجال أن يشرحوا للنساء أن عليهن استخدام القوس والسهم بشكل مختلف، بل بادروا إلى تجريدهن من هذه الأدوات، ليستخدموها بدورهم بالشكل الصحيح. لقد تكررت هذه المغامرة وفقاً لما ترويه الأسطورة، بشتى أنواع الاختراعات، كمزمار الحفلات الذي يسمح بإقامة اتصالات مع الأرواح عند شعوب الدوغون[1]؛ والملابس الخاصة بحفلات تقديم القرابين للآلهة. اقتصر حسن استخدام هذه الاختراعات التي قامت بها النساء، على الرجال. تروي هذه الأساطير أن لدى النساء القدرة على الاختراع كما لهن القدرة على الإنجاب، ولكن من دون إدراك، ولا عقل؛ ولحسن حظهن، كان الرجال إلى جانبهن لتنظيم هذه القدرة الأنثوية المبنيّة على الفوضى...

(1) شعوب الدوغون Dogon يقيمون في وسط مالي وشمال بوركينا فاسو- المترجم.

– ألم تنجح أي من تلك المجموعات النسائية في الإفلات من رقابة الرجال؟ وماذا عن نساء الآمازون الشهيرات، تلك المحاربات اللاتي كنّ يقطعن أحد أثدائهن من أجل تسديد رميتهن؟ لا يمكننا ذكر هذه العملية من دون أن تتملكنا رعشة الرعب!

– لمجرد التفكير في هذا التصرّف (حيث يقال إن مقاتلات الآمازون كنّ يقمن به بأنفسهن أو فيما بينهنّ) والتفكير في التئام الجرح الذي ينجم عن العملية، يصيبنا الذهول، ويبرهن لنا أن الموضوع مجرد أسطورة، بعيد كل البعد عن الواقع. إني ألمح هنا نوعاً من السحر – من اليونان والحالة هذه– لوضع مقيت لا نجده عندنا، ولكننا نشك بوجوده عند جيراننا: الوضع الذي يسمح فيه للمرأة أن تختار! حيث إن مقاتلات الآمازون ينجبن الأطفال، ولذلك يقمن باختيار الرجال للإخصاب. فهن يتبنيّن سلوكاً خاصًا بالذكور إلى درجة إنكار ظهور علامات الأنوثة في جسدهن بقيامهن بهذا البتر الذائع الصيت.

– ولكن ألا توجد مجتمعات تضم نساءً مقاتلات بكل معنى الكلمة؟

– كان لدى شعوب الغال الفرنسية نساءٌ مقاتلات. وكذلك الأمر بالنسبة لملوك داهومي. تلك كانت فِرق الشرف، أو فِرق المواكبة، علماً أن القاعدة السائدة هي للمقاتلين من الذكور.

– ألم تكن تلك النساء يشاركن في القتال؟

– بلى ولكن ضمن شروط معيّنة، تجدر الإشارة هنا إلى دليل ناطق: ففي الفِرق المقاتلة لشعوب الغال – وهذا ينطبق أيضاً على بعض المجتمعات الإفريقية والأمريكية من أصل هندي – يُسمح بالقتال فقط للفتيات العذراوات أو اللاتي لم يبلغن بعد أو النساء المتقدمات في العمر أي اللاتي تجاوزن سن اليأس. أما المرأة الولود، فإنه يُحظر عليها المشاركة في القتال. هذه المجتمعات المكونة من الفتيات في مقتبل العمر والنساء اللاتي بلغن سن اليأس، تكاد تشبه مجتمعات الجنس الخشن. هذا يقودنا إلى طريقة التفكير التي كانت سائدة قديماً فيما يتعلّق بالدم والحرارة. فالمرأة التي لم تبلغ سن الحيض أو التي تجاوزت سن الحيض تختزن الحرارة في جسدها تماماً كالرجل. بينما تبقى المرأة التي تحيض باردة بسبب فقدانها للدم في أوقات الحيض، فهي تفتقد بذلك إلى الحيوية والعزم، لذا تنحصر مهمتها في الإنجاب لا في القتال.

– إذا فوجود مثل تلك النساء المقاتلات يجب ألا يُترجم إلى دليل على الهيمنة الأنثوية؟

– لم تكن مجتمعات الغال في يوم من الأيام مجتمعات أمومية. لكن تلك النساء المقاتلات لسن منحرفات بل إن طريقة تفكيرهنّ منظّمة جداً ومنتشرة في كل مكان. أما ما يدعم الهيمنة الذكورية فهي في كل الأحوال العزم على الاستئثار بخصوبة المرأة. وتبقى المرأة العاقر في منأى عن هذه الرقابة.

– أراني مصرّة على تتبع الآثار القصوى للزمن الذي تمتعت فيه المرأة بشيء من الحرية: ألا تدل التماثيل الصغيرة لنساء ذوات الصدر الممتلئ التي عثر عليها علماء عصور ما قبل التاريخ، ألا تدل على أن جدّاتنا كنّ يتمتعنّ بمكانة مرموقة؟

– هذه المنحوتات الصغيرة هي تعبير عن الأمومة. وعلى الأرجح، ما يتم تجسيده من خلال هذه الأشكال الأنثوية، هو القدرة الخارقة على الإنجاب. يدل الحجم الصغير لهذه التماثيل على أنها كانت تنقل من مكان إلى آخر. هل هي وقاية صحية واجتماعية، أو تمجيد للخصوبة، أو إعجاب بجمال جسد الأنثى الممتلئ... لا يمكننا تحديد ذلك. لكن التكريم الذي يمجّد الخصوبة الغامضة لا يعتبر تعبداً لآلهة الأمومة. وهذه التماثيل لا تشهد بهيمنة النساء والأمهات على الرجال.

تحت سطوة الأخ والزوج

– إذا صحّ القول فإن عاطفة الأمومة الجياشة هذه لا يمكنها أن تشبه عاطفة الأمومة لدى النساء في العصر الحجري القديم اللاتي نتخيل أنهنّ كنّ مفتولات العضلات ورياضيات... ومع ذلك، وبالقرب منّا، تطالعنا أمثلة لمواقف استحوذت فيها النساء على السلطة: إنها المجتمعات الإفريقية والهندية حيث يعود الولاء للنساء في انتقال الرابط العائلي والإرث.

– تلك المجتمعات اللاتي نطلق عليها تسمية "المجتمعات الأمومية". لقد اكتشفنا على بحيرة شاطئية في ساحل العاج أسطورة تحكي أصول نظام المجتمع الخؤولي (المتعلق بقرابة الأم). ومن جديد تأتي الأسطورة لتبيّن لنا النظام الاجتماعي السائد، مشيرة بذلك إلى تدني الحالة التي كانت سائدة في السابق. يروي مارك أوجيه Marc Augé في الأسطورة التي أخرجها أن الأب والأم كانا في الزمن القديم يتقاسمان الحقوق التي تتعلّق بالأولاد بالتساوي فيما بينهما. وفي يوم من

الأيام، وجدت فيه هذه الطائفة نفسها مضطرة لمغادرة المكان بسبب تهديد الأعداء لها. وأُرغم الفارّون على اجتياز النهر هرباً من أولئك الذين يطاردونهم. ولكن قبل أن يسمح لهم النهر باجتيازه طلب منهم تقديم أحد أبنائهم و إحدى بناتهم قرباناً له. فطلب رئيس القبيلة من زوجته إعطاءه ابنهما وابنتهما ليقدمهما قرباناً للنهر من أجل إنقاذ العشيرة. رفضت الزوجة الرضوخ للأمر فتدخلت شقيقة الرئيس وقالت له: "خذ ابني، خذ ابنتي، ولكن أنقذ القبيلة". وتمّ ذلك، وقرر هذا الرئيس على أثرها ألا يرث الأولاد آباءهم، وألا يتولوا أمر القبيلة من بعدهم وإنما يعود الأمر إلى أولاد العمات.

– في هذه الحالة لا يرث الأولاد من آبائهم إنما من أخوالهم.

– هذا صحيح. كانت تلك المجتمعات الأمومية موجودة حقاً ولا تزال إلى يومنا هذا. فنظام الإرث الأساسي، بما فيه العقارات والأموال من كافة الأصناف لم يعد ينتقل من الأب إلى الابن بل من الخال إلى ابن الأخت. مع ذلك، لم تحظَ المرأة في هذه المجتمعات بالسلطة! ولا يملك الأب أية سطوة أبوية في النسل الذي من صلبه، ويبقى الأطفال معلقين بخالهم. غير أن هيمنته تبقى في سلالة عائلته الأصلية، أي أولاد أخته.

– هل يملك السيطرة على أخته؟

– نعم. وهذا لا يمنع أن تمتد سلطته إلى زوجته فيما يتعلّق بالعلاقات الزوجية.

– أخوات وزوجات، يبقين "الطرف الرابح" في كل الأحوال!

– يا للمسكينات! عندما أقول سلطة الأخ على أخته أقصد بذلك أن الرجال يتبادلون فيما بينهم أخواتهم بالزواج. ومن جهة أخرى يمكن أن يصدر الرجال الأوامر لأخواتهم، كأن يطلبوا منهنّ إعداد المؤونة في حال الحرب أو في رحلات الصيد.

– هل يبنى المنهج داخل مجتمعات النظام الأمومي على أساس السلطة المزدوجة للأخ والزوج؟

– نعم في أغلب الأحيان، مع وجود بعض الاختلاف ودرجات متباينة لتبعية

المرأة. يبدو أن مجتمع النظام الأمومي الإيروكوازي[1] (Iroquoise) الذي يعتمد على النساء كان أقرب ما يكون من نظام الأمومة الحقيقي. تقول جوديث براون Judith Brown في مؤلفاتها إن البنوّة لدى الشعوب الهندية من أصل أميركي (وهي صلة النسب بين الولد وأبيه أو أمه) كانت تتم عن طريق النساء اللاتي كنّ يقطنّ في بيت الأهل مع أزواجهن وأولادهنّ. والبيوت العائلية الكبيرة كانت تقودها امرأة مسنّة مهيبة، تنظّم عمل النساء كما توزع الغذاء وتدلي برأيها في مشاريع الحروب. تمتعت هذه النساء المسنّات بسلطة حقيقية، ولكنهن كنّ في عمر متقدم، أي تجاوزن سن اليأس، لذا لم تكن "سلطة حقيقية" بكل معنى الكلمة، حيث إن قوانين ضبط الخصوبة لدى النساء من قبل الرجال لم يتم إلغاؤها في وقت من الأوقات.

– ومع الاستئثار بالخصوبة هل تبقى قضية "التكافؤ التفاضلي للجنسين" الناتجة عنها، حاضرة لدى كافة المجتمعات البدائية؟

– ما إن تمّت ملاحظة هذه القاعدة الأساسية حتى وجدنا ضمن المجتمعات التي تعتمد على الصيد وجني الثمار، والبدو الرحّل والمزارعين، حالات آخذة في التفاقم. فعند مجتمعات البوشمن Bushmen، يكاد وضع النساء يتطابق مع وضع الرجال، علماً بأن المهام اليومية الملقاة على عاتق المرأة تثقل كاهلها. أما في بقية الحالات فنشاهد نساءً يعانين من الاحتقار الكامل، بينما يتصرّف الرجال بهنّ حسب رغبتهم، مع الاحتفاظ بكامل الحقوق عليهن.

التمييز يقتل...

– لاحظنا أن التكافؤ التفاضلي للجنسين يولّد تمييزاً قد يتطور ليصل إلى جريمة القتل. ويبدأ ذلك في وقت مبكر جداً. فالشكل الأول من العنف الذي يتهدد النساء هو التخلّص منهنّ حال ولادتهن. لا يزال يشهد العالم حتى يومنا هذا في بعض بقاع الأرض من قارة آسيا، عمليات وأد للمواليد من البنات من دون الذكور. هل سبق وشاهدتِ حالات مماثلة من الزهد في الإناث حديثات الولادة أو الجرائم التي تُرتكب بحقهنّ في المجتمعات البدائية؟

– لا بد أن هذه الممارسات كانت موجودة في كل زمان، لكن لحسن الحظ

(1) شعوب الهند من أصل أمريكي- المترجم.

ومن خلال الدراسة التي أجريتها على بعض المجتمعات، علمت أن هذا الأمر لم يكن منتشراً في كل بقاع الأرض. لقد ظهرت المشكلة في توأمي البيضتين الذكر والأنثى، حيث تَعتبر بعض الثقافات أن وجودهما يشكل خطراً، فتلجأ إلى استئصال أحدهما، ويفضل في هذه الحالة أن تكون البنت هي الضحية. مع ذلك، يجتاح التمييز حتى المجتمعات التي ترحب بقدوم البنات. منذ طفولتها، يقترن الاحتقار والإذلال باليقين الذكوري السائد بتفوق الرجل على المرأة من حيث القيمة، حتى لو لم ينجز أي عمل، وكانت هي جديرة بالتقدير، كل هذا يعمل على تدميرها نفسياً، وهذا ليس بالقليل. يتجاوز التمييز بين الذكر والأنثى هذه الحدود ليصل إلى العنف الجسدي وربما إلى القتل كما ذكرتِ. كان ينظر بعين الرضا إلى هذه الانتهاكات التي تقع على المرأة من قبل الرجل الذي يملك السلطة، هذا إذا لم تكن هذه الممارسات مشروعة أصلاً.

– حتى داخل المجتمعات البدائية؟

– حتى داخل المجتمعات القريبة من العصر الحجري القديم التي تعتمد في معيشتها على الصيد وجني الثمار، والتي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا. إني أشير هنا بالتأكيد إلى شعوب البوشمن في صحراء كالاهاري[1]، حيث يطغى الرفق على العلاقة بين الذكر والأنثى. هذا هو الحال لدى شعوب البيغميه[2] أيضًا. ولكن في مجتمعات أخرى – أعني مجتمعات أرض النار ومجتمعات الصيادين الهندية – لا بد وأن سيطرة الرجال على النساء كانت مشوبة بعنف كبير. لا زلت أعتقد شخصياً، أن العنف كان موجوداً منذ الأزل بجميع ألوانه، ولكنه كان متباينًا. على كل حال، نلاحظ اختلافًا كبيرًا حتى داخل الثقافة الواحدة، حيث تحظى بعض النساء من دون غيرهن بوضع مميز، لكنّ هذا لا يعني سيادة العدالة بين الأجناس. لا بد أن تأتي ميشيل بيرو Michelle Perrot على ذِكر كريستين ملكة السويد، وإليزابت الأولى ملكة بريطانيا، أو كاثرين الثانية إمبراطورة روسيا في تاريخنا الغربي...

– إنهن حقاً نساء... ولكنهن قاسيات القلب كالرجال.

---

(1) في أفريقيا الجنوبية - المترجم.

(2) البدو الرحل في أفريقيا الوسطى (الكونغو والغابون والكاميرون) يعيشون في الغابات الاستوائية ويعتمدون على الصيد وجني الثمار - المترجم.

– لم يتم تقديرهن لأنهن نساءٌ بل لأنهن شغلن مناصب الرجال، لقد حبتهن الطبيعة بالنشأة والحظ، لكن لا يمكننا أن ننطلق من واقع هذه الحالات الاستثنائية لندّعي بأن النشأة الوضيعة للنساء الأخريات هي السبب في عدم تمتعهن بوضع مماثل.

– دعينا نعود إلى التمحيص في العنف التقليدي الذي تخضع له النساء...من خلال اطلاعك على المجتمعات القديمة، هل تعتقدين أن جداتنا اللاتي عشنَ في القرن الحجري القديم قد تعرضّنَ للتحرّش الجنسي، أو للاغتصاب "في مكان عملهن"؟ الا تعتقدين أن عمليات جني الثمار في الأحراج كانت على نفس القدر من الخطورة كالعمل في المزارع أو المعامل أو داخل المكاتب!

– النساء اللاتي يقعن فريسة للتحرش الجنسي هنّ اللاتي حُرمن في كل عصر من الحماية الذكورية. أيما امرأة لا تجد رجلاً لحمايتها تقع فريسة لأطماع كل الرجال، ذلك وفق المبدأ التقليدي السائد. لكن تبقى هذه الحالات نادرة جداً في المجتمعات القديمة. تمتد حماية الرجل إلى كافة النساء في سلالته: فالفتيات اللاتي فقدن آباءهن يجدنَ أعمامًا أو إخوانًا أو أولاد أعمام. فهنَّ ملك لرجال نسبهنّ، ويتم تبادلهن بنساء من سلالات أخريات، ويهتم الرجال بحمايتهنّ. إذا كان الرجال يرغبون بالزواج فعليهم بالمقابل تقديم أخواتهم وبنات أعمامهم للزواج. أما في المجتمعات التي تحبّذ العفة لدى الفتيات، فيتم فيها الحفاظ عليهن بشدة.

– ليبقى الحاجز المانع هو الحماية التي يوفرها الرجل في كل وقت.

– نعم. أيما امرأة تتعرّض للاغتصاب، في الوقت الذي هي ملك لرجل معيّن، يتم الثأر لها.

– إلّا في حال اعتبرها المجتمع مذنبة...

– هذا صحيح للأسف. كما يمكن أن يتغيّر موقف الرجال من النساء اللاتي يقومون على حمايتهنّ، ويتهمونهنّ "بالإغراء". في هذه الحالة تتعرض المرأة للعقوبة. لقد شهد العالم في كل العصور نساءً يُقتلن من قبل آبائهنّ أو إخوتهنّ أو أزواجهنّ حتى لو كنّ ضحايا حالات اعتداء.

... وبتر أعضاءً

– إذاً فالموضوع يتضمّن تقريعاً وعنفًا جسديًا مع وجود اختلافات وفق المكان والمجموعات. ماذا بشأن عمليات بتر الأعضاء التناسلية؟ هل استمرت على مدار السنين؟

– تنتشر عمليات بتر الأعضاء التناسلية لدى الكثير من المجتمعات، وتعود لعقود غابرة في التاريخ. لم يستطع أحد أن يدلي بفرضية صحيحة حول الزمن الذي ظهرت فيه مثل تلك الممارسات.

– أي نوع من عمليات البتر كانت تُمارس؟ كثيراً ما نسمع عن عمليات استئصال وتعقيم... الأمر ليس سيان بينهما.

– بالفعل. فعمليات الاستئصال نفسها تتخذ أوجهًا عديدة: قد يكون الأمر شطبًا لشفْر الفرج[1]، أو استئصالاً للقطعة البارزة، أو استئصالاً كاملاً للبظر[2] بالإضافة إلى الشفرين الصغيرين. أما التعقيم، فهو النوع الأقصى حيث لا يكتفى بقطع البظر بل يصل الأمر أيضاً إلى بتر الشفرين الصغيرين. ويتم حك الشفرين الكبيرين وخياطتهما إلى بعض مع ترك مسلك ضيق يكفي لمرور البول ودم الحيض. وفي يوم الزفاف يلجأ الزوج إلى فتح الجرح بواسطة خنجره. في بعض الحالات تعاد خياطة العضو التناسلي للمرأة بعد عدة ولادات أو طيلة فترة غياب الزوج.

– يبدو الأمر أكثر ترويعاً من أسطورة نساء الأمازون الشهيرة... يجب ألا يغيب عن أذهاننا هنا انعدام التعقيم والمضادات الحيوية – ويسجل عدد كبير من الفتيات الصغيرات اللاتي يقضين نتيجة الالتهابات – كما لا ننسى التئام الجروح والآلام التي تعاني منها هذه النسوة طيلة حياتهن... كيف نبرر مثل تلك الممارسات؟

– لا أحاول أبداً تبرير عمليات بتر الأعضاء عندما أورد لك سبب وقوعها. إلّا أن المجتمعات التي تمارس مثل تلك الأفعال لا تعتبرها إهانة للمرأة، إذ يسبق تلك الممارسات خطاب منطقي وتتم وفق دوافع محددة. نلاحظ أولاً أن بتر الأعضاء هذا يتم في مجتمعات تمارس الطهور للرجال. مما لا شك فيه أن الأمر يختلف بين الذكور والإناث. ففي الطهور يتم قطع الغُلْفة – وهو الجلدة الزائدة في العضو

(1) شفْر الفرج هو حرف الفرج من ناحيته الخارجية - المترجم.
(2) البظر هو النتوء في حياء الأنثى - المترجم.

التناسلي لدى الذكور. لا يمكن مقارنة الألم الجسدي الموضعي الذي ينتج عن القطع كما لا يمكننا تخيّل الوضع قبل وقوعه، بالألم الناتج عن عملية استئصال العضو الداخلي المخفي. هذا لا يمنع أن تمزج بعض المجتمعات بين العمليتين، مبررة ذلك بشكل عام أنها تبتر القطعة البارزة في الأعضاء التناسلية التي تشبه تلك الموجودة لدى الجنس الآخر. عند الأنثى، يتم استئصال القطعة البارزة في البظر، بينما يتم قطع الغُلْفة لدى الذكر بسبب أنه يشبه المهبل لدى الأنثى.

– ألا يُعتبر الختان في بعض الأحيان على أنه "إبراز" للأعضاء التناسلية لدى الذكور؟

– بلى، أحياناً، بينما لا ينطبق الأمر على الأنثى، فالاستئصال لا يُعتبر إظهاراً للعضو التناسلي.

– وماذا عن التعقيم؟ إلى أي دافع "رسمي" يوعز؟

– إحدى التفسيرات المحلية هي الحفاظ على الرطوبة داخل جسد المرأة في الدول الحارة والجافة، حمايةً لخصوبتها. تتلاءم هذه الممارسات مع الإيديولوجيا، وتُبرز المذكر والمؤنث، وتضفي صفات خاصة بكلا الجنسين. هذا النوع من التجسيد غالباً ما ينم عن تطور كبير وغير معروفٍ بالضرورة من قبل العامة.

– ماذا بعد الخطاب العلمي الذي لا يدركه الكثيرون، أين إرادة الرجال التي يتأكدون من خلالها ألا أحد يشاركهم في جسد زوجاتهم؟ وإذا كانت العلاقات الجنسية تسبب لهنّ آلاماً مبرحة فإنهن لن يتجرأن على البحث عن شركاء آخرين...

– هذا ظاهر جداً بالنسبة للتعقيم، قد يصل الرجل إلى القناعة برضوخ زوجته لممارسة العلاقة الزوجية لأنها قُسرت عليها من خلال رابط الزواج، ولن يتعدّى الأمر أكثر من ذلك. أما بالنسبة للبتر فالأمر مختلف أحيانًا. إنني أعتقد شخصياً أن الهدف لا ينحصر بالقضاء على قدرة المرأة على المتعة. كان لي لقاءات كثيرة مع نساء من بلاد السامو، وعلمت أن عمل أثلام صغيرة على شفر الفرج هو من أحد أنواع البتر، وأبدت لي تلك النساء اهتمامهنّ بحياتهن الغرامية – مع إبداء أسفهن لتعدد الزوجات– وصرّحن أنهن يشعرن بالمتعة.

– يبدو الأمر صعباً بالنسبة للنساء اللاتي حُرِمْنَ من البظر...

– هذا صحيح، ولكن لم تُجرَ بعد أية دراسة جديّة حول هذا الموضوع.

– مع ذلك – وأُصرّ على هذه النقطة – ألا يدل ذلك على أن الرجال يعانون من إقامة العلاقة الزوجية بوجود البظر؟ أليست المرأة "الجيدة" هي التي لا تشعر بالمتعة أو أنها تشعر بالمتعة فقط في الحدود التي ترضي زوجها: أي خلال عملية الولوج؟ وهذا العضو الزائد الذي لا يفيد في عملية الإنجاب، ألا يشكّل إزعاجًا للزوجين؟

– نعم، عندما يكون هذا العضو بارزاً فإنه يعتبر عائقًا، إذ إنه يشكّل جسماً مذكراً داخل الجسم المؤنث. لكن أن يبلغ بنا الأمر إلى إلغاء المتعة لدى الأنثى فذلك يعتبر رؤية أمور عصرنا بمقياس قديم.

– قد يمثّل ذلك أيضًا متعة للنساء خارجًا عن نطاق الإنجاب، وبالتالي فهي حرية مكبلة... لماذا تحرص الأمهات على إذعان بناتهن عند إخضاعهن لعمليتي البتر والتعقيم؟

– يقول الرجال دومًا في المجتمعات المعنية: "لا شأن لنا في هذا الأمر، إنه من اختصاص النساء". وهذا صحيح من حيث التطبيق. لكن للأمر مدلولاً آخر، فالرجال يرفضون تقبّل أنهم السبب في حصوله. تحرص الأمهات على تأمين مستقبل جيد لبناتهن مع أزواجهن ولا ينشدن التسبب لهن بالألم عند إخضاعهن لعملية الاستئصال. فالأمهات تعلم علم اليقين أن الرجال لن يقدموا على الارتباط بالفتاة التي لم تخضع أعضاؤها التناسلية الزائدة للاستئصال، حيث تعتبر هذه الفتاة غير "نظيفة"، وسينتهي بها الأمر إلى البغاء. وفي كل الأحوال، ستعيش منبوذة. في واقع الأمر، الرجال هم من يفرضون الاستئصال ولكنهم يبقون في منأى عن التنفيذ. هنا أيضاً تبرز سيادة الذكر على الأنثى، فمن شأن هذه الممارسة إرضاء الرجل في نهاية المطاف.

– دعينا نفتح قوساً سريعاً على واقعنا الحالي حيث لا تزال تمارس عمليات بتر للأعضاء التناسلية النامية: هل تؤمنين بشرعية "حق التدخّل" في هذا المجال؟

– أعتقد بأن حق التدخّل يتلاءم مع رؤية حقوق الرجال، والحال هذا، حقوق المرأة. كان لاعتراض النساء في الغرب على الاستئصال أو التعقيم وقعٌ سيئ على النساء في أفريقيا، إذ قالت: "لا تتدخلن في هذا الموضوع، هذا شأننا وتلك ثقافتنا". وتغيرت فيما بعد لهجة الخطاب، هذا ما تم اكتشافه بعد فترة طويلة، إذ قالت تلك النسوة: "لم يكن بإمكاننا إلا رفض مساعدتكنّ، لكنكنّ في الواقع قدمتنّ لنا خدمة جعلتنا نلفت نظر الرجال والحكومات في بلدنا إلى حقيقة المشكلة".

– ألا تبدو لك حجة "هذه ثقافتنا" مقبولة؟

– كلا، إذ إننا لن نجد أبداً ثقافات وقيماً مستقلّة بذاتها، أي نوعيّة، من السهل التعرّف عليها، ومختلفة عن باقي الثقافات. نجد أنفسنا أمام جواب واحد يتكرر:"هل تضاهي النساء الرجال بالمرتبة؟" ويأتي الجواب بالنفي القطعي، الجواب الذي حصل على إجماع المجتمعات كافة، الأوروبية منها، والآسيوية، والإفريقية، والأندونيسية ...إلخ. فالمشكلة لا تتناول اختلاف الثقافات بقدر ما تتناول المساواة بين الرجل و المرأة. إننا في الغرب لم نتوصّل إلى فكرة المساواة بين الجنسين إلّا مع بدايات القرن التاسع عشر، ومع ذلك فهذه المساواة لم تُوضع حيز التنفيذ بشكل كامل. لقد قطعنا شوطاً طويلاً في طريق الحكمة وعلينا أن نقترحه على المجتمعات الأخرى كدليل على ثقتنا بقدرتها على اجتياز هذا المسار.

كلا، إن "أقدم مهنة على مستوى العالم" ليست مهنة!

– لنغلق القوس على عالمنا الحالي ولنعاود إثارة موضوع العنف الذي تتكبده النساء منذ أقدم العصور. هل اعتبر البغاء المصير الحتمي لبعض النساء على مدى التاريخ إلى درجة حاز على تسميته "أقدم مهنة في العالم؟"

– إني أعترض على تسميته "أقدم مهنة في العالم"! فهذه ليست مهنة. فلو كانت مهنة لطُرحت على الأولاد كأحد الخيارات. لا يمكن أن يقول المرء لابنته في مجتمعنا المعاصر: "يمكنك أن تشغلي منصب مدير عام، أو أمينة سر، أو مضيفة طيران، أو عاهرة." لم تبادر أي من المجتمعات إلى اعتبار البغاء كخيار بين باقي المهن. إلّا أنه اعتبر في بعض الحالات وضعاً اجتماعياً. في بيزنطة، عندما كانت العاهر التي تقيم في حي محافظ تضع أنثى كان هذا المولود يُنذر للبغي، وأما إذا كان ولدًا فكان يُقتل على الفور.

– صبيةٌ ضحايا لجنسهم!

– تمّ العثور على مئات الهياكل العظمية لذكور حديثي الولادة داخل أقنية حمامات العاهرات في بيزنطة. أما البنات فتم الحفاظ على حياتهن حيث يجري تدريبهّن على البغاء، وما إن تبلغ الأنثى التاسعة أو العاشرة من عمرها حتى تنوب

عن أمها في العمل. مرة أخرى تطفو سيطرة الذكور على الإناث من خلال تصفية المواليد الذكور، ولكن بفعل معاكس. العاهرات هنّ مطلب الرجال، فيتم القضاء على الذكور من الأطفال وذلك في خدمة الشهوة الذكورية!

– ليست مهنة إذاً، بل وضع مسيطر... مع ذلك، هل يمكننا الادعاء بأنه "أقدم وضع" في التاريخ البشري؟ وهل وجد البغاء منذ الأزل؟

– لا نملك المعطيات الكافية لنجزم القول، ولكني لا أعتقد ذلك شخصياً. كان الرجال في حقبة ما قبل التاريخ يقيمون العلاقات الجنسية بشكل حر، في أي وقت، وحالما تسيطر الرغبة على الشريك الذكر، المهم أن يكون الشركاء شرعيين. الموضوع يشبه ما نشاهده في "حرب النار". تشير الدراسات التي أُجريت على المجتمعات التي تعيش من الصيد وجني الثمار أن البغاء لا وجود له عندهم – أي البغاء الذي يتم عن طريق دفع المال لنساء متخصصات في هذا المجال. وفي مجتمع المزارعين الأفريقيين عند شعوب السامو، وجدتُ وضعًا اجتماعيًا من نوع خاص جداً: نساء شرسات الطبائع، يمارسن حياتهن بشكل مستقل تماماً كما يفعل الرجال، يقمن العلاقات الجنسية مع عابري السبيل، ولكنهن لسن بالعاهرات إذ إنهنَ لا يقبلن المال في مقابل تقديمهنَّ للخدمات الجنسية.

– ولماذا يقال عنهن إنهن "شرسات"؟

– لأنه ليس لديهن أزواج لترويضهن. هذا لا يعني أنهنّ لم يرتبطن قط بالزوج. عند شعوب السامو لا بد لكل فتاة أن ينتهي بها المطاف إلى الزواج حتى لو لم يطرق الجمال بابها في يوم من الأيام أو كانت تعاني من مرض ما. وعندما تفقد الزوج (الذي غالباً ما يكون بسبب فارق العمر الشاسع بينهما) أو بعد انفصال بالتراضي، ترفض بعضهنّ العودة إلى بيت الأب أو الأخ تجنبًا للوقوع تحت سيطرتهما. فيجدن أنفسهن حرائر في علاقاتهن الجنسية، وبالتالي شرسات الطباع. يعملن لكسب لقمة العيش. في حال وضعن أطفالاً فإنهنَ ينسبوهنَّ إلى أحد العشاق بدلاً من زوج يمارس عليهنّ حقوقه.

– نستنتج من كل ذلك أنه كان لدى مجتمعات السامو، أو المجتمعات البدائية الأخرى التي تشبه مجتمعات أسلافنا، حرية في ممارسة العلاقات الجنسية، لكن لم يكن للبغاء مكان عندهم.

– هذا صحيح. تنقسم المجتمعات التي تعتمد على الصيد وجني الثمار إلى مجموعات صغيرة تعيش على اقتطاع ما يلزمها من الطبيعة. لهذا أعتقد أن البغاء لا يمكن أن ينشأ في مجتمع ما لم يكن هناك تعامل بالأوراق النقدية وأنظمة إنتاج منتظمة.

– إذا كان الأمر كما تقولين، ففي أية مرحلة إذاً يمكننا القول بأن هناك آثاراً ثابتة للبغاء؟

– نجد في مخطوطات البَرْدِيّ المصرية التي عملت في ورشات بناء الأهرامات قصصاً تتعلّق بعمال يلتقون ببنات الهوى في المقاهي. العبارات التي نستخدمها اليوم هي نفسها التي كان يستخدمها الأقدمون: "بائعات الهوى" أو "بنات السلوى" أو "المومس". كان على تلك النساء أن يقدّمنَ الهوى والسلوى للرجال لقاء مبلغ من المال. لكن المجتمع المصري كان يخضع لنظام تسلسلي صارم، وكان العمال يعملون تحت إمرة فرعون، بعيداً عن عائلاتهم، إذاً بعيداً عن زوجاتهم. بشكل عام، عندما توجد الدولة وأنشطة تجارية وأعمال حرفية وأخرى صناعية إلى جانب مجموعات وطنية على نطاق واسع، فهذا يدل على وجود حياة مدنية مما يشكّل جواً مناسباً لنمو البغاء.

– كيف يبدأ البغاء؟

– يبدأ بالمال الذي يتم دفعه. يمكن للرجل في حال العلاقات الناتجة عن الشهوة الجنسية العادية أن يقدّم للمرأة الطعام والمجوهرات والخيرات بأنواعها، أما في البغاء، فلن يتم الجماع إلا بحال دفع الرجل مبلغاً من المال.

– من أين نشأت فكرة دفع المال في مقابل الخدمة الجنسية؟ من المؤكّد أن الرجال في العصر الحجري القديم لم يكونوا يقدمون أي تعويض ماديّ عند امتلاكهم لامرأة من المجموعة على حين غفلة...

– أعتقد أن دفع المال يتفق مع فساد انتشر قديماً ألا وهو التدليس. عندما كانوا يختطفون فتاة ويعتدون عليها، كانوا يدفعون مبلغاً من المال للرجال من عائلتها. فالضرر لم يلحق بالفتاة بل بعائلتها، إذ إن الفتاة فقدت جزءًا كبيراً من قيمتها كأداة مقايضة. يتعلّق الموضوع إذاً بالبديل الأولي الذي هو إشارة للسيطرة الذكورية: فالفتيات لسن سوى قيمة يتبادلها الرجال فيما بينهم من أجل التكاثر وإنجاب الذكور.

– إذاً في حال تم الاختطاف والاغتصاب، فقد سُلب الرجل شيئاً ما، سواء كان أباً أو أخاً للفتاة المعنيّة.

– نعم ويجب في هذه الحالة أن يتم تعويض الضرر وفق قواعد محددة. لقد وجد التعويض بالمال في الأصل في مقابل أنواع متعددة من الضرر: إذا فقأ المرء عين شخص آخر أو قطع إصبعه...هذه العادات كانت مؤكدة عند شعوب البربر من الألمان في فترة حكم القيصر، بل وكانت موجودة قبل تلك الحقبة. إنها إحدى أسس الحق: فالمال يمنع الشكوى، ويقف حائلاً أمام الحرب والثأر. إنها وسيلة سلمية يبحث الناس عنها لتسوية الصراعات التي تنشأ فيما بينهم، وهذا مبدأ حضاري.

– أعتقد أن التعويض النقدي للضرر الناتج عن عملية الاختطاف كان يُدفع لرجال العائلة، لا للمرأة المعنية. فكيف إذاً تم الانتقال من التدليس إلى البغاء؟

– ربما تمّ ذلك لأسباب خاصة – في حال غياب الرجال أثناء الحرب، كانت الفتاة تضيع في الأدغال... – فيتم تعويضها بالمال. إنها طريقة للإيحاء إليها:"لم يعد بإمكانك أن تشتكي". ثم سرت العادة: تُغتصب الفتاة، ثم يُدفع لها مبلغ من المال، ويبدأ البغاء. لكن هذا لا يتم إلّا ضمن ظروف حضارية وسط حياة مدنية، ورؤساء، وسلطة خاصة بالدولة. إن المجتمعات التي يسهل فيها ممارسة البغاء هي المجتمعات – الشبيهة بمجتمعنا – التي لا تعيد طرح موضوع شرعية الدفع الذكوري، أو حق الرجال في التمتع بجسد النساء لإشباعه، على بساط البحث. يجب أن نتنبّه للضرر الجم الذي نلحقه بالنساء!

– في البداية، الأمر المعاكس غير وارد. فلا أحد يعترف بشرعية الشهوة النسائية أو أنه لا يمكن كبح جماحها.

– حتى اليوم، تُتهم المرأة التي تبحث عن الرجال بأنها مغتلمة (مهووسة بشراهة النكاح) أو أسوأ من ذلك! فالمرأة المتزوجة التي تعاشر الرجال الذين يمارسون البغاء أمرٌ مهين، تماماً كالمرأة التي تعترض طريق رجل لا تعرفه قائلة:"أنت تعجبني، فإن كنت ترغب سأدفع لك المال"!

– الكل يجزم أن النساء هنّ الأقدر على السيطرة على شهوتهن من دون الرجال.

– من يدّعي هذا؟ إنهم الرجال. لكن أحداً لم يثبت ذلك. بالمقابل، كان توجُّه الفتيات لكبح رغباتهن وسترها، أما الصبية فإنهم يتباهون بذلك وتزداد قيمتهم. ثم إن هناك تناقض كبير عند ذِكر "الطبيعة الأنثوية" التي يجب ترويضها وإخضاعها بينما الرجال عقلانيون، ويملكون زمام أنفسهم، ويجزمون في الوقت نفسه أنه لا

يتوجب السيطرة على "طبيعة الرجال" وليس بالإمكان السيطرة عليها. أما الرجال الذين يعانون من الوحدة أو حرمتهم الطبيعة من النعم، فإنهم بحاجة إلى أخوات من نوع خاص يحسنون إليهم ويخففون عنهم مصابهم. ولكن ماذا بشأن النساء اللاتي يشعرن بالوحدة أو بقسوة الطبيعة؟ ويتم تجاهلهن بل والأسوأ من ذلك يتم الاستهزاء بحاجة المرأة التي تقدّم بها العمر، والتي تعاني من إعاقة في جسدها، وتشعر بالوحدة، وبحاجتها إلى ممارسة الجنس. لم يتم حتى الآن وضع الحدود العقلية والاجتماعية المناسبة تجاه الاغتصاب والبغاء (لم يمضِ وقت طويل على الاعتراف بالاغتصاب على أنه جريمة ترتكب بحق المرأة وليس بحق زوجها أو أبيها).

– ألم تحاول النساء في الأزمنة القديمة الاتجار بأجسادهن بمحض إرادتهن؟

– حين نقول إنه من حق النساء بيع أجسادهن فإننا نحجب حق الرجل بالشراء. لكن عندما يدفع الرجل مبلغاً من المال، فإنه يتحرر من الالتزامات أو الشعور بالذنب ويتم استعباد المرأة. عندما نفكر بهذه الطريقة، فإننا ننسى دور القوّاد (الساعي بين الرجل والمرأة للفحشاء) الذي هو دور قديم جداً. وننسى أن كافة الأبواب تغلق في وجه المرأة التي سلكت هذا الطريق بحرية مطلقة في البداية قبل أن تجد نفسها في النهاية مجبرة على المضي فيه. وننسى التهديدات والعنف والجرائم التي تتعرض لها البغايا. لم تكن ممارسة البغاء طيلة العمر لتمثّل حلم أية امرأة ولا يوجد شيء يمنع حدوث مثل هذا الوضع.

فسحة صغيرة من الحرية

– هل لجأ الرجال إلى طرق أخرى داخل المجتمعات القديمة للوصول إلى جسد النساء اللاتي لا يرتبطون معهن بعقد زواج؟

– هناك القليل من المجتمعات التي تقابل مثل هذه الأمور بالحزم إلى درجة لا تقبل إلّا بالزواج الأحادي والإخلاص للزوج طيلة الحياة! هذا صحيح، لا يمكن اعتبار كافة الأنظمة القديمة متناسقة: هناك بعض من المجتمعات تمارس الاغتصاب كوسيلة طبيعية لترويض الزوجة وحملها على الطاعة. لكن ولحسن الحظ، شاهدت تقاليد كثيرة تتيح للشباب والشابات إشباع غرائزهم بالاتفاق والمسالمة.

– مثلاً؟

– عند قبائل السامو – النساء ذات الطباع الشرسة – وأيضاً في مجتمعات عديدة من الغرب الأفريقي، هناك إمكانية ارتباط يسبق العلاقات الزوجية. يتم إعطاء وعد بالزواج لرجل بالغ أو على الأقل مراهق، من دون إتاحة الفرصة للفتاة للإدلاء برأيها، وغالباً ما يحصل هذا حال ولادتها. تمارس هذه الفتاة حياتها الطبيعية في بيت أهلها. ينتظر الأهل مرحلة البلوغ لدى ابنتهم أو أن يقدّم الأب ما يسمى بـــ "قربان البلوغ". قبل هذه المرحلة، لا يحق للفتاة ممارسة أية علاقة جنسية. ويمكن للأب أن ينتظر طويلاً قبل الإقدام على هذا القربان، فله الحرية المطلقة. حال تقديم القربان يُسمح للفتاة بالزواج. لكن بدل أن تعطى الفتاة للزوج الشرعي – الذي عمل في هذه الأثناء لصالح الأب، وقدم له الهدايا– يمكنها أن تختار عشيقاً لممارسة الجنس قبل حفل الزفاف. هذا العشيق لا يمت بأية صلة لعائلة الفتاة أو لعائلة الزوج. وتبقى الفتاة في بيت أهلها ويأتي الفتى لملاقاتها كل ليلة. يستمر الوضع مدة عامين إلى ثلاثة أعوام. عندما تلد هذه المرأة طفلها الأول تذهب لملاقاة زوجها الشرعي.

– ما هو الهدف من هذا التقليد؟

– له سمة دينية. عند شعوب السامو، لا يبقون على الممارسات الجنسية والإخصاب الأولى ضمن حدود النسل الواحد، فالمولود الأول هو نتيجة هذه العلاقة الأولى، يكون قريباً من الأرض، قريباً من الآلهة. يعيش في مجتمع الرجال لكنه يبقى ممهوراً بالخاتم المقدس، كتقدمة من الآلهة.

– هذا يسمح بشيء من الحرية من الناحية العملية.

– تلقى النساء مكافأة غرامية وجنسية قبل أن تقدم على الزواج من رجل يكبرها سناً، لم تختره بمحض إرادتها، وسيكون الأب الشرعي لجميع الأولاد بما فيهم المولود الأول. أما فيما يتعلق بالرجال، فيتم اختيارهم من قبل عدة فتيات ليكونوا العشيق السابق لحفل الزفاف، حتى لو كان هؤلاء مرتبطون بعقد زواج مع أخريات. إذ لا يستطيع هؤلاء الاقتراب من زوجاتهم طيلة فترة الإرضاع، فتأتيهم هذه الفرصة الذهبية!

– لكن هذا ظلم للنساء.

– كلا، لا تخلو المجتمعات البدائية من العديد من النماذج التي لا تقيم هي أيضاً وزناً للعدالة بين الرجال والنساء.

الفصل الثالث

جذور العالم الغربي

أفلاطون وشجاعة المتوّحش الكبير

– **نيكول باشاران**: لا بد وأن هذه العلاقات ذات الطراز القديم التي تقام بين الجنسين قد امتدت لتطال تاريخنا المعاصر. هناك العديد من الفلاسفة الإغريق الذين كان لهم الأثر الأكبر في الفكر الغربي، وبشكل خاص أفلاطون، تلميذ سقراط. تُرى هل شعر أفلاطون بالتكافؤ التفاضلي للجنسين الذي ساد في عصره؟ وهل بدا له غير مألوف؟

– **فرانسواز إيريتييه**: وقع أفلاطون في التناقض نفسه الذي وقع فيه غيره من الفلاسفة الذين جاؤوا من بعده: لقد تناول موضوع المساواة بين الجنسين بأسلوب نظري ومجرد، لكنه كان متأثراً بنهج التفكير السائد في عصره. إننا وبالرغم من كل المزايا التي يقدمها التأمّل، نخلد إلى عالمه وعصره إلى درجة لم نعد نتبيّن نقاط العمه التي تختلط بفكره. كلنا لا محالة نشكو من نقاط العمه. على كل حال، هناك شخصيات قليلة دافعت عن وجهات نظر، تحت مسمى العقل، مغايرة كلياً للخطاب السائد في ذلك الزمان، لذا لم يتم الإصغاء إلى تلك الشخصيات رغم المنطق الذي تضمّنته دفاعاتهم.

– مع ذلك، أكد أفلاطون على وجود المساواة بين الجنسين؟

– نعم، لقد أكد أنه لا يوجد أي سبب منطقي للادعاء بأن النساء هن أدنى

درجة من الرجال. مع ذلك أعتقد أنه بالنسبة لأفلاطون وبالنسبة لغيره من الفلاسفة، يوجد اختلاف بسيط بين فكرة المساواة بين الجنسين بشكلها المجرد وبين الصلة الحقيقية للأشخاص والأجساد ذات الجنس. ما يثير دهشتي عند أفلاطون هو أن المساواة من وجهة نظره لا تطال إلّا نساءً من حالة اجتماعية خاصة. إنهن النساء اللاتي يتمتعن بالمواطنة وينحدرن من آباء يونانيين ومن مواطني اليونان تحديداً.

– وما هو حال الأخريات اللاتي ينتمين إلى الشعب والقرويات والعبيد؟

– بالنسبة لتلك النسوة، لا مجال لتسويتهنّ بالرجال. لم يتمكن أفلاطون من الخلاص من المأزق الذي أوقع نفسه فيه، بين رؤيته للمواطنة (التي يطلق عليها تسمية "حكم الشعب أو الديمقراطية" لكنها تعتمد في الواقع على حكومة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية المؤلفة من النخبة التي تتمتع بامتيازات "المواطنة") وبين تفكيره الذي يقوده إلى المناداة بالمساواة بين الرجال والنساء.

– كيف كانت رؤية أفلاطون في تحقيق هذه المساواة خاصة أنه كان يحصرها بمجموعة من الرجال والنساء من مواطني اليونان؟

– كان يراها في إطار الفصل بين الجنسين. إنه يعتقد أن النساء تتساوى مع الرجال لكنهنّ يبقين مختلفات. يحظر عليهن مقاسمة الرجال في وظائفهم، ويسمح لهن بإشغال مناصب مماثلة لكن في عالم النساء. كان يتخيّل، على سبيل المثال، أن تُقام ولائم تلتقي فيها النساء بهدف الترويح عن النفس والتفكير في أمور فلسفية. لست أدري إذا كان هذا النوع من الوظائف الخاصة بالذكور والتي تستطيع النساء شغلها موجودة في اليونان، غير أنها كانت في مخيلته.

– مع ذلك تشيرين إلى أن أفلاطون بقي أسير طريقة التفكير الخاصة بعصره، كيف ذلك؟

– إننا نصاب بالدهشة حين نطالع نصوصه، ونجد فيها طريقة تفكيره الداعمة للفارق بين الذكر والأنثى، ويطغى عليها تفوّق الذكر في النهاية. فعلى سبيل المثال، يتخيل أفلاطون إمكانية تناسخ أرواح الأموات في أشكال حيوانية، كما يمكن لبعض الحيوانات استعادة شكلها الإنساني. يمكن للأسد الذكر الذي يتمتع بالشجاعة الخارقة أن يتناسخ في جسد رجل. أما الرجل الذي لم يعرف الإقدام والشجاعة طيلة حياته فلا يستحق لقب رجل ويتجسّد بعد موته في جسد امرأة.

– هذا ليس جيداً...

– نعم وبشكل ملحوظ! فهو يُعَاقَب على جبنه. يعتقد أفلاطون أن الحيوانات هي أدنى درجة من البشر، لكن صفات المتوحش – المهابة والشجاعة والشراسة– هي صفات "خاصة بالرجولة". فهي تتيح للحيوان أن يتحول إلى إنسان. علماً أن هذا يشمل بعض الحيوانات من دون أخرى من الحيوانات الذكور من كافة الأنواع.

– لا أظن أن هذا يشمل الأرانب!

– إن أفضل أنواع الأرانب يجب أن يمر بالمَطْهَر الذي هو جسد المرأة قبل أن يأمل أن يصبح رجلاً! يرى أفلاطون تشابهاً مباشراً بين ذكورة المتوحش وذكورة الرجل، تشابه يفوق ذلك الموجود بين الرجل والمرأة. هذا ما يجعلني أعتقد أن أفلاطون بقي حبيس ثقافته الخاصة. كذلك الأمر، فهو يرى في النطفة الموجِّه لكل الصفات الخاصة بالبشر: الحياة، والشكل، والروحانية... في النتيجة اعترف أفلاطون من خلال تفكيره أن للمرأة الحق في الحصول على المساواة، لكنه لم يكن ليتجاوزه إلى النساء اللاتي تمثّل أفضل ما في المجتمع، وفق مثالية منقولة عن الرجال: أي البنات والزوجات والأمهات من مواطني اليونان.

عملية "الطهي" من وجهة نظر أرسطو

– معنى ذلك أن أرسطو الذي هو تلميذ أفلاطون وأحد مؤسسي الفكر الغربي الأساسيين اعتمد فكرة النطفة الموجِّهة، الحاملة لكافة الصفات البشرية.

– نعم، نجد مقاطع جوهرية حول هذه المسألة في كتابه "عن توالد الحيوانات". وجد الفيلسوف أرسطو نفسه مضطراً لشرح الوضع كما يراه: وضعٌ مهين للمرأة في خدمة أسرتها وفي إنجابها للأطفال. لقد شرح ذلك من خلال ترتيبه لمجموعة من الأفكار الفلسفية المعقّدة التي لا تتجاوز كونها تنظيم لمعتقدات عصره، ولكنه طرحها بلغة علمية، بدأها بالعبر التي جاء بها المؤلفون من قبله والتي بدت له مثيرة للسخرية. كان أحدهم يعتقد أن نوع الجنين يتحدد من خلال وضعه في أحشاء أمه، سواء كان إلى جهة اليمين أو اليسار سيكون المولود أنثى أو ذكراً. أكّد كاتب آخر أن نوع الجنين يتحدد من خلال مصدر النطفة: فإذا خرجت من

الخصية اليمنى يكون المولود ذكراً، وإذا خرجت النطفة من الخصية اليسرى، يأتي المولود أنثى، إذ إن درجة حرارة الخصية اليمنى أكثر ارتفاعاً من درجة حرارة الخصية اليسرى.

– كيف تحرر أرسطو من هذه الفكرة؟ فثقافته العلمية ليست متقدمة في هذا المجال.

– هذا صحيح. مع أن فكره الفلسفي رفيع جداً إلّا أن أرسطو مشى في الواقع على خطى المجتمعات البدائية. لقد اعتمد على ثوابت جليّة لم تتغيّر منذ الأزمنة السحيقة. فالدم بالنسبة له أمر جوهري، لأنه وسيلة نقل للحرارة والحياة. ها هو ينشئ كالسلف علاقة بين الحياة والحرارة والحركة والدم؛ كما أنشأ سلسلة عكسية بين جريان الدم، وانعدام الحركة والبرودة والموت. بيّن أرسطو أن الدم، الذي هو عنصر أساسي في الجسم وموجود منذ الولادة، يتجدد طيلة الحياة من خلال الغذاء وفق عملية يقال لها "الطهي" وتتمثّل بعملية الهضم. تساعد هذه العملية على تشكّل الدم، وهذا موجود لدى الذكور والإناث على حدٍ سواء. لكن الرجال يتميزون بحرارة إضافية في جسدهم تمنحهم القوة، فهم لا يفقدون كمية من دمائهم شهرياً. هذه القوة النابعة بفعل الحرارة الفائضة التي تتملك الرجال – والتي تزودهم بالدفء والجفاف بينما تجعل من المرأة إنسانة باردة ورطبة– تتيح لهم فرصة أخرى للطهي، يسميها آرسطو السلق، فهم يقومون بعملية سلق للدم. هذه العملية الداخلية تؤدي إلى تحوّل نقي للدم ليصبح نطفة. في حين أن المرأة لا يمكنها أن تصل إلى مرحلة الطهي هذه، وكل ما تستطيع فعله ينحصر في تحويل الدم إلى حليب.

– لا يبدو الأمر سيئاً...

– نعم، لكن أرسطو لا يتوقف عن تسجيل الفارق بين السوائل، بل يرتبها ليبرر التسلسل الاجتماعي. وتتفوّق سلسلة "الغذاء، الدم، النطفة" على سلسلة "الغذاء، الدم، الحليب". يعتقد أرسطو أن النطفة هي جسم مكتمل، وتصل درجة نقائه إلى جعله جسماً شبه طيارٍ. فهو لا يفسد، وكما الماء الذي يتبخر بشكل كامل، فإنه لا يترك أية مخلفات. ففي المنيّ نجد نفث الحياة أي أصل الحياة. والنَفَث هو النَفَس والقوة ويسمح بنقل الحياة إلى جسد المرأة.

– إذاً فالمرأة كما هو حالها دوماً، ليست سوى مكان تجمّع منوي؟

– إنها مادة منتجة، فوضوية تحتاج للضبط والتنظيم بواسطة النفث لكي تنتج

طفلاً يشبه الجنس البشري. من خلال عمليات الجماع المتكررة أثناء الحمل، يقوم الرجل بتغذية الجنين، يصوغه ويكسبه شكلاً بشرياً. قد تنجب المرأة أي مخلوق إذا لم يقم الرجل بدوره.

– مثل ماذا؟

– يقدم أرسطو عدة "إثباتات" على مدى التشوه الذي يصيب الأجنّة من جراء المادة الأنثوية التي تتكاثر بمفردها. أول تشوه هو ولادة الأنثى. فإذا كانت نطفة الأب قوية بدرجة كافية، ووُجدت هذه القوة في القدرات الثلاث التي تميّز الذكر، فالنسل لن يكون سوى ذكور.

– وما هي هذه القدرات الثلاث؟

– أما الأولى فهي القدرة العامة (قوة الرجل بشكل عام)، والثانية هي القدرة الفردية (قدرة ذلك الرجل في تلك اللحظة من حياته)، والثالثة هي القدرة التي تتعلق بظروف الجماع. ففي أفضل الحالات، إذا سيطرت تلك القدرات الذكورية الثلاث، تضع المرأة مولوداً ذكراً يشبه أباه. في حال غياب القدرة الجنسية، يأتي المولود أنثى. أما إذا كانت القدرة الفردية للرجل على درجة من الأهمية، تكون ملامح الفتاة مشابهة لملامح أبيها. وعندما تغيب القدرات الثلاث بمجموعها يصبح الأمر أشد سوءاً، ففي حال غياب القدرة الثالثة أي عندما يكون فيها الرجل متقدماً في العمر أو في مقتبل العمر ويمارس الجماع في ليلة باردة، في منطقة شديدة الرياح بعد تناول اللبن ومشتقاته...

– بالتأكيد، لو كان الطقس حاراً وتناول الرجل من لحم الفريسة...

– قد يأتي المولود ذكراً. لكن إذا غابت القدرات الثلاث، فإن المرأة تلد أنثى تشبه جدتها لأمها، عندئذ يصبح الموقف أكثر من مريع! مع ذلك ينوه أرسطو بأن وجود البنات لا بد منه، لذا لا بأس من تغلب الأنثى من حين لآخر.

– لكن ولادة الأنثى تبقى حسب رأي أرسطو "الدليل" الأول على تشوه المادة التي تفرزها المرأة؟

– نعم، لو تركنا زمام الأمور للمرأة فإنها لن تلد سوى الإناث. أما فيما يتعلّق بالدليل الثاني على التشوه، فإنها الولادات الخاصة بالتوائم. نحن من الفصيلة الأحادية، والولادات المتعددة هي الحالة الاستثنائية. وبالعكس، نجد الفصائل الولودة

عند الحيوانات: يذكر أرسطو الخنزير الذي يضع العشرات من الخنازير الصغيرة (لم يذكر البقرة التي تلد عجلاً واحداً، ربما لأنه لم يكن يرى الكثير منها). خرج بنتيجة أن المرأة التي تحمل أكثر من جنين تشبه الحيوان. وأخيراً، الدليل الثالث يتمثّل بالأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة: فهم إما ينقصهم عضو أو لديهم عضو زائد: كأن يكون لهم أربعة أصابع أو ستة، هذا إذا لم نثر موضوع الأمراض الولادية التي تشبه الأمراض السائدة في هذه الأيام. وأخيراً دليل إضافي على التشوه: ولادة أطفال لا يمتون إلى البشر بأية صلة، وهم "قبيحو الخلقة" أو "مسوخ". لقد تمّ ترتيب مجموعات لهؤلاء الأولاد المشوهي الخلقة، وتم الاحتفاظ بجثثهم داخل أوعية زجاجية بعد تصنيفها، فمنهم من يشبه الخروف، ومنهم من يشبه الكلب...لذلك اعتقد أرسطو أنه في حال عدم السيطرة على النفث فإن المرأة ستلد أطفالاً مشوهين، هم أقرب إلى الحيونات منهم إلى البشر. كما يؤدي الإفراط في المادة التي تفرزها المرأة إلى المسخ.

– شيء لطيف... لكننا إذا تناولنا من جديد طرق التفكير القديمة وطورناها فإن أرسطو سوف يطغى بتأثيره على عالمنا الغربي.

– لقد صاغ نموذجاً كاملاً ومنطقياً حول عملية التوالد، يكون فيه جسد المرأة بالنسبة للرجل كالوجه والظهر للقفّاز، ينحصر دوره في عملية التلقي من جسد الذكر. ترتبط جميع القيم الإيجابية بالقدرة المخصّبة للنطفة. لقد اعتمد أطباء عديدون هذا النموذج حتى القرن التاسع عشر مثل غاليان "Galien"، بل إننا نجد آثار هذا النموذج حتى يومنا هذا. ألا يتردد إلى أسماعنا القول السائد هذا الرجل له ولد "من دمه"، وهل دم هذا الطفل أزرق أم لا؟ وماذا يقال عن البزرة التي توضع في أحشاء الأم؟ لقد اعتقد أرسطو في الحقيقة بوجود طبيعة أبدية للرجل والمرأة من خلال الفوارق البيولوجية الثابتة. في الواقع، يمكننا القول إن أرسطو لم يتعدَ عملية وصف للنظام الإدراكي والاجتماعي في عصره.

من الأمهات إلى البنات...

– ويستمر هذا النظام الاجتماعي... إذ تبادر الأمهات من جيل لآخر إلى تعليم بناتهنّ الدور الذي تقوم به المرأة، لتقوم هذه الفتيات بدورهن بنقله إلى بناتهنّ.

– يقوم النظام بأكمله على احتفاظ النساء في أعماقهن بترتيبهن الدنيوي أي بنقصهن. في كل المجتمعات البدائية، كانت المرأة تُبجَّل كأم، وبشكل خاص كأم لأولاد ذكور. فإذا كان نسلها من الإناث فقط كان ينظر إليها على أنها لم تنجب. كانت أم الصبي تحظى بمركز أفضل من المركز الذي يُمنح لأم البنت. وقد استمرت هذه النظرة إلى أيامنا هذه، حتى المرأة الواثقة من نفسها و"المتحررة" تتمنّى أن تكون أماً للذكور دون الإناث. هذا الشعور بالنقص الذي تمنحه المرأة لنفسها من جراء ما يُنتظر منها قديم قدم الزمان، تتناقله الأجيال عبر العصور.

– كيف يتم ذلك؟

– كأن "تُرَبّى" البنات منذ حداثة سنهنّ على الالتزام بالرزانة والاعتدال، والبعد عن القتال والمحافظة على السلم. تُنقل إليهن صورة مسكَّنة عن الأنوثة، يزول فيها حب المشاجرة والميل إلى العنف الذي هو أمر طبيعي لدى الأطفال، فهذا العنف يقتصر على الصبية، أما الفتاة فعليها الرضوخ والهدوء والاستسلام بينما يجب على الصبي أن يفرض شخصيته ويقاتل. علماً أن البنات يرغبن في القتال إذا سنحت لهن الفرصة.

– هل بمقدور المرأة أن تمارس العنف؟

– بالتأكيد! حتى لو مارس كل هرمون دوره، وخاصة هرمون التستوسترون الذي تفرزه الخصية، لن يتفرّد أي من الجنسين باللجوء إلى العنف. غير أن العنف لا يدخل في تركيبة المرأة، أو أنه الوجه القاتم للأنوثة، وتعبير عن الطبيعة الحيوانية للأنثى عندما تفلت من سيطرة الذكر. فالمرأة لطيفة ورحيمة ومستسلمة بالفطرة. وفي الوقت نفسه، يُفترض أنها تجسّد الجنسية الشرسة، الجامحة، التي تلتهم الرجال وتتفلت من التعقّل.

– هل يفترض أن يكون العنف لدى الرجال ممنهجاً؟

– العنف الشرعي لدى الرجال هو من الصفات الذكورية! إننا نقع دوماً في التناقض نفسه: يقال لنا إن الرجال عقلانيون، فمن المستحسن إذاً أن يقوموا بترويض النساء وقهرهنّ، غير أن الغريزة – العنيفة وبشكل خاص تلك الجنسية– لا يمكن السيطرة عليها ويجب أن تلبى وعلى الفور.

– لقد أجزتِ لنا أن نتعمّق في عقول أجدادنا لنكتشف "كيف بدأ كل شيء"، وتصفين لنا هذا المنهج العالمي، والمتوارث بين الأجيال... هل من سبيل إلى الخروج من كل ذلك؟

– لنعبر مباشرة من العصر الحجري القديم لنصل إلى عالم اليوم. إني أعتقد أنه بالإمكان أن تنشأ علاقات من نوع جديد بين الرجل والمرأة، وذلك لسببين. أولهما بفضل الحق في الامتناع عن الإنجاب الذي يشكل ركيزة أساسية. إني لا أثير هنا الموضوع من الناحية التقنية والطبية، بل من ناحية إدراج هذا الحق في القانون. هذا الحق الذي يبيح للمرأة حرية التصرف بجسدها. فمنع الحمل يقهر سلطة الرجل على المرأة – لذلك يتبين لنا أن منع الحمل غير مباح في كثير من المجتمعات.

– بذلك لم يعد في مقدور الآباء "تقديم" بناتهم للزواج، كما لم يعد في مقدور الرجال تبادل النساء فيما بينهم للحصول على أولاد ذكور، بما أن موضوع الإنجاب بات في يد النساء تقررن الكم والكيف...

– نعم ولكن لكي يصل مفهوم زمام الأمور إلى العالم أجمع، يلزمنا وقت طويل. كما نحتاج إلى الفطنة لكي لا يُسلب هذا الحق مرة أخرى حيث هو موجود الآن.

– ما هو السبب الآخر الجدير بإيجاد علاقات من نوع جديد بين الرجل والمرأة؟

– إنها المعرفة العلمية لآلية الإنجاب والوراثة. لقد استغرق إنشاء النموذج القديم المهيمن على مجتمعاتنا آلاف السنين. بني هذا النموذج على ملاحظات اختبارية قام بها السلف. تشير الملاحظات العلمية الحديثة إلى أن الرجل لا يضع البذرة في أحشاء المرأة، وأن المرأة ليست حوضاً ينبت فيه الجنين حيث وضَع الرجل نطفته. الطفل هو نتيجة التقاء الأمشاج: بويضة ونطفة. يُحضِر كل من الرجل والمرأة إرث وراثي يتم توزيعه بشكل عشوائي. يعود تاريخ هذه الملاحظات إلى أواخر القرن الثامن عشر، بينما تعمقت المعرفة بالنسبة لأنظمة الصبغيات (الكروموزومات) وعلم الوراثة في غضون القرن العشرين. يلزمنا وقت طويل لكي يتحول نظام معرفي مجرد إلى نظام ملموس على أرض الواقع. لكنني أعتقد على الصعيد الشخصي أن الحق في الامتناع عن الإنجاب إلى جانب المعرفة العلمية يمكنهما تغيير رؤيتنا للعالم بشرط أن يبدي كل من الرجل والمرأة استعدادهما للعمل في هذا المضمار من خلال الأفعال الملموسة والسياسية.

القسم الثاني

ألفا عام في حياة امرأة

الفصل الرابع

الحميمية

إنها أنثى ... للأسف!

– **نيكول باشاران:** لقد طرحت فرانسواز إيريتييه الثوابت – التي قد تكون بديهيات طبيعية أو أحكاماً متأصلة – المحيطة بمصير المرأة منذ الأزل أي منذ خلق البشرية. سنخوض معكِ في تاريخنا الغربي ونرصد جميع مراحل حياة المرأة منذ ولادتها حتى وفاتها، كيف عاشت كل مرحلة وكيف تطورت وفقاً لمختلف العصور. نبدأ إذاً من الأنثى الطفلة... إني أحسب أن وضعها تطور على مر السنين.

– **ميشيل بيرو:** في العصور اليونانية والرومانية القديمة، لم يكن الوليد يعتبر إنساناً. في غياب تحديد النسل كثر عدد الأطفال الرضع في العائلات وكان الكثير منهم يموتون في سن مبكرة. أما تعلّق الأم بوليدها فإنه لا يشبه ذلك الذي نشهده اليوم. مما لا شك فيه أن هناك أمهات بكين أطفالهنّ ولكنهن لم يَئُحْنَ على الأطفال الحديثي الولادة أو الأطفال الرضع، إذ إن أحداً لم يصنّف هؤلاء الأطفال في زمرة البشر، لكنهم يتمتعون بأعضاء تناسلية، بل أقول إنهم مخلوقات بشرية إما ذكرية أو أنثوية. وما كان يتمنى الآباء هو الطفل الذكر. فالبنات هنّ أقل شأناً. وفي الأزمنة الغابرة كما في الأزمنة القديمة التي ذكرتها فرانسواز إيريتييه، كان هناك تمييزٌ للأطفال لدى ولادتهم. وكانت فرص الموت التي تصيب الإناث أكبر من تلك

التي تصيب الذكور، وذلك لعدم وجود العناية الكافية، بل وكان قتل المواليد الإناث منتشر في تلك الحقبة من الزمان.

– هل استمر ذلك طويلاً؟

– لا زال قتل المواليد الإناث يمارَس حتى يومنا هذا في بعض البلدان. هناك نقص حاد في عدد الفتيات الصغيرات في كل من الهند والصين إلى درجة أثير فيها موضوع الإبادة البشرية. أما في الغرب، فقد جاء الدين المسيحي ليفتح البوابة الأولى التي تجزم أنه "أمام الله لا يوجد رجل أو امرأة" (القديس بولس). لكن هذه الفكرة التي لا تهتم بنوع الجنس البشري، أمام الخالق على الأقل، لم تغير من وضع المرأة في المجتمع. مع ذلك حصلت الفتيات اللاتي ينحدرن من الطبقة الأرستقراطية في العصور الوسطى على شيء يسير من القيمة، إذ إنها تصلح لتكون عملة مقايضة. تبادُل النساء، تبادُل التحالف، تبادُل مناطق النفوذ: هذا كان نهج المجتمع خلال القرون الوسطى. فالسيد أو المولى لم يكن يعبّر عن سخطه في حال كان نسله من البنات، بل كان يتمنى ألا يرزق بالكثير من الذكور، فتأمين مستقبلهم يخلق له المتاعب.

– ومن أين تأتي المتاعب؟

– وفقاً لحق البكورية، كان الإرث يذهب للابن الأكبر، لكن هذا الحق كان يَحرِم في أغلب الأحيان بقية الإخوة الذكور من الميراث، لذا لم يرغب أحد في تقسيم الأملاك. أما البنت بالمقابل، فإنها ستتزوج وتجلب للعائلة تحالفاً مميزاً. بذلك يتم تصور خطط متعلقة بالزواج بالنسبة للبنات حال ولادتهن. وكلما كان مركزنا مرموقاً كلما مارسنا لعبة السياسة الإقطاعية وتمكنّا من وضع الخطة حيز التنفيذ. ما إن تبلغ الطفلة الثانية أو الثالثة من العمر حتى يتم تزويجها افتراضياً، لا جسدياً، كانت تعتبر مشروعاً للزواج (في المجتمعات اليونانية، لم يكن المجتمع ينتظر أن تبلغ الفتاة سن البلوغ لإتمام مراسم الزواج). هكذا كان يتم "تقييم" الفتاة التي لم تكن تتوقع مصيراً أسعد منه: لا تملك حق الخيار كما لا يُسمح لها بالتعبير عن رأيها. وفيما بعد، أي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حصلت الطفلة على تقدير أكبر، فما إن تبلغ العاشرة من عمرها حتى تذهب إلى العمل ضمن منشأة العائلة أو كخادمة. وعندما اتجهت المجتمعات إلى الصناعة عملت الفتاة في سن

مبكرة على غرار الصبية، في الورشات التي تعود للعائلة. فإذا كان رب العائلة يختال فخراً من مولد الذكور فإنه سينظر بعين مختلفة من الآن فصاعداً لمولد الإناث.

المواليد الإناث، والمواليد الذكور

– هل كان لهذه النظرة المختلفة التي حظي بها حديثو الولادة من الإناث والذكور أثر في تغيير المعاملة تجاههم خلال الأشهر الأولى من حياتهم؟

– لقد ساد شيء من عدم التمييز في تربية الأطفال الصغار، ذكوراً وإناثاً، خلال السنوات الأولى من عمرهم ولمدة طويلة. ففي الطبقات الشعبية، كانوا يلازمون الأم؛ وعند العائلات الأكثر ثراءً يبقون إلى جانب الخادمات والمربيات. كان الأطفال الصغار يعيشون ضمن عالم النساء، وسادت العادة على إبقاء شعر الذكور مسترسلاً وعلى إلباسهم الثياب الفضفاضة. هناك لوحة للرسام شاردان Chardin، بعنوان "الغسالة" نرى فيها امرأتين، تظهر إحداهما في خلفية اللوحة وهي تقوم بنشر الغسيل، بينما انشغلت الأخرى بالغسيل في دلو خشبي، وإلى جانبها كان يقف طفل يلعب بفقاعات الصابون وقد وضع لعبته المصنوعة من بقايا القماش. كان هذا الطفل يرتدي سروالاً منفوخاً وكان شعره مسترسلاً. هل كان صبياً، هل كان فتاة؟ هل جسّد الرسام حقيقة كان يشاهدها؟ ما يهمنا في كل هذا هو عدم التمييز بين الجنسين.

– يمكننا القول إن هذا شكل من أشكال المساواة في التعامل مع الأطفال. كم من الوقت استمر هذا الحال؟

– كان علينا الانتظار حتى القرن التاسع عشر لكي تبادر المجتمعات إلى التمييز بين الأطفال ذكوراً وإناثاً. بدأ هذا بشكل خاص مع تطور "قاعات الملاجئ"، وهي صورة مصغرة عن دور الحضانة المنتشرة في عصرنا. منذ عام 1820 بدأت هذه القاعات تحظى بعناية من قبل سيدات كان همهنّ الأكبر الإحسان إلى البشر والاهتمام بصحة الطبقات الشعبية. هناك النساء اللاتي عملن في مجال الأعمال الحرفية والتجارة، وهناك العاملات اللاتي زاولن عملهن في المصانع حتى بعد ولادة طفلهن الأول (كان الأمر يتفاقم في حال رُزقت الأم بأكثر من طفل). فكانت هذه

القاعات للعناية بالأطفال بدءاً من سن الرابعة، وأحياناً أقل، في محاولة لمساعدة العائلات الفقيرة.

– ما الذي كان يجري ضمن هذه القاعات؟

– لم تكن هذه القاعات تقدم الشيء الكثير، حيث اقتصر الأمر على بعض الألعاب وطعام الغذاء عند الساعة الثانية عشر ظهراً. أما العناية الشخصية فكانت شبه معدومة. وكان أكثر ما يثير الانتباه هو تنظيم هذه القاعات التي كانت عبارة عن مدرّجات يبقى فيها الأطفال جالسين من دون عمل أي شيء. وشيئاً فشيئاً تدخّل بعض الراشدين لإيجاد حل لهذا الوضع إذ لا يمكن أن يبقى أطفال طيلة النهار من دون حراك، يجب إشغالهم بعمل ما، ويجب تنظيم بعض الألعاب التي تميّز الصبية عن الفتيات. تمّ إعطاء العرائس للبنات، والأوتاد والعسكر للصبية. وفي وقت لاحق، بادروا إلى تقسيم الأطفال إلى مجموعتين: ووضعوا الأولاد في زاوية والبنات في أخرى. ثم بدأ التفكير الجدّي في دور كل من الجنسين خلال القرن التاسع عشر، في محاولة من المربين العلمانيين والدينيين لإعداد الفتيات لدورهن كأمهات المستقبل.

ظهور "الفتاة الصغيرة"

– لم تنعم الفتيات الصغيرات بممارسة طفولتهن بكل معنى الكلمة لفترة طويلة. هل لنا أن نعرف في أي وقت من الأوقات تمّ الاعتراف بمفهوم "الفتاة الصغيرة" كما ندركه في زماننا المعاصر – الفتاة التي تجاوزت مرحلة الطفولة ولم تبلغ سن المراهقة بعد – بألعابها وعالمها وكنوزها الخاصة بها؟

– أخذ مفهوم الفتاة الصغيرة يظهر تدريجياً في وقت متأخر من القرن التاسع عشر، حيث بدأت النظرة إلى الأطفال تختلف. تنبه البالغون إلى ماضيهم، إلى الوقت الذي كانوا فيه أطفالاً. يجب أن ننوه هنا إلى أن الأدب كان له الأثر البالغ في تفتح الفتاة الصغيرة. تخيل الأديب فيكتور هوغو Victor Hugo شخصية "كوزيت"، وقاد لويس كارول Lewis Carroll آليس إلى بلاد العجائب. وقامت الكاتبة جورج ساند George Sand بوصف فاديت الصغيرة "La Petite Fadette"، وتحدثت في

رواية "قصة حياتي" عن ذكرياتها الأولى مع أبويها عندما كان عمرها أربع سنوات، وعن عرائسها وألعابها ورغباتها. وكتبت الكونتيسة دو سيغور Comtesse de Ségur كتاباً أعدته للقارئات اليافعات تحت عنوان "الفتيات الصغيرات الأنموذج" Les Petites Filles modèles. في الوقت نفسه، بدأ مفهوم الفرد يفرض نفسه بشدة متنامية، وأدرك المجتمع قبل مجيء فرويد أن للطفولة الأثر الأهم في بناء حياة البشر. لكن هذا لا يطرح مصير الفتيات كمشكلة: فهنّ على موعد مع مستقبلهنّ كزوجات وأمهات.

– إذاً التعليم لا يعنيهنّ. كانت الفتاة ولعقود طويلة، تُعد لممارسة دورها في الأسرة، غير أنها كانت تُحرم من الحصول على التعليم.

– نعم. يهتم المجتمع بتحصيل الأولاد العلمي أما الفتاة فإنه يهتم بتربيتها. يشكل الأولاد النخبة وعليهم تحصيل العلوم الفكرية والدينية (من أجل إعداد رجال الدين القادمين)، والعلوم العسكرية (لإعداد جنود المستقبل)، والعلوم المهنية (لإعداد التجار والحرفيين ومخترعي المستقبل). أما مصير الفتاة، فإنه مرسوم مسبقاً، فهي مدبرة منزل، أو زوجة، أو أمّ. انحصرت تهيئة الفتيات في القرون الوسطى داخل المنازل، جيلاً بعد جيل. ثم ما لبث هذا الوضع أن أثار حفيظة رجال الدين والأطباء، الذين خشوا أن يهيمن تأثير النساء السيئ على المجتمع بجهلهن وخرافاتهن وأسرارهن التي تنم عن الجهل والذي توشك الأمهات على نقله إلى فتياتهنّ. كان الناس في القرون الوسطى يهابون المرأة الساحرة والمشعوذة، فهي تعكس صورة المرأة الخطيرة ذات النفوذ، إذ إنها على دراية بـ"علوم الجسد" الغامضة. لذا انتهى المطاف برجال الدين إلى ضرورة عناية الكنيسة بالأولاد منذ الصغر. من هنا أُنشئت "المدارس الصغيرة" التي يعتني فيها القسيسون بالأولاد بينما تهتم الراهبات بالفتيات. عندما تبلغ الثامنة أو التاسعة من عمرها، تنهل الفتاة تعاليم الدين المسيحي والتطريز. ثم وبدءاً من القرن السابع عشر تبدأ بتعلّم القراءة والكتابة. وجاء عصر النهضة ليقلب المفاهيم السائدة في المجتمع رأساً على عقب ويظهر قيمة الكتابة، كما شهد هذا العصر اختلافاً كبيراً بين الكاثوليك والبروتستانت، إذ اهتم البروتستانت بتعليم قواعد القراءة للبنات والأولاد على حد سواء.

– هل يريد البروتستانت العودة إلى الجذور، أي إلى موضوع المساواة بين الرجل والمرأة أمام الله الذي سبق وأثرتيه؟

– بكل تأكيد، وحسب تعاليم البروتستانت، يتحتم على كل فرد، رجلاً كان أم امرأة، أن يقرأ الكتاب المقدس. يتم بذلك الربط بين القديس بولس والكنيسة الأولى[1]، فقراءة الأسفار المقدسة ليست من اختصاص رجال الدين حتى لو كان القس البروتستانتي مطالب به في قداس الأحد. فهو رجل متزوج ووالد لأطفال مثل الآخرين. في غياب الأب تكون الأم هي المسؤولة عن فتح الكتاب المقدس وقراءته على العائلة. إن فكرة الاستحواذ على قراءة الكتاب المقدّس على المستوى الشخصي والعائلي تشكل عاملاً هاماً لتعليم القراءة والكتابة للفتيات في البلاد البروتستانتية. ويصبح الفارق مع البلاد الكاثوليكية مثيراً للدوار. وتشير الإحصاءات أن كلاً من ألمانيا وبروسيا أوجدتا شبه مساواة في تعليم القراءة والكتابة بين الأولاد ذكوراً وإناثاً منذ بداية القرن الثامن عشر. وهذا هو شأن إنكلترا والدانمارك والبلاد الاسكاندينافية، في حين أن الفارق بين الذكور والإناث في البلاد اللاتينية والكاثوليكية كإسبانيا والبرتغال وإيطاليا بصورة خاصة وفرنسا التي تتوسط هذه البلاد، كان شاسعاً.

في منأى عن التعليم

– مع ذلك هناك نساء أديبات ومتعلمات في فرنسا الكاثوليكية –إيلوييز الشهيرة Héloïse، والنساء اللاتي تخيلهنّ رابليه Rabelais– اللاتي كان لهنّ باع طويل في العلم منذ نعومة أظفارهنّ، هل نعتبرهن حالات استثنائية أم إنهن صورة مخالفة للواقع؟

– هنا، تظهر أهمية التباين الاجتماعي. تميزت الفتيات من أصل نبيل بالعلم. وتزايد عددهن بشكل خاص في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. ففي اللوحات الفنية التي تمثل "بشارة المَلَك جبريل للسيدة مريم بحملها بالسيد المسيح"، نلاحظ أن صورة السيدة مريم الممسكة بالكتاب حلت مكان تلك التي كانت تغزل. بدت غرفة السيدة مريم التي يُعتقد للوهلة الأولى أنها من خيال القرون

(1) المذهب الكنسي الذي سبق البابوية - المترجم.

الوسطى، مثالاً نموذجياً لغرفة فتاة شابة، تحوي سريراً صغيراً، طاهراً ومعتدلاً و... كتاباً مفتوحاً. إذاً، فالسيدة العذراء، الشابة الأنموذج، تقرأ. لم يكن الزواج في تلك الحقبة المصير الوحيد للمرأة، فهي إن لم تجد الزوج المناسب في الوسط الأرستقراطي تستطيع أن تلجأ إلى الدير. حتى إن النساء المتزوجات يقضين سنوات طويلة في هذه الأديرة التي باتت مراكز تجمّع للنساء حيث تقام فيها أيضاً جلسات التعليم. هنا، تنهمك الفتيات في الصلاة، والمطالعة، ونسخ المخطوطات، تماماً كما يفعل الرهبان في أديرتهم الخاصّة. قامت هيلدغارد دو بينغن Hildegarde de Bingen، رئيسة دير الراهبات الشهيرة في القرون الوسطى، بتأليف كتابٍ من مخيلتها بعنوان "بستان الملذات" "Le Jardin des Délices".

– ولكن بعيداً عن أسوار الدير، هل كان يسمح للفتيات المميزات بالتعلّم داخل المجتمع العلماني؟

– لم يكن ذلك متاحاً في العصور الوسطى، أما في عصر النهضة فقد تغير الوضع، وبدأنا نشهد نساءً يطالبن بالكتابة رغم بعدهن كل البعد عن الورع، وأخذن يكتبن في كل المواضيع. ألفت لويز لابيه Louise Labé قصائد مثيرة للشهوة الجنسية! ويعتبر كتاب "مدينة السيدات" الذي ألفته كريستين دو بيزان Christine de Pisan المحرِّض الأول للمطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل، وتظهر فيه بعض النساء في أماكن الثقافة والمتعة، وقد انعزلن في غرفهنّ من أجل الكتابة والتأليف. أما الفيلسوفة والراهبة غابرييل سوشون Gabrielle Suchon التي تركت الكهنوتية – لكنها استمرت في وضع الوشاح على رأسها طيلة حياتها، اعترافاً منها بالجميل – فقد كتبت مقاطع في الأخلاق والفلسفة السياسية تنم عن ذوقٍ رفيع.

– لكن أحداً لم يكترث بتلك النساء الأديبات، لقد وصفهنّ الأديب موليير الذي عاش في القرن السابع عشر بالـ "المتكلّفات المثيرات للسخرية"، وقد تعرضن للهجاء القاسي بسبب ادعاءاتهن الفكرية...

– لقد هزئ منهن موليير من خلال شخصيات مؤلفاته، كما هزأت منهن الأوساط البورجوازية، وساد الاعتقاد أن "كل ذلك لا يدخل في اختصاص النساء". وتشهد المجتمعات الراقية مطالبة ملتهبة من قبل النساء لاستخدام اللغة. تمّ إعلام الفتيات الأرستقراطيات بالأمور التي كانت تجري في زمن الإقطاع، فكان المعلّم يأتي

إلى المنزل ليعلمهن القراءة والكتابة مثلما يدربهنّ على الفنون التي تلقى القبول لديهنّ كالموسيقى والرقص والرسم. إلى جانب هذا، مارست الفتيات فنون المبارزة وركوب الخيل. لم يُفرض عليهن ارتداء التنورة الطويلة الفضفاضة لركوب الخيل إلّا في القرن التاسع عشر، لكن في القرن السابع عشر، أي في زمن الفتنة، كانت الآنسة المحترمة تمتطي الخيل كالرجال.

– بينما بقيت الفتيات في الأوساط البورجوازية الصاعدة في معزلٍ عن مجال التعليم.

– في تلك الحقبة، كان يتم توجيه الأولاد لتطوير التجارة والبنات لإدارة المنزل، من هنا اكتسبت الحياة العائلية قيمة كبيرة، وبرز دور الأم ومدبرة المنزل الذي لم يعد ثانوياً، مما يبرر اهتمام البنات طيلة حياتهن بشؤون المنزل بشكل تام. استحوذ دور الأطباء على أهمية كبيرة أخذت تتزايد يوماً بعد يوم بسبب خبرتهم بحقيقة الجسد فكانوا يدعمون تقسيم الأدوار وفق الجنس تحت شعار الفائدة الاجتماعية. لدى ملاحظتهم أن جسد المرأة مهيأ للأمومة، استخلص هؤلاء الأطباء أن هناك اختلافاً في الجنس. أثاروا من جديد مواضيع قديمة جداً، من خلال تعبير علمي حول قوة الأولاد وضعف الفتيات. وهكذا انتقل بوفون Buffon ومن دون عناء في كتابه "التاريخ الطبيعي" من الاختلاف بين الذكر والأنثى لدى الحيوانات إلى الاختلاف بين الرجل والمرأة عند البشر، مشيداً بذلك بفحولة الأسد.

ابتكار مرحلة المراهقة

– لنتابع ابنتنا عبر سني عمرها. ها هي الآن شابة يافعة. كيف كان يُنظر لتلك المرحلة المضطربة والمعقدة من عمرها التي تبدأ بسن البلوغ، وتسبق سن الرشد الحقيقية، أي تلك التي نطلق عليها اليوم اسم "مرحلة المراهقة"؟

– في الزمن الغابر، لم يكن لمرحلة المراهقة أي وجود، بل كان زواج الفتاة الصغيرة في بلاد الإغريق يتم قبل سن البلوغ. ويبدو أن تلك الحالات من الزواج كانت تتم بشكل عملي في هذه السن المبكرة. أما في روما فكانوا يحرصون على الملاءمة بين سن الزواج وسن البلوغ، فتصبح هذه الشابة الصغيرة أماً وهي لا تزال في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر، وأسهم هذا العامل في تزايد عدد

الوفيات. سنلاحظ فيما بعد الارتباط الوثيق بين تأخر سن الزواج لدى النساء والحد من الإنجاب وبين التراجع في نسبة وفياتهن في سن مبكر.

– ألم يكن للكنيسة أية مساهمة في تأخير سن الزواج لدى الإناث؟

– بلى، لقد حاولت الكنيسة تأخير سن الزواج حتى تبلغ الفتاة الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمرها مما سجل تقدماً في هذا المضمار. وشيئاً فشيئاً، أخذ سن الزواج يتأخر أكثر فأكثر. ولوحظ تباين في ردود أفعال المجتمعات الغربية وغير الغربية حول هذا الموضوع. كان للمجتمع الغربي الدور الأهم في خلق مرحلة الشباب أو المراهقة لدى الفتيات. وبالعودة إلى سجلات الكنيسة خلال القرن السابع عشر، لوحظ أن متوسط عمر الزواج لدى الفتيات يتراوح بين سن الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، ليرتفع في القرن الثامن عشر إلى السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين. عندئذٍ، يكون نفوذ العائلة قد قوي بعض الشيء فتصب جلّ اهتمامها في نقل الملكية، وخاصة فيما يتعلّق بالحياة الريفية التي كانت تمثّل 90% من المجتمع الغربي آنذاك. وحرصاً منهم على عدم تجزئة الملكية، كانوا يلجؤون إلى الحد من الولادات، وبما أنهم يفتقرون إلى وسائل منع الحمل كانوا يعتبرون أن الطريقة المثلى تنحصر في الحد من مرحلة الخصوبة لدى الزوجين. فيتأخر بذلك سن الزواج مما يخلق فترة أطول من حياة العزوبية وتقدّم في عمر الفتاة.

– الموضوع يتعلّق إذاً بتوزيع الميراث لا بالحرص على صحة الفتيات أو نموهنّ الكامل؟

– لم يكن نمو الفتيات الشغل الشاغل في تلك الحقبة. بدأ الاهتمام الفعلي بأمور الصحة النوعية للفتيات في بدايات القرن الثامن عشر، ليتخذ الخطاب منحىً طبياً وتخضع الفتاة لوظائفها الفيزيولوجية (وظائف الأعضاء). يُعرِّف الأطباء مرحلة المراهقة بأنها عبارة عن أزمة الهوية الجنسية. تتسم حياة الشبان في هذه المرحلة بطابع الصخب حيث يصبح الولد رجلاً، ويعيش الانتصاب، والمنيّ، والاحتلام، أي يبدأ بالتعرّف إلى هويته. أما بالنسبة للفتاة، فإن أمورها تجري بهدوء تام وفق رأي الأطباء في القرن الثامن عشر. عند الأولاد تكون العاصفة عنيفة، وعند البنات يأتي التبدل بسكون. لا يوجد أية مشكلة في الموضوع، إذاً لا مجال للاهتمام بالأمر.

خطورة الجمال

– ينحصر المصير الحتمي للفتيات الشابات اللاتي لم يدخلن إلى الدير بالزواج والأمومة. لم يكن للحب مكان في رحلة عمرهن، ولم تكن عواطفهن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل أي أحد، كما أنهن لا يملكن حرية التصرّف بأجسادهن.

– يدخل الزواج والأمومة ضمن نطاق واجبات المرأة، ولم يوافق النظام الاجتماعي في يوم من الأيام على أن تتهرّب المرأة من تلك الواجبات حتى لو لعبت الأمهات دورها في نقل تجربتها لابنتها تبريراً منها لدورها في المجتمع. تبقى أحشاء المرأة تحت سيطرة الرجل: بدءاً من سيطرة الأب، تتبعها سيطرة الزوج لتأتي بعدها سيطرة الدولة وأخيراً الكنيسة، أي أنها تبقى محط الأنظار والرقابة طيلة حياتها. في أسوأ الحالات تصبح أحشاؤها رهن إشارة الجميع.

– يتحتم على الفتاة أن تتزوج، لذا تتخذ العناية بجمالها المصاف الأول من واجباتها.

– الجمال أمر مشروع وضروري. تذكر الأساطير اليونانية أن الآلهة خَلقت النساء جميلات من أجل غواية الرجال. مع ذلك، كان لليونانيين رؤى مختلفة عن الحب، حيث كان الرجال يتبادلون العلاقات الجنسية فيما بينهم بشكل خاص. وكان الزواج بهدف الإنجاب أمراً شائعاً عند اليونانيين أكثر منه عند النصارى. ويأتي الجمال والإغراء في مقدمة واجبات المرأة لمساعدة الرجل في الإنجاب. في حين تشكّل المرأة القبيحة، المحرومة من أية مسحة جمال، مصدراً للتعاسة وسبباً في خلق المتاعب. وانتقلت هذه الظاهرة لتهيمن على كل المجتمعات. وأصبح الجمال عملة مقايضة في أسواق الزواج من جهة تعويض البائنة الهزيلة التي تجلبها العروس إلى عريسها. فالقول الشائع هو "مقايضة أملاك ومقايضة نساء"، ويمكن أن نضيف أحياناً "مقايضة الجمال". فالرجل الثري يبحث عن المرأة الجميلة وفقاً لمعايير الجمال السائدة في زمانه.

– لكن هذه المعايير يمكن لها أن تتغير عبر العصور... أليس من الممكن لقبيحة الأمس أن تصبح جميلة اليوم؟

– بقيت قيمة المرأة لمدة طويلة، تقدر بجمالها الذي ينطوي على جسم قوي البنية، ونهد ممتلئ، وأرداف عريضة... أي كل ما يشير إلى قدرة المرأة على الإنجاب

في المستقبل، تلك التي تأتي بأطفال أصحاء. بالنسبة للطبقة الشعبية، لم تكن هذه العلامات التي تدل على الصحة السليمة إلّا إشارة على قدرة تلك النساء على ممارسة العمل. أما نساء الطبقة الأرستقراطية، فلا بأس أن يكنّ أكثر رشاقة. لكن هاجس القوام الممشوق لم يوجد إلّا في زماننا المعاصر. فيتم التمييز بين المرأة والزوجة والأم والشابة التي نفضلها نحيلة القوام. لا بأس أن يكون الصدر ممتلئاً، أما الخصر فيجب أن يكون نحيلاً، صغيراً، والساقان طويلان وهذا دليل على قدرتها على إمتاع الرجل. كما يتم تقييم لون البشرة الشاحب، المائل إلى اللون الزهري الخفيف، وهذا مؤشر على التميّز. أما البشرة التي لوحتها الشمس فلم تكن تستهوي أحداً، فهي تقتصر على النساء اللاتي يعملن في الحقول. يمكن للإغواء أن يتم عن طريق النظرات. لا يفترض من الفتاة أن تُمعن النظر بمن حولها. بينما يحاول الشاب من جهته أن يغمز الفتاة، وإذا ردتها له وتمكّن من معرفة لون العين، فإنه يعد نفسه من السعداء.

– ألا يستحسن إظهار القليل من المفاتن وإخفاء الكثير منها بهدف إغراء الآخرين؟

– هناك ربط بين الجنس والخطيئة عند الحضارة النصرانية على خلاف ما يحصل في الحضارتين اليونانية والرومانية. يتحتم على المرأة أن تتصف بالجمال، لكن جمالها محفوف بالمخاطر – إنه جمال حواء التي أغوت آدم. يصبح جسد المرأة مثيراً للشهوة والاستنكار على حد سواء. لقد كتب رهبان الكنائس نصوصاً عجيبة حول الخطر الذي تمثله النساء، نصوصاً قد نصنفها تحت لواء الأدب الجنسي. يجب الامتناع عن النظر إليهنّ، بل يجب سترهن وتحجيبهنّ. قاموا بإعداد نظرية كاملة حول وضع الحجاب. فالشعر هو أسوأ ما في الأمر، إنه يجسّد الجنس بعينه! يتنوّع الشِعر الغزلي والغرامي بتنوع شَعر المرأة، هذا الشَعر الذي يبقى محجوباً ومعقوداً، ولا يُطلق العنان لهذه الضفيرة إلّا للزوج في ليلة الزفاف أو للعشيق. ويلعب شعر المرأة دوراً هاماً في الماخور (بيت البغاء). فماري مادلين Marie Madeleine، قديسة الشهوانية والتوبة في آن واحد، التي تظهر في اللوحات الفنية بشعرها الطويل المعقوص، تجسّد الجمال الأنثوي. بينما تكرّس الراهبات أنفسهنّ للسيد المسيح، ويهبن له شعرهن وأنوثتهن. وفي احتفال "الرهبنة" تزداد أهمية شعيرة قص الشعر أكثر فأكثر. يتحتم على النساء اللاتي يبقين شعرهن مسترسلاً، أن يغطين شعرهنّ على الأقل. كان الحجاب موجوداً في العصور القديمة،

لكن الدين المسيحي أضاف عليه دلالة الخطيئة التي تولّد الغراميات والخيال. فمن حجاب القرون الوسطى إلى البرقع الصغير للنساء اللاتي عشن في ظل حكم فكتوريا، ملكة بريطانيا واللاتي كنّ لا يخرجن من دون قبعة. إنها قصةٌ طويلةٌ تتناول العفة والجسد الذي يجب تغطيته. "استري نهدك فأنا لا أستطيع أن أنظر إليه!" لكن الجنس الذي يرتبط بالخطيئة يغذي الفسق والفجور ليصبح الهاجس الدافع للأدب والفن...

من الحجاب إلى البنطال

– كانت المرأة ولا تزال تعتبر كإحدى المقتنيات التي يسهل الاستحواذ عليها، مع ذلك يجد الرجل فيها منبعاً رائعاً للإبداع!

– ظهر ذلك بشكلٍ ساطع في مطلع عصر النهضة. نحن الآن في خضمّ إبراز مفاتن المرأة وإبراز جنسها، وجسدها المستور الذي يثير الغرائز. كان يتحتّم على المرأة في بعض الأحيان إخفاء جيدها، فكانت تضع وشاحاً يغطي الصدر والكتفين، أو خماراً. وفي أحيان أخرى كانت الملابس تكشف عن الصدر بشكل سخيّ. أما في الفترة الرومانسية، فقد كانت الفتيات اللاتي يراعين التقاليد يذهبن إلى الحفلات الراقصة بملابس تكشف الرقبة والكتفين بشكلٍ تام، بينما كان القسم الأسفل من الثوب طويلاً جداً، ليصبح كل من الساق والعرقوب موضع إثارة بالغة، ولا ننسى أن الحذاء كان مصدراً للإثارة الجنسية...

– بعيداً عن اللوحات الفنية، كان ذوق العصر يهتم بإبراز محاسن المرأة.

– لم يبرح عالم أزياء العصر يشكّل مسرحاً للمواجهة. فمن ناحية كانت المرأة تجد فيه متعة لها، فهي تحب أن تتزين، وأن تلبس أجمل الأقمشة، وتقتني المجوهرات وترتب شعرها بطريقة فريدة. تأتي الأزياء من القصر فتتسابق النساء الأكثر ثراءً ونساء الطبقة الدنيا إلى اقتنائها، إن لم يكن بشكل كامل فعلى الأقل بشكل جزئي. من ناحية أخرى كان زي العصر يشكّل ضغطاً على المرأة لإبراز جسدها. لا ننسى الملابس التي تعيق الحركة أو تلك التي تعيق التنفس: التنورة المنتفخة المصنوعة من قماش قاس، ومشدات الخصر والردفين، ثم فيما بعد التنورة

الضيقة جداً. هذا إلى جانب الواجب الذي فرضه البلاط القاضي بضرورة تغيير الملابس في كل ساعة من النهار. كتبت الأميرة بالاتين Palatine أخت زوجة الملك لويس الرابع عشر في مراسلاتها أن سيدات البلاط يقضين وقتاً لامتناهياً في زينتهنّ، إنهن يتسببن لأنفسهن بالألم مثيرين سخرية الآخرين في الوقت ذاته. أما هي، فإنها تعلم بأن زوجها لواطيّ، مع أنها أنجبت منه أولاداً، فقررت أن تتحرر من هذه القواعد وذكرت أن لديها جسماً ضخماً وغير متناسق لذا تستطيع أن ترتدي الثياب التي تعجبها وتأكل ما يحلو لها. فيما بعد فُرضت هذه الضغوط الصادرة عن البلاط الملكي المتعلقة بالأزياء على الطبقة البورجوازية. فمثلاً لا تستطيع امرأة من الطبقة الأرستقراطية في القرن التاسع عشر أن ترتدي الفستان ذاته عند الساعة العاشرة صباحاً للتسوق، وعند الساعة الثانية ظهراً لتنضم إلى ندوة السيدة فلانة، وعند الساعة الخامسة مساءً من بعد الظهر لتذهب إلى السوق الخيري، ومساءً لترافق زوجها إلى دار الأوبرا... في حال كان الزوج غنياً فإنه يفرض على زوجته مراعاة هذه القواعد والّا فسيعتقد المجتمع أنه لا يستطيع تغطية نفقات زوجته. أما بالنسبة للزوجات، فإن هذه الضغوط أصبحت واجباً ملحّاً يشتكين منه في رسائلهنّ ومذكراتهن الخاصة.

– بالإضافة إلى هذه الضغوطات، ألم تثر بعض الملابس الأكثر "إباحية" مثل البنطال، معارك حقيقية؟

– تبقى الملابس موضع رهان اجتماعي جوهري، فالمرأة التي تحتج ولا تطبق القاعدة، بإظهارها أجزاء من جسدها يُفترض أن تخفيها، تبقى سبباً في افتعال المشاكل. فلا يجوز للمرأة أن ترتدي البنطال الذي هو شعار الرجل. والمرأة التي تلبس السروال تعتدي على حق الرجل. وهذا غير مقبول! ففي القرن التاسع عشر، فرض مدير الشرطة على المرأة التي تحتاج إلى لبس البنطال أن تتقدّم بطلب خطي إلى الولاية. وهكذا حصلت الرسّامة المتخصصة في تصوير الحيوانات، روزا بونور Rosa Bonheur، على الموافقة على ارتداء البنطال، فهي تحتاج إليه من أجل وضع حمالة اللوحات حيث تشاء من الطبيعة. أما الكاتبة جورج ساند فقد ارتدت البنطال من دون تصريح من السلطات، فجاء تصرفها انتهاكاً للقوانين مما أثار استنكار الجميع.

– حطمت جورج ساند George Sand الطوق الحديدي للأدوار التقليدية لكنها تبقى حالة استثنائية، حيث خضعت معظم النساء للقانون الاجتماعي من خلال امتثالهن باللباس المفروض عليهن. أما الفتيات "في عمر الزواج" اللاتي يبقين شغلنا الشاغل، فإنهن لم يكنّ أحراراً في اختيارهن، أليس كذلك؟

– بالفعل، يجب على الفتاة أن ترفع رأس أبيها عالياً لكي يرتب لها زواجاً كريماً. ساد الاعتقاد في القرن التاسع عشر أن الفتاة الصالحة للزواج يجب أن تكون شفافة، ناصعة البياض، ونقية. لا تضع المساحيق، ولا تستعمل العطور، ويجب أن تكون رزينة وتكتم السر، عديمة الرائحة وعديمة الطعم إن أمكن. عليها الاستسلام لرغبة والدها والطاعة العمياء لأوامره.

عقود الزواج

– عندما يضع ختمه على وثيقة عقد زواج ابنته، يفكر الأب بمكانته من هذا التحالف، وبمصلحة عائلته، وبإدراة الميراث... في أي وقت من الأوقات تمّ الأخذ بعين الاعتبار موافقة الفتاة النابعة من داخلها؟

– تنبع الفكرة، التي تعترف بضرورة موافقة الطرفين في عقد الزواج، من الكنيسة. لكن هذا الأمر لا يعود إلى ظهور الدين المسيحي، بل إنه استقر في العصور الوسطى، وبشكل خاص بدءًا من القرن الثاني عشر. أرادت الكنيسة التدخل في عقود زواج الطبقة الأرستقراطية على أمل أن تدعم سلطتها في علاقاتها مع أفراد هذه الطبقة. فجعلت من الزواج طقساً للأسرار لا يمكن فسخه، ووضعت خاتم الزواج على قاعدة متينة. ولكي تمنح طقس الأسرار، طالبت الكنيسة بموافقة الطرفين على عقد الزواج.

– وماذا عن الفتيات، هل تدخل موافقتهن حيّز التنفيذ أم تبقى مجرد نظرية؟

– كلا، تبقى موافقة الفتيات على ارتباطهن بالشاب أمراً نظرياً، غالباً ما يتم سلبهن إياه. إذ إن السيد ورئيس العشيرة – ومن باب أولى الملك – كل أولئك يملكون حق التصرّف بالفتيات، لذا لا أحد يسألهن رأيهن في موضوع زواجهن. وتدخلت الكنيسة وفرضت مبدأ الموافقة الحرة، وفي إطار الصراع من أجل السلطة،

أتاح لها هذا الأمر أيضاً الاعتماد على النساء اللاتي جعلن من هذه الموافقة شغلهنّ الشاغل حال حصولهنّ على العلم والثقافة. بمعنى آخر، يجب ارتداء القفازات والتقدم لطلب يد الفتاة، ولا بأس أن ترفض الخطيب الأول والثاني - بل يحق لها رفض الثالث أيضاً، فإذا رفضت الثالث تنتهي حياتها داخل أسوار الدير! وشيئاً فشيئاً، بدأت موافقة الفتاة على الزواج تتخذ طابعاً جدّياً. وبالتأكيد، لا يسمح للفتاة أن تختار الشاب الذي سترتبط به، لكنها تحتفظ بحق رفضه.

- هل الأمر مشابه عند القرويين؟

- لا يهتم الإقطاعي أبداً بترتيب زواج القرويين الذين يعملون في مزرعته، فتجد الفتاة نفسها حرة في حب من تشاء وليست مضطرة للزواج من إنسان معيّن. لكن الخيار يبقى أمامها محصوراً. فالقرويون يتزوجون فيما بينهم وفي مكان إقامتهم. لقد نظّمت هذه القاعدة أمر الزواج بين الشباب لكنها أرهقت كاهلهم. لدى مراجعة الإحصائيات لوحظ وجود تزاوج بين العشيرة أو الأهل. ومن ناحية أخرى، نجد أن خطط الزواج لعبت دورها، حيث بدأت الحسابات مع ظهور الملكيات: فإذا كان الأب يملك أرضاً صغيرة يبادر إلى ترتيب الزواج بين ابنته وابن الجيران مما يزيد في مساحة الأرض. انتشرت مشاريع الزواج هذه التي نجدها في الأوساط الشعبية لدى العمال فيما بعد. فالعامل الذي يعمل في التعدين - الذي ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية العمالية- يسوؤه أن ترتبط ابنته بعامل يدوي، إذ يفترض بها أن تتزوج بإنسان من طبقة والدها الاجتماعية، ولا بأس أن ترتبط بإنسان من مستوى اجتماعي أفضل. ينشغل الآباء في مراقبة علاقات بناتهم ويتدخلون في حال عاشرن من لا يرضون عنه. ويرتاد بعض العمال الحفلات الراقصة ويلتقون بالخادمة الصغيرة التي تكون قد ادخرت مبلغاً من المال وتستطيع إدارة منزل بفضل صنعتها.

- وعند الضرورة، هل تطال المفاوضات الأملاك وعقد الزواج والمهر؟

- بالتأكيد. عندما لا يكون لدينا أملاك، نستغني عن عقد الزواج. أما في الحالات الأخرى، يبقى المرور أمام كاتب العدل وتحرير عقد الزواج لحظة حاسمة. فمن مصلحة الأب، إذا أراد تزويج ابنته وعقد صفقات مصاهرة مناسبة لعائلته، أن يؤمّن مهراً جيداً، الذي هو نوع من أنواع المساهمات في الإنفاق على زوجة

المستقبل. فإذا كان المهر –أراضي أو فضة – هزيلاً بعض الشيء، أمكن تعويضه بصفات الزوج الحميدة. أما في الأوساط الشعبية عندما يذيع أمر فتاة ما على أنها تتمتع بالشجاعة، وحسن التدبير وأنها حاصلة على تربية جيدة داخل عائلة محترمة، فهذا أمر جدير بالاهتمام. تبيّن لنا أن الدور الذي لعبه كل من الجمال والمظهر الخارجي آخذ بالتزايد مع دخول الرفاهية إلى الأرياف. وقد أدى التطور السريع داخل المدن في القرن الثامن عشر، وتزايد الهجرة، إلى دفع الناس للخروج من بيوتهم وإجراء المقارنات. فالفتاة الحسناء التي تزينت وتجملت تناسب وضع الرجل الثري. وكلما زاد الاهتمام بالعامل الشخصي، ازدادت حسابات الزواج تعقيداً.

– لكنها تبقى قضية عائلة لا قضية فرد.

– أجل، وبشكل خاص حين يصبح الرهان ثقيلاً. لقد انحصرت مصالح طبقة النبلاء بالإقطاع، بينما اتجه اهتمام الطبقة البورجوازية إلى التجارة والمشاريع. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عملت العائلة على إنماء رأسمالها. إنها بتزويجها لبناتها تُنشئ تحالفاً بين المناجم والمعامل ومصانع الغزل. في عام 1880 أقدم أحد أبناء الجيل الأخير من عائلة شنايدر على الاقتران بممثلة بعد قصة حب، فشهّرت به العائلة أمام الرأي العام! لقد غضّ من مقامه ولم يخدم مصالح مؤسسة العائلة. يأتي ترتيب الهوى والحب في المرتبة الثانية. على كل حال، للرجال الحق في إقامة علاقات خارج نطاق الزواج كتعويض، لقد ذكرت لنا ذلك فرانسواز إيريتييه حيث إن نشاطهم الجنسي خارج عن سيطرتهم. بينما تستطيع النساء "الاستغناء" عن الأمر. إن احتمال إنجاب ابن زنا يبقى كبيراً عند المرأة إذا هي أقامت علاقات غرامية مع رجل، علماً أن حالات الإنجاب من هذا النوع كثيرة الحدوث ولكنها مستنكرة. لذا يتحتم وضع النساء تحت المراقبة الصارمة. ويجب تربيتهنّ منذ نعومة أظفارهنّ وتوجيههن ليصبحن فتيات صالحات وينجبْنَ بدورهن الإناث ليصبحن زوجات طاهرات، فضيلات يُحسنّ السيطرة على أجسادهن وحواسهن وخيالهن. لن يتم تعليمهن إلا بما يعود عليهن بالمنفعة في دورهن كأمهات. ينشأ التفاوت بين الرجال والنساء عن هذه الرؤية للأدوار والأجساد. لا بد أن لجسد المرأة الذي ينجب الأطفال سحره الخاص به، لكنه يبقى مصدراً للخوف من حيث الخطورة التي يشكلها. وعلى الرجال أن يضعوه تحت المراقبة.

"ليلة زفافي كانت عملية اغتصاب"

– وها هي ليلة الزفاف قد أزفت. لقد فكرنا في كل الأمور باستثناء الحب...

– حسب رأي الكنيسة، يأتي الحب بعد الزواج. لا مكان للهوى العنيف والعابر الذي لا يؤسس للزواج. فمن ميزات الزواج أنه علاقة مستمرة. بينما تقيم الكنيسة وزناً أكبر للتفاهم الذي يتولّد بين الزوجين بعد زواج المصلحة ويتطور مع الحياة المشتركة والأطفال الذين يولدون. إنها طريقة الكنيسة للاعتراف بضعف البشر، وبالرغبة الجنسية التي تحترس منها. يجب قبولها من أجل استمرار البشرية، بل إن تم ذلك من دون تجاذب متبادل فهو أمر مطمئن. كتب القديس أوغسطين Augustin في كتابه "اعترافات" مقطعاً مؤثراً حول الغرفة الزوجية: يجب أن تبقى مغلقة ولا يجوز لأي أحد أن يطّلع على فراش الزوجية وبشكل خاص الأولاد. وإذا عبرنا عدة قرون نجد الفكرة نفسها في التحليل النفسي حيث يتساءل سيغموند فرويد عن أثر المشهد البدائي في مشاكل كل واحد فينا: ما الذي عرفناه عن العلاقة الجنسية بين أهلنا؟ لم نخرج في ذلك عن نطاق الأخلاق اليهودية والمسيحية.

– إننا بالكاد نجرؤ على التفكير بما ينتظر الإوزة البيضاء ليلة زفافها...

– كتبت جورج ساند بشكل صريح: "كانت ليلة زفافي عملية اغتصاب". الزواج كله عبارة عن عملية اغتصاب شرعي، إذ لا أحد يعير التفاتاً إلى متعة المرأة التي لا تقدّم ولا تؤخّر في عملية الإنجاب. إننا نأمل أن يكون هناك أزواجٌ تبادلوا الحب وأن هناك نساءً قد شعرن بالمتعة، ولكننا لا نستطيع أن نجزم. لاحظ الأطباء في نهاية القرون الوسطى أن المرأة تفرز سائلاً بعد الجماع على شكل الندى مرسلاً من عند الله، وهذا السائل يساعد على تكوّن أطفالٍ على قدر من الصحة. لذا يقول بعض علماء الدين إن شعور المرأة بالمتعة مع زوجها هو أمرٌ جيدٌ وشرعي.

– ألم الشعور بالمتعة يعتبر خطيئة؟

– إلى حد ما، ويمكن ممارسة الجماع بطريقة أقل عنفاً. إنه طريق طويل ولكننا بدأنا نلاحظ بعض العلامات. ظهرت في عهد النهضة نساء شاعرات مثل بيرنيت دو غييه Pernette Du Guillet ولويز لابيه Louise Labé كتبن شعراً في الجنس، روين فيه كيفية الجماع، والمتعة التي تشعر بها الزوجة، واللطف في

الحركات. من الواضح أنهن يتكلمنّ عن تجربة شخصية. وفي مدرسة فونتينبلو Fontainebleau، المتأثرة بالفن الإيطالي، تُظهر لنا اللوحات الفنية نساءً من البلاط الملكي داخل الحمام، عاريات تماماً بينما تداعب الخادمات حَلَماتهنّ. كان لا بد من إدخال بعض التعديلات على هذه اللوحات الفنية لكي يتم عرضها في صالات العرض الملكية. في القرن الثامن عشر، قيّم الأطباء "تناغم المتعة" بين الزوجين، كما أشار إليه المؤرّخ آلان كوربان Alain Corbain. بل واعتبروه أيضاً أساساً في التناسل.

هل هي باردة أم أنها لا ترتوي جنسياً

– ألم يخشى الرجال من المرأة المتعطشة للمتعة على الدوام، والتي لا ترتوي جنسياً؟ أم إن ذلك يدخل تحت باب الخيال؟

– هناك دوماً قطبين لتمثيل النشاط الجنسي عند المرأة. فمن ناحية هناك المرأة الباردة جنسياً التي لا تشعر بأي شيء، فهي تبقى جثة هامدة يعمل الرجل على "حراثتها". يجدر أن نذكّر هنا أن كلمة "الحراثة" تعود في أصلها إلى عمل الرجل أثناء الجماع، بينما ينحصر "عمل" المرأة بالولادة. وفي المقابل نجد وهم البئر الذي ليس له قرار، حيث إن الرحم هو عبارة عن هاوية عميقة يتحطم فيها الرجل. فهو يرغب فيه ويخشاه، إذ تدفعه فحولته إلى معاودة الاختبار كرات عديدة، ليصل إلى حد الإنهاك.

– إنها ميتة الفارس...

– نعم. هذا موجود في الأدب اليوناني والأدب الروماني. يشعر بعض الرجال بشيء من القلق يدفع بهم إلى ممارسة اللواط. يخشون من هذه المرأة المتعطشة للجنس، وفيما بعد ستتحول هذه المرأة إلى ساحرة تأكل الرجال وتمتصهم، بل ربما تسبب عندهم العجز الجنسي. لم يعد الرحم في القرن التاسع عشر هو السبب في إثارة الارتياب بل إنه البظر. بدأ الخوف من انتشار العادة السرية – حيث أصبحت هذه الفكرة هاجساً يؤرّق مضاجع معلمي الأولاد– بل لوحظ أيضاً أن الفتيات "أخذن يستخدمن أيديهن"، كما ذاع الصيت آنذاك، لدرجة خشي فيها الأطباء

أن تفقد هذه الفتيات سائلهن الثمين، أو أن تستحوذ عليهن الفكرة ويتسببن بكل أنواع المشاكل لعائلاتهن. لقد أكد الدكتور زامباكو Zambaco من جهته على وجوب إخضاع الفتيات لعملية الختان! وفعلاً تمّ استئصال البظر داخل العيادات الأمريكية والفرنسية على حد سواء. ولا نملك إلا معلومات بسيطة حول هذا الموضوع – حيث نُشرت بعض المقالات في المجلات الطبية، تحوي بعض التلميحات الهامشية، خاصة في مجلة "الخصوبة" Fécondité لزولا Zola.

– أليست المرأة الباردة هي من يفضلها الرجال على الدوام، إذ يعتبرون أنها امرأة "مناسبة"؟

– بالفعل، إنها زوجة جديرة بالاحترام، ويرى فيها بعض الأزواج الأمن والأمان: "لن تُقدِم زوجتي على خيانتي، إنها إنسانة محترمة وتترفّع عن ذلك." لكن هذا يدفعهم إلى معاشرة العاهرات. يثير بالزاك Balzac في كتابه "فيزيولوجيا الزواج" موضوع الخلافات الزوجية المستمرة. فقد لاحظ أن الزوجين في إنكلترا ينامان في فراشين منفصلين، أما في فرنسا فإنهما ينامان في سرير الزوجية. يرى بالزاك في ذلك إشارة لحق الرجل الدائم في جسد زوجته ولا يتعجب أن تشكو الزوجات من الصداع النصفي الذي ينتابهن على الدوام! إنهن يسأمن من الجماع، ولا يستطعن الخلود إلى النوم إلّا في ساعات متأخرة من الليل. يُعتَبر بالزاك من أنصار الذين يرغبون بالربط بين الزواج والمتعة المتبادلة، وهذا يشكل منعطفاً تطالب به النساء وبعض الرجال أيضاً. ويأتي الخوف من السفلس (مرض الزهري) في هذه المرحلة ليلعب دوره. فهو يشكّل إلى جانب مرض السل وإدمان الكحول أحد الروافد الاجتماعية الثلاث الذائعة الصِّيت في القرن التاسع عشر. إذ تنتقل العدوى عن طريق العاهرات، مما دفع بالأطباء إلى تكريس جلّ اهتمامهم من أجل معالجة الأمر. ولاحظوا أن عدد الأطفال قليل في فرنسا، فبحثوا عن السبب ليجدوه في السفلس الذي يصيب الرجل وينقل العدوى إلى الزوجة، مولّداً العقم لدى الزوجين. وصل الأمر إلى حد إعطاء الأولاد دروساً في الأخلاق للحفاظ على أنفسهم والامتناع عن ارتياد بيوت الدعارة. وهكذا يتم نشر فكرة الزواج السليم والصحي للزوجين. لوحظ في السنوات الأخيرة لجوء العروسين خلال فترة الخطوبة إلى إجراء فحوصات طبية، فإذا كان الشاب مصاباً بمرض تناسليّ يستطيع والد الفتاة رفض هذا الزواج.

الزوجة "الصالحة"

– لكن ما إن تنتهي مراسم الاحتفال بالزواج حسب الأصول حتى يُطلب من الزوجة الشابة الخضوع والانقياد للزوج. لقد كانت حتى تلك اللحظة على عاتق والدها من الناحية المالية، أما الآن فهل نعتبر أنها وقعت تحت سيطرة الزوج؟

– إن قانون الأملاك لم ينصف المرأة في الميراث أو حتى في نظام الزوجية. تتغير العادات وفقاً للعصور والبلاد والمناطق، وتبقى النساء هنّ الطرف الخاسر في أغلب الأحيان. ففي بلاد النورماند ينحصر إرث العائلة بالأولاد من دون الفتيات. وجاءت الثورة لتضع مبدأ المساواة في الميراث بين الإخوة والأخوات. فتقبّله القرويون بصعوبة بسبب اضطرارهم لتقسيم الأملاك، ورفض البعض تطبيق القانون الجديد معتبرين الثورة كارثة ألمت بهم وانتهاكاً لسلطتهم من قبل النساء. يعبّر بيير ريفيير Pierre Rivière الذي اقترف الجريمة الشهيرة في "مَلَكية يوليو" (في عهد الملك لويس فيليب) عن موقفه إزاء قتله لأمه، مبرراً فعلته بأنها ما حصلت إلّا بسبب انتزاع أمه السلطة منه، يقول: "أنا بيير ريفيير، أجهزت على أمي وأختي وأخي...". وفي جميع الأحوال، بادر نابليون في القانون المدني إلى تنظيم كل هذه الأمور، حيث بيّن أن النساء يفقدن حقهن في إدارة الأملاك التي تعود إليهن بالإرث على الأقل ضمن طائفتهن، كما أنهن يفقدن حقهن في التوقيع على أية وثيقة، ولا تُطلب موافقتهن في بيع الأملاك التي تعود إليهن من أهلهن إذا أراد أزواجهن ذلك. هذه الخسارة الاقتصادية التي لحقت بالنساء هي الفضيحة الكبرى التي نص عليها القانون المدني.

– ألم تحتفظ النساء لفترة طويلة بحقهن في إدارة مهورهن؟

– لم يتحقق لهن ذلك بشكل كامل. هنا أيضاً نجد أنظمة متعددة. ففي باريس كان هناك نظام قائم يدعى "نظام المهور" يُقسم فيه المهر إلى جزأين، يدخل الجزء الأول في الأملاك العامة التي يديرها الزوج، وتستطيع الزوجة إدارة الجزء الآخر حسب رغبتها كما تملك الحق في استعادته بوفاة زوجها. وفي "الملكية المشتركة بين الزوجين"، يتم إحصاء الأملاك الخاصة بالزوجين، كلٌ على حدة، والأملاك التي حصل عليها الزوجان مجتمعَين، والتي يديرها الزوج. بينما تبقى الأموال كلها في يد الزوج في "نظام شيوع الأموال بين الزوجين" الآخذ بالانتشار. وهذا النوع من

الأنظمة هو المفضّل لدى كثير من الأوساط البورجوازية من أجل إنماء الأعمال. بتعبير أبسط، هذا النظام لا يتطلّب إبرام العقود.

– كيف ينعكس هذا التباين في الحقوق على الحياة اليومية ضمن العائلة؟

– إن الاختلاف بين الأزواج عميق الجذور، وغالبًا ما يتولّد عنه تمرّد علني من قبل الزوجات. قبل زواجها، كان يُسمح للفتاة برفض أي رجل يتقدم لخطبتها. وعندما ترتبط به، يُقر لها المجتمع ضمناً "بحقها بالانسحاب"، أي أن تعيش حياتها بالطريقة التي تناسبها، حتى ضمن المجال المشترك، ويمكنها التمنّع عن زوجها، حيث إن هناك طرقاً عديدة لتنسحب من علاقة لا تروق لها: كأن تتمنّع جسدياً، أو ترفض الكلام، وتمتنع عن إبداء رأيها، وفي كثير من الأحيان تلزم الصمت المطبق. تلجأ بعض الزوجات إلى خلق عالمٍ خاصٍ بهن ترتاده الصديقات والجارات حيث يتولد عند الزوجة حب الاختلاط بالنساء فتلجأ إليهن، وتجد عندهن السرور في محاولة منها للهرب من هموم الحياة الزوجية.

أحلام الحب

– هل هناك أزواج على قدر من الأخلاق استطاعوا التوصل إلى التآلف والاندماج؟

– بكل تأكيد! هناك علاقات زوجية ناجحة، يسيطر فيها الحب والتفاهم على علاقة الزوجين، حيث تتبنّى الزوجة مشاريع العائلة وتجد فيها مجالاً للسرور. وتهتم الزوجات في الطبقة البورجوازية، وطبقة التجّار وفيما بعد الصناعيين، بشؤون البيت. ترعى الأطفال، وتنهك الخادمات بالأعمال المنزلية، وتنظّم حفلات الاستقبال. تمارس هذه الزوجات سلطتهن داخل المنزل، ضمن مجالهن، وهن سعيدات بذلك إلى درجة لا يفسحن مجالاً للزوج لتوجيه أي انتقاد عند عودته مساءً. المهم أن يكون كريماً ويعطي المال بسخاء. تسير الأمور والحالة هذه على ما يرام. فنجد زوجات بورجوازيات، ثريات، ثرثارات، مسرورات إذ يجدن طعماً لحياتهن في إدارة الأمور الداخلية والاجتماعية. فنجد البيوت وسط الحدائق الهادئة في عهد الملكة فكتوريا مركزاً للسعادة، تعكسها بعض اللوحات في الفن الانطباعي.

– يبدو أنك غير مقتنعة فيما تقولين! ولكن ألا تعتقدين أن من يبث الفوضى في الحياة المنتظمة هن النساء المثقفات؟

– نعم، هؤلاء المثقفات هنّ من يضقن ذرعاً بكل هذا، ويجدنه سدىً... من الصعب أن يرتبطن بعلاقة زواج! انهمكت بعضهن في إملاء الصفحات البيضاء بكتابة مذكراتهن والتعبير عن "الأنا"، بينما انشغلت أخريات بالمطالعة ("ينبع الخطر من النساء اللاتي يكثرن من المطالعة") بهدف التعلّم. هناك أيضاً من استسغن "الفنون الترفيهية"[1] وحلمن بالحصول على مهنة. نجد بعض الآثار لهذه الأحلام غير المشبعة في المذكرات التي دونتها الفتيات بتشجيع من أمهاتهن أو من المعرِّف، كوسيلة لضبط النفس. نجد عند هذه الشابات اللاتي سيؤول مصيرهن إلى الزواج، الذي غالباً ما يكون مفروضاً، أحلاماً في الحب إلى جانب الخوف من المجهول. إن ماري باشكيرتسيف Marie Bashkirtseff، وهي امرأة من أصل روسي وعائلة ثرية، عاشت في باريس في نهاية عهد الإمبراطورية الثانية، عبّرت بشغف عن رغبتها في "شيء آخر" مختلف عما كانت تشعر به الكثيرات من بنات جنسها. ماتت في السادسة والعشرين من عمرها مخلّفة وراءها مذكراتها في تسعة آلاف صفحة. كانت تحب الرسم بالألوان، ولا مشكلة في ذلك بالنسبة لفتاة تنحدر من عائلة محترمة، لكنها كانت تبحث عن الشهرة كرسامة وكمبدعة. اعتبرتها عائلتها مجنونة ثم ما لبثت أن حققت لها هذه النزوة. كانت ترتاد أكاديمية جوليان الأدبية، وعرضت لوحاتها في الصالونات، وشاركت في مسابقات صغيرة. وفي الوقت نفسه وقعت في غرام شاب، بول دو كاسانياك Paul de Cassagnac، ويُعتقد أنه كان يشاركها الشعور نفسه. لكن هذا الشاب كان رجل سياسة من أنصار نابليون بونابرت، وكان هدفه إبرام عقد زواج لائق. وذات يوم، يصل إلى مسامع ماري أنه ارتبط بأخرى حتى من دون أن يعلمها...

– حتى لو كانت من أصل نبيل، أو كانت ثرية، تبقى الفنانة إنسانة غير مناسبة للزواج. لا بد أن هذه المرأة غير المتوازنة أدخلت الفوضى إلى العائلة!

– هذا صحيح! وفي الوقت ذاته، نطالع في مذكراتها أنها كانت تعشق شخصها. والمقاطع التي كتبتها كانت أقرب إلى الإثارة الجنسية. كانت تحب الوقوف

(1) كالموسيقى والتصوير والرقص وركوب الخيل... -. المترجم.

أمام المرآة عارية تماماً، وكانت تجد نفسها جميلة – وهي كذلك– ويبدو من خلال كتاباتها أنها كانت تتمنى أن تكون موضع حب وغزل... وبطريقة ما، استطاعت أن تنقل الرغبة والصراع اللذين يتملكان الفتيات المقبلات على الزواج، إلى الذروة.

قلب في غياهب النسيان

– كانت الشابات يحلمن بالحب، ولكن هل فعلاً داعبت هذه الأحاسيس قلوبهن في الوقت الذي كان الزواج المفروض عليهن يحدّ من سعة أفقهنّ؟ لقد رأينا في العصور القديمة أن العواطف لم تكن من نصيب الزوجات. وفي القرون الوسطى، كانوا يتغنون بالحب الرفيع، نوع من الطقوس المثالية والأفلاطونية توضع فيه المرأة في مكانة عالية لا تنالها الأيدي. ولكن هل هذا يدخل في نطاق الأسطورة أو أنه حقيقة؟

– هناك عدة نظريات حول الحب الرفيع. البعض يراه تلطيفاً للأخلاق حيث لعبت النساء دوراً كبيراً فيه. كانت الفتيات النبيلات أثناء الحملة الصليبية أكثر ثقافة من الشبان الذين كانوا يُرسلون إلى الحرب منذ سن الرابعة عشر. هذا التفاوت في مستوى التعليم دفع بالنساء إلى إظهار رغبة تجاه الرجال أكثر اعتدالاً وأكثر ثقافة.

– لكن أليس الفارس الذي يثير إعجاب السيدات هو الذي يعرب عن قيمته في الحرب، أي الذي يَقتل الكثير؟

– يُعتبر الفارس الذي أراق دم عددٍ كبيرٍ من الجنود في صفوف الأعداء بطلاً تمجده النساء – وهنا تظهر قيمة الدم. لكن الفروسية تتطلب أن لا يهدر المقاتل الدماء هباءً. فالمشهد المركزي للحب الرفيع، لا يكمن في الحرب بقدر ما يكمن في المباراة، أي العراك اللطيف، والمأثرة من دون إراقة دماء. لا يوجد قتل، بل تظهر البسالة والشجاعة من خلال البراعة والمهارة. قد نجد هنا شكلاً من أشكال الحضارة. إن مشاهد المباراة التي تظهر في المنحوتات الصغيرة تشير إلى اعتلاء النساء العرش تحت السرادق بينما يتبارز الفرسان من أجلهنّ. كل ذلك يبدو متحفظاً وأنيقاً. لكن جورج دوبي Georges Duby الذي لا يجادل في موضوع المباراة، يعتقد أن وجود النساء لم يكن إلّا للإغراء. كان السيد يضعهن في المقدمة من أجل جذب الفرسان الذين كان عليهم التميّز في نظر النساء في حين كان السيد يغتنم

الفرصة لانتقاء خيرة الفرسان لجيشه. ثم لِمَ لا يكافئ البعض منهم بزواج مناسب؟ فهو من يملك السلطة والقرار. كانت السيدات يَعرضن أنفسهن، وقد يثرن الرغبة لدى الفرسان، ولكنهن لا يجزمن بأي قرار. جميع مؤلفات جورج دوبي حول سيدات القرن الثالث عشر تشير إلى سيطرة الرجال على المباريات وعلى الحب الرفيع.

– وماذا بشأن كتاب الطقوس للفارس الذي يخضع لسيدته، والشِعر الذي يوجهه إليها، والامتحانات التي تفرضها عليه؟

– كانت القصائد التي تبرز عاشقاً مخلصاً تتلى على مسامع السيدة. قد يكون لها بعض التأثير. ولكن ماذا بعد؟ يتعذر استخلاص حقيقة واقعية. فالنساء لا يتمتعن إلّا بهامش حرية منقوصة، ولا يبتعدن عن القصر، وعندما يحل الظلام يخلدن إلى النوم في غرفة السيدات التي يحوم حولها الشبان الذين يمارسون العنف أحياناً. كما يتعذّر الاختلاء لتبادل الحب والتآلف. فالمراقبة لا تتوقف وقانون الشرف لا يرخي قبضته. نعيش تحت أنظار الآخرين. يروي لنا جوانفيل Joinville أن بلانش دو كاستيل Blanche de Castille لم تكن تحتمل أن يعتكف ابنها الذي أصبح فيما بعد سان لويس Saint Louis مع زوجته داخل غرفتهما. كانت تحاول جهدها لتجعل غرفتها فوق أو تحت غرفة الملك، وعندما تجد أن الوقت طال عليهما كانت ترسل في طلبه. ففكرة الحياة الخاصة حديثة.

– عندما كان السيد يبتعد عن القصر أثناء الحملات الصليبية، هل كانت السيدات يتمتعن بقدر أكبر من الحرية؟

– يمكن أن نتخيّل الوضع. عندما تُضْبط المرأة متلبّسة بجريمة الزنا تواجِه خطراً كبيراً حتى لو كان حزام العفة من اختلاق الأسطورة، فهي ستدفع حياتها ثمناً في أسوأ الأحوال أو أنها ستطلق من زوجها. لقد وُجدت رابطة الزواج لضمان اختلاط الدم بشكل معيّن. فإذا تم إدخال شخص غريب، سيفسد الدم وهذا غير مسموح. وفيما وراء تلك القصائد، تبقى حقيقة الطبائع والآداب شرسة. وفي ظل هذه الأرستقراطية الإقطاعية، يعيش الرجال فيما بينهم لمدة طويلة عازبين ويقيمون العلاقات الشاذة فيما بينهم. فالمرأة غريبة عنهم وتشعرهم بالخوف. قامت النصرانية بإشاعة الخوف من النساء حيث ادّعت أنها مرض وأنها تسبب الإعياء. فتبيّن أن الزواج حين يتم بالدخول بسرعة فإنه دليل على فحولة الرجل. وغداة ليلة الزفاف

يتم عرض ملاءة السرير كدليل على دخول الرجل بالفتاة العذراء. فالجماع ينقل ساحة الحرب إلى فراش الزوجية: إنه الاختطاف والغزو والامتلاك.

ملذات على الهامش...

– وتبقى النساء في عالمهن المليء بأحلام الحب...

– نعم وستأتي التغييرات من عندهن. لقد أدى تطور الثقافة المدنية إلى قفزة نوعية: خرجت الطبقة البورجوازية من البلدات انطلاقاً من القرنين الثالث عشر والرابع عشر. نشأت أنواع أخرى من اللقاءات بين النساء والرجال عند أرباب الحرف، والتجار. إنهم يعملون جنباً إلى جنب في عالم مختلط، تعددت فيه وسائط النقل، وكثرت السفريات. قد تلتقي المرأة في النُزُل بقادم جديد يستحوذ على إعجابها، لا بأس أن يحصل لقاء بينهما، فهو لن يعود إلى هذا المكان. في عصر النهضة، أصبح المجتمع أكثر ثراءً، وأكثر فسقاً، لم يعد أحد يعير جل اهتمامه لأقوال الكنيسة. إن تأخير سن الزواج عند القرويين الذي كان الهدف منه الحد من النسل، أدى إلى فتح "مواسم الحب" أمام الشبان قبل الإقدام على الخطوة الجادة. أصبح الشبان يتساهلون في أمر الجنس الذي يعملون على تأخيره مع علمهم بوجوده؛ سمحت الكنيسة بذلك ما دام لا يؤدي الأمر إلى إنجاب الأطفال. أما الخطيبان فإنهما يستطيعان الالتقاء (في منطقة البواتو Poitou غرب فرنسا، شاع الكلام عن الاختلاط) والسماح لبعضهما بالألفة ولكن من دون الدخول. يتوقفون عند الباب ولا يتخطونه. تنشأ علاقات جنسية وتتطور، ويتم اكتشاف أجزاء الجسد، أما قبلة الفم فإنها تأتي بدافع غريزي وتتم كأحد أشكال الدخول. ومن خلال الدلال، والقبلات المختلسة، والمداعبات، تستعيد النساء اعتزازهن بأنفسهن. فيبدأن بالطلبات والتمادي ويعشن المتعة ربما أكثر من عشيقهن. لقد أصبحن محبوبات.

– خلاصة القول! أما السيدات النبيلات، فمن شأنهن أن يبحثن عن التهذيب المتكلّف، بل لنقل التعقيد. أليس هذا تفسيراً لـ "مخطط تعقب الحبيب لحبيبته؟"

– شاركت مادلين دو سكوديري Mlle de Scudéry مؤلفة "مخطط تعقب الحبيب لحبيبته" وروايات عديدة غيرها في انبثاق لأشكال الغرام الأكثر رقة في

أوائل القرن السابع عشر. لقد هيأت قانوناً غاية في التشدد. نراعي المسافات ثم نقترب بهدوء. ونراعي طقوساً معينة – إشارات، خطوات أثناء الرقص، رسائل... وعند المصارحة تلعب الكلمات دوراً أكبر. وكلما طال الموضوع كانت المتعة أكبر.

– هل كانت تستوحي من الحب الرفيع؟

– من الفروسية، من الحب الصوفي الروحاني، من العادات الإسبانية، بل ربما من العادات العربية أيضاً. نستطيع أن نفترض تأثير رياح الشرق التي جلبتها الحملات الصليبية عند عودتها من بلاد الشرق مع كون النساء الشرقيات محافظات – كطقوس الغرام التي يسيطر عليها التهذيب والنقاء، كالأصبوحة [1]. تم صياغة "مخطط تعقب الحبيب لحبيبته" على شكل لعبة الإوزة، يتم تجاوز المراحل الواحدة تلو الأخرى وعلى المرأة ألا تستسلم وأن تطيل فترة الانتظار. فإذا سقطت يجب إبقاء الأمر طي الكتمان. فهذه هزيمة بالنسبة لها.

المطالبة بالحب

– لا يُظهر الرجال الاهتمام والهيام والرقة وكل العواطف الجياشة إلّا في البدايات وقبل إشباع الرغبة، هذه العواطف التي تلهب المرأة وتجعلها ترتعش. فلكي تعيش هذه الأحاسيس الرائعة عليها أن تَثْبت. فهي عندما تضعف يكون الأمر قد انتهى.

– أصبتِ. يكون الأمر قد تمّ و"أصبحتْ مُلكاً له". وبالمقابل، فإن كل هذه المناورات التي يلجأ إليها الرجل ما هي إلّا ليحقق هجومه الأخير، الذي يكمن في امتلاك المرأة كما يسيطر على القلعة. تذكّرنا الآنسة دو سكوديري أن ليس على المرأة أن تتفاخر بأنه تم السيطرة عليها. ففي الأوساط المتميزة، كالبلاط الملكي والصالونات، وأيضاً في الأوساط البورجوازية، كانت المرأة تتمتع بتأثيرها الكبير. وشعرت النساء بالغبطة من أثر طريقة الحياة التي يعشنها. تحلم المرأة المتزوجة والتعيسة بزواجها بعشيق يغازلها بحنان، وتنتظر الفتاة من خطيبها أن يجعل قلبها يختلج بين أضلاعها... تميّز القرن السابع عشر بالعشق بأشكاله المتنوعة، اتسم بعضها بالفسق، في حين سيطرت الأخلاق واللياقة على بعضها الآخر. جاءت

(1) وهي أغنية تغنى عند الصباح تحت نافذة النائم - المترجم.

الروايات والمذكرات المختلفة شاهداً على أشكال العشق المختلفة. وفي عادات البلاط الملكي المتفلتة، يُمارَس اللواط بين الرجال وبين ثنائيي الجنس (الخنثى) - يجب الاطلاع على المذكرات التي ألّفها الفرنسي سان سيمون Saint-Simon ورسائل الأميرة بالاتين Princesse Palatine، الأديبان اللذان ورد ذكرهما في معرض حديثنا عن الأزياء. على كل حال، يبقى هناك اختلاف حقيقي بين الرجل والمرأة. يجب على زوجة الملك بشكل خاص أن تبقى مخلصة. كان أولاد لويس الرابع عشر غير الشرعيين على درجة من الشهرة في البلاط وكانوا أثرياء للغاية ومتزوجين، لكن الكل يشهد لزوجته ماري تيريز أنها لم تعرف أي عشيق. وعند موتها، تزوج الملك السيدة مانتنون Mme de Maintenon التي أخلص لها. لكن يبدو أن هذا الزواج كان أسير الشهوة والحب الجنسي.

- ها قد بدأنا نشاهد حالات زواج مبنية على الحب... هل نجد ذلك في الأوساط الشعبية؟

- يشترط بالزواج السعيد نقاء الفتاة. يروي لنا ماريفو Marivaux قصة فتاة من الطبقة النبيلة. حصلت على تربية متواضعة وكان عليها أن تقاوم للحفاظ على نقائها في المدينة، هذا المكان المليء بالفساد. استطاعت أن تصمد أمام كل الإغراءات التي تعرّضت لها رغم جمالها الأخّاذ، وهذا سر سعادتها. وفي الأرياف أيضاً، الكل يتوقع أن تفرض الفتاة احترامها، لكن إذا وجدت نفسها حاملاً فعلى الشاب أن "يصلح" غلطته. كان المجتمع يجبر الشاب على الارتباط بها محافظة على سمعتها. وإلّا سيهجرها الجميع مدعين أنها "استحقت ما جرى لها".

- وكيف جرت الأمور في عهد الثورة، هل كان يُبنى الزواج على الحب؟

- يبدو أن هذه الحقبة اتسمت بالحرية، على الأقل في الأوساط الثرية. تميزت المراسلات التي تمّت بين نابليون بونابرت وجوزيفين بالإثارة الجنسية، حيث ظهرت الشهوة بشكل صريح. فقدت الكنيسة في تلك الحقبة جزءًا لا بأس به من سلطتها: تم الاعتراف بالزواج المدني، وتم تبنّي حق الطلاق، وفي 80% من الحالات كانت المرأة هي التي تطالب بالانفصال. لكن سرعان ما انتهت هذه الزوبعة. من جهة لأن الثورة أنشأت مثالاً أعلى للزواج المنظّم من الناحية الجنسية في ظل الجمهورية من جهة، ومن جهة أخرى أقدم بونابرت الذي أصبح نابليون الأول على إعادة فرض

النظام. ففي المعاهدة البابوية، استعادت الكنيسة دورها في وقائع الزواج، ولم يعد الطلاق بالتراضي بين الطرفين ممكناً، وعند اعتلاء السلالة الملكية العرش من جديد أُعلن تحريم الطلاق، وتم استبداله بانفصال الجسدين - وتلك عادة قديمة - تُمكِّن الزوجين من العيش منفصلين ولكن من دون طلاق. فهما يبقيان متزوجين ولا يلجآن إلى تقاسم الأملاك ولا يتركان الكنيسة ويستطيعان المشاركة في المناولة. من الناحية النظرية عليهما الحفاظ على العفة وهذا أمر يطال المرأة أكثر من الرجل. في القرن التاسع عشر بما أن انفصال الجسدين أصبح أمراً شرعياً توجّب تقديم ملفٍ للمحكمة مزوَّد بالقرائن. غالباً ما تشتكي النساء من سوء المعاملة، وهذا صحيح، وأحياناً تكون هذه ذريعة للتخلّص من زواج بات غير محتمل. وتبقى جورج ساند وزوجها كازيمير دودوفان أشهر مثال على هذا النوع من الانفصال. وكي نحصل على الطلاق الحقيقي كان علينا انتظار حلول عام 1884 وقانون ناكيه Naquet الذي نَعَته المشنعون به المقاومون للساميين بأنه "قانون يهودي". مع ذلك لم يصل ناكيه إلى نهاية المطاف، إذ إن موافقة الطرفين ليست مقبولة في كل الأحيان. وحتى عهد قريب لم يكن أمام النساء من حلول سوى محاولة التأقلم مع أزواجهن!

ملاك الأسرة

- أليس القرن التاسع عشر الذي تميّز بالحب الرومانسي هو الزمان الذي وافق المجتمع فيه على المصالحة بين الزواج والعاطفة؟

- تمّ التمهيد للأمر في مطلع القرن الثامن عشر مع الإبقاء على مسؤوليات وواجبات كل من الزوجين في الأعماق. لا بد وأن الحب الرومانسي وجد جذوره في الفردية الإنكليزية، حيث شغلت حياة الفرد حيزاً هاماً في المدى الخاص به، بعيداً عن الأنظار. في هذا المكان نما عالم كامل من العواطف الجياشة، والألفة داخل العائلة إلى جانب الشهوة الشرعية للزوجين. ألّفت الأدبيات الإنكليزيات الشهيرات في القرن التاسع عشر روايات غرامية اختتمنها بزواج البطلين. وجد روسو (1)

(1) جان جاك روسو (1712-1778) فيلسوف وكاتب باللغة الفرنسية، يتيم الأم، تركه أبوه في العاشرة من عمره. كان عصامياً، عانى كثيراً من الوحدة، أمضى حياته باحثاً عن سر السعادة الطبيعية والتفاهم بين الرجال - المترجم.

Rousseau أن الحب في الزواج أمر لا مفر منه، لكن دور المرأة يكمن في التكامل مع الرجل وفي إشباع رغباته. في روايته التربوية "إميل" Émile أو "عن التربية" De l'Éducation تحدّث روسو عن سوفي، تلك الفتاة النقية، المتحفظة بل والمناسِبة لشاب يدعى إميل الذي كان يحتاج إلى رفيقة درب يستطيع أن يحبها، وزوجة صالحة تعتني بأبنائهما. وكذلك جولي Julie في كتابه "La Nouvelle Héloïse" – تلك الرواية التي قرأتها النساء بشغف مراتٍ ومرات – تظهر كبطلة إيجابية: زوجة ودودة، لطيفة، مطيعة، مدبرة منزل متميّزة، وأم رؤوم...

– ملاك الأسرة...

– نعم، اتضح أن هذا الدور ملزم للغاية. لقد أعاد القانون المدني في فرنسا دور العائلة الهام داخل المجتمع، تلك الخليّة الأساسية والمحاوِرة للدولة، فالدولة والعائلة هما من يقودان الفرد. لهذا السبب اكتسب الزواج أهمية بالغة واعتمد على سلطة الأب والزوج بينما تمتعت الزوجة بالقليل من الحقوق ووجدت نفسها قابعة في منزلها. فهي إن لم تعش الحب في منزلها بحثت عنه في أحلامها، في الحب الشاعري، الحب الحقيقي، ربما عاشته في الحقيقة ولكن بعيداً عن الأنظار. هنا قد تشعر أنها محبوبة ومرغوبة ولا يقتصر دورها على تلبية الواجب الزوجي.

– هل ينطبق نمط هذه المعيشة البورجوازية – الذي يُبقي النساء حبيسات المنزل – على سائر الطبقات الاجتماعية الاخرى؟

– جاء القانون ملائماً في ظل العائلة الملتئمة[1] وخاصة في مضماري الأملاك والمواريث. حتى في الأرياف، حيث شاعت المساكنة بين الأجيال، تمّ توثيق العرى في العلاقات الأسرية مع الزوجة والأولاد الشرعيين. أما الفتيات اللاتي هاجرن إلى المدينة، وعملن كخادمات فيها، فقد قمن بتأسيس مشاريعهن الخاصة بشأن العيش المشترك مع رجل. قد يتعرّضن لأسوأ الأحداث لكن ترفض غالبيتهن الرجوع إلى الوراء، ليتزوجن بابن الجيران ويصبحن خادمات لدى الزوج. إنهنّ يرغبن بإقامة علاقة رقيقة وخاصّة، لذا يذهبن إلى الحفلات الراقصة للتعارف. وفي

(1) أو العائلة النووية؛ تعيش هذه العائلة في بيت واحد، يضم بين جدرانه الأب والأم والأولاد الذين لم يتزوجوا - المترجم.

الأوساط الأكثر شعبية، تعيش الفتاة مع عشيقها قبل الزواج. لقد أثنت الثورة على إقامة علاقة غير شرعية بين الرجل والمرأة، ثم في القرن التاسع عشر انتشر ما يعرف بالمساكنة، وهو تعبير تحقيري للكلمة. شجع عصر الإصلاح لأسباب أخلاقية، ومن بعده النظام الجمهوري لأسباب أمنية، على الزواج وعلى توثيق عرى الأسرة.

– هل انحصرت العلاقات غير الشرعية في الوسط الفني، عند من نطلق عليهم اسم "البوهيميين"؟

– الفنانون والمثقفون والمرتزقة الفوضويون... أما الطلاب، فيعيشون "بالمساكنة" مع الفتيات المنحلّات أخلاقياً اللاتي ينحدرن من أوساط اجتماعية متواضعة وهنّ متيقنات أنه لن يجمعهن أي رابط زوجي بهؤلاء الشبان. وما إن يحين الوقت حتى يلتزم الشاب برغبة أهله، بينما تتزوج المرأة من عاملٍ بسيطٍ، عندئذٍ نقول إنها "عاشت حلمها"... حتى في العلاقات غير الشرعية يبقى التفاوت عميقاً بين الرجال والنساء. غالباً ما تستسلم الفتاة في الأوساط الفنية للغزل، وتمضي بها السنون لتجد نفسها وقد أصبحت عجوزاً وحيدة. إنه المصير نفسه الذي ينتظر النساء "النصف عصريات". لا تمارسن هذه النساء البغاء بكل معنى الكلمة بل يكتفين ببعض العشاق ولا يأخذن المال مقابل كل عملية "مضاجعة" لكنهن يعشن على إنفاق العشيق عليهن ويتقاضين مبلغاً إضافياً لقاء ممارسة الجنس. تنتمي هؤلاء النسوة إلى عالم المشبوهات أو المومسات.

– كان يجدر بالفتاة، مهما كان الوسط الذي تنتمي إليه، أن تحاول ترتيب أمورها طالما كانت جميلة وشابة... هل كانت عشيقات الفئة الفوضوية اللاتي يمارسن العلاقات المحرمة تحظى باحترام من حولها؟

– لم تكن كلمة السر نابعة من الرب ولا من السيد، فهي إذاً لم تصدر عن الكنيسة أو عن الدولة! ولكننا نلاحظ أن الرجال في الأوساط التي تدّعي التطور والمساواة متقلبون مما يسبب الألم للنساء اللاتي يفضّلن الاستقرار في زواج طويل الأمد.

– يشكّل الزواج دوماً مرحلة لا بد منها...

– نعم، يجب الارتباط بالزواج للوصول إلى حالة "المرأة". عندما تبقى الأنثى بنتاً ولا تجد الزوج، فذلك يعني أنها ستبقى على هامش الحياة، من دون أن تحقق

قدرها. يجب على الفتيات أن يصبحن زوجات وأمهات، ومن أجل التوفيق بين هذه الضغوطات و متطلباتهنّ الشخصية، يبحثن عن زواج الحب.

الأمومة تبلور المرأة

– لا يكفي للأنثى أن تتزوج فقط حتى يُعترف بها كامرأة، بل يجب أن تصبح أمّاً... هل نجد حقبة معينة في التاريخ لم تكن الأمومة فيها هي السبب الوحيد لوجود المرأة؟

– لا أعتقد ذلك. لقد لعبت الأمومة على الدوام وفي كل الأزمنة دوراً هاماً في تحديد هوية المرأة: مكانتها، وظيفتها، مصيرها... طالما لم يكن هناك أي تحكم في خصوبتها، كانت المرأة إما في حالة الحمل أو الإرضاع. هذا المصير الذي يخضعن له هو نفسه الذي يشكّل قوتهن، والرجال يحترمون هذه القوة ويخشونها، فهم يدركون جيداً أن أحشاء المرأة هي المكان الحقيقي للإنجاب وأن المرأة هي الكائن الوحيد الذي يستطيع أن ينجب لهم الأولاد الذكور الذين يرغبون فيهم. كان الهدف الوحيد من الزواج عند الرومان ينحصر في الإنجاب – وإذا حصل وساد الحب بين الزوجين فذلك أمر إضافي قد طرأ، ومفاجأة سعيدة في قصة فردية. وإذا خضنا في موضوع المجتمع الروماني، كان يجب على المرأة أن تنجب ثلاثة أطفال أحياء لاستمرار النسل، حيث كان كثير من الأطفال يقضون في سن مبكرة. فما أن تؤدي دورها هذا حتى تصبح امرأة مهيبة وتلقى الاحترام داخل المنزل، وقد تستغني عن العلاقات الجنسية، فيلجأ الزوج إلى اتخاذ الخليلات، وهذا أمر متفق عليه. إن تمنّع الزوجة عن ممارسة العلاقات الجنسية مع زوجها هو وسيلة للحد من الإنجاب. على كل حال لم تكن المرأة تلقى الاحترام ما لم تكن أماً لثلاثة أطفال.

– وإذا تأخر الحمل الأول، تقع الزوجة الشابة فريسة للقلق...

– نعم لقد شكّل العقم على الدوام مصدر تعاسة ولعنة على المرأة، ولا تدخل تحت راية المرأة من لا تنجب الأطفال وكان يحق للرجل أن يطلقها. أما في العائلات الملكية، حيث كان الملك يرتبط بالملكة من أجل إنجاب الأطفال فقط، فالنتائج كانت مخيفة للغاية. فكري في نابليون وجوزفين، كان هائماً بها ولكن أمور الدولة احتلت المكانة الأولى بالنسبة له وكان يحتاج إلى النسل، فضحى بزوجته.

– ألم يخطر في بال أحد أن يكون الرجل هو السبب في عدم الإنجاب؟

– إن لم يكن الرجل عاجزاً تقع مسؤولية عدم الإنجاب على عاتق المرأة وحدها. وحتى يومنا هذا، عندما يستنفد الطبيب كافة الوسائل مع الزوجة، يقترح إخضاع الزوج للفحوصات. يبقى مجرد الشك بمشكلة ما لدى الزوج أمراً دقيقاً للغاية ومخلاً بالياقة! في المقابل، كان عجز الزوج على مر التاريخ سبباً غير قابل للنقاش في العقم لدى الزوجين. فكان الخجل وكانت الكارثة. عاد هذا الموضوع ليهيمن على ثقافتنا. فكري في فيلم "أنطونيو الجميل" Le bel Antonio للمخرج مورو بولونيني Mauro Bolognini الذي عرض عام 1960. يحكي هذا الفيلم قصة شاب يدعى أنطونيو (الذي لعب دوره مارسيلو ماسترويانّي) يعيش في صقلية. أراد والداه اللذان بلغا من العمر عتياً أن يتزوج، ولكنه آثر التحفظ على الموضوع. اعتقدوا لوهلة أنه شاذ جنسياً، ولكن كلا، إنه عاجز جنسياً، وتلك كانت مأساته كما كانت مأساة لعائلته والمدينة – إذ سرعان ما تنتشر الشائعات. وبدأ الكل يتساءل: ترى هل سيضع حداً لحياته. عندما يكون الرجل عاجزاً في مجتمع يعطي الرجل الحق في السيطرة على المرأة، فيحصل على امتيازات السيد كالمجتمع الإيطالي والذي يندرج بشكل منطقي في إطار ثقافات البحر الأبيض المتوسط القديمة، فهذا من أسوأ الأمور. على غرار الأنثى التي لا تنجب فهي لا تدخل في تصنيف النساء، وكذلك الرجل العقيم لا يدخل في تصنيف الرجال.

– يفضّل إذاً والحالة هذه تحميل الزوجة مسؤولية العقم! وماذا بخصوص الزوجة التي لا تنجب سوى الإناث، ألا تتعرض هي أيضاً للمنلة؟

– يغضب الزوج على الأرجح ولكنها تنجو مع ذلك من إثم العقم. لن يطلقها زوجها، وقد تلقى العطف ولكنها ستتعرّض للوم من دون أدنى شك. إنها تتحمل خطيئة عدم إنجاب الذكور.

الجسد الأسير

– لقد شهد عصرنا الحديث فحوصات تخضع لها المرأة من أجل التأكّد من حملها، في أي فترة كانت الزوجة الشابة تكتشف أنها تحمل جنيناً في أحشائها؟

– يشكّل انقطاع دم الحيض دليلاً على حدوث الحمل. يبدو أن هذا كان معروفاً منذ زمن سحيق. يفرح الزوجان إذا كانا يرغبان في الطفل. وكما نعلم قد يكون هناك تأخير في دورة الطمث، فتخضع الزوجة للمراقبة، وتنتظر الشهر التالي لتتيقن... ولكن الأمر لا يبدو مشابهاً في كل البيئات. قد يشهد العصر الواحد عدة طرق لتصبح الأنثى امرأة وتكرّس نفسها لحملها. هناك أيضاً التباين الاجتماعي بين المدينة والريف الذي يتعدّى ذلك الموجود بين الأغنياء والفقراء. فمعلومات أهل المدينة أوسع من معلومات أهل الريف الذين يكادون يجهلون الكثير من أسرار جسدهم. يروي لنا التاريخ أو الأدب أمثلة عديدة لفتيات خضعن لعملية الولادة من دون معرفة ما الذي يجري لهن. لا يمكن تقدير مستوى الافتقار لمثل هذه المعلومات الذي كان سائداً – ولا يزال إلى يومنا هذا في بعض الأحيان– عند بعض الطبقات الاجتماعية.

– هل تعيش الزوجات في المدينة فترة حملهن بطريقة مختلفة عن اللاتي في الريف عندما يدركن أنهن يحملن جنيناً في أحشائهن؟

– تختلف ردود الأفعال حيال عمل المرأة. يجب أن تمتنع المرأة في الطبقة الأرستقراطية أو حتى في الطبقة البورجوازية عن العمل، وإلا فستجلب العار للعائلة. لا مشكلة إذاً أن تقضي فترة حملها وسط عائلتها التي تعتني بها وتلاطفها... بينما تعمل القروية حتى موعد الوضع، وتسجل رقماً قياسياً في رفضها الاستلقاء في فراشها، بل وتقوم بالأعباء المنزلية، والأعمال في المزرعة والولادات. ليس هناك أفضل من المرأة التي تتمتع ببنية قوية! في حين نجد التضارب في العالم الصناعي بين أمهات المستقبل والعمل. يتراءى المعمل والآلات للمرأة الحامل كوسط عنيف بل ويغلب عليه طابع الخشونة. أما الفتيات الشابات فإنهن يذهبن إلى المعمل طالما أنهن لم يتزوجن بعد أو حتى ولادة طفلهن الأول. هكذا نشأت الحاجة إلى قوانين حماية الأمومة، والإجازات التي تسبق الولادة وتلك التي تليها.

– بأي لباس كانت المرأة الحامل تظهر على اختلاف العصور؟ هل كانت تُظهِر حملها من دون أدنى حرج أم أنها كانت تحاول إخفاءه؟

– يبدو أن جسم المرأة الحامل لا يثير لها المتاعب. بدت ساسكيا Saskia في اللوحة الفنية التي رسمها زوجها الفنان رامبراندت ضخمة، بينما ظهر هو في اللوحة

واضعاً يده على بطنها. تلك كانت رؤية خاصة بالكتاب المقدس المستوحى من الديانة اليهودية حيث تكتسب الخصوبةُ، وبالتالي جسدُ المرأة الحامل، قيمةً كبيرة. وينتقل هذا إلى المسيحية ولكن مع التخفيف من الزينة، في حين عمدت المرأة الحامل في البلاط الملكي إلى توسيع ثوبها الذي يغطي الصدر، والتنورة التي تلبسها تحت الفستان. لم يكن هناك الكثير من المحظورات، كان الأمر يجري بشكل طبيعي، كأن يقال "السيدة فلان حامل"...

ستضعين مولودك وسط الآلام

– ثم تأتي مرحلة الولادة التي لا بد منها. ترى هل كانت على الدوام مصدراً للقلق بل وللرعب بالنسبة للمرأة؟ إنها تعاني أشد الآلام، وتجازف بحياتها...

– إنه عمل خطير للغاية، والكل على دراية بذلك. ارتفعت نسبة وفيات الأمهات لفترة طويلة وهذا ما يفسر الفارق في الأمل بالحياة بين الرجال والنساء. وكان هناك النزيف والالتهابات... كان الجميع يقف مكتوف الأيدي أمام جنين وُلِدَ مشوهاً أو مريضاً. بقي هذا الأمر طي الكتمان لفترة طويلة، فكانت النساء تعتني بالنساء، هذا شأنهنّ. وشيئاً فشيئاً بدأ الأطباء يتدخلون في محاولة منهم لتطبيق المنطق وتثبيت أفضل الطرق وإعداد القابلات. لم تمارَس الولادات القيصرية إلا في بداية القرن الخامس عشر، وكان عملاً جراحياً بكل معنى الكلمة، طبّقه أطباء الجراحة على نطاق واسع في إيطاليا على نساء فقيرات، بهدف التمرين، إذ إن التدخل الجراحي كان يسبب موت الأم، فكان همهم الأوحد هو إنقاذ حياة الجنين.

– وما هو رأي الكنيسة حول هذا الموضوع؟

– لم تعطِ الكنيسة تعليمات صارمة بهذا الخصوص ولكنها كانت تميل إلى إنقاذ حياة الجنين. ونشأ صراع حقيقي فيما بين الأطباء. وفيما بعد، اتفق الأطباء والأزواج على إنقاذ الأم على اعتبار أن حياتها أهم من حياة الجنين الذي سيولد. وفي عصر الأنوار بات الكل يسعى لإنقاذ حياة الأم.

– ألم تكن الولادات التي يجريها الرجال مربكةً للنساء اللاتي كنّ يعشن في عالم تحفه الأسرار ويسوده الخجل؟

– كان الأمر حراماً وكان يثير تحفظ النساء أنفسهن. من هنا نشأ العداء بين الأطباء والقابلات. لقد اعتمدت هذه الأخيرات على عفة النساء عبر التاريخ. ثم ما لبثت فكرة الطبيب الذي يملك زمام العلم، وبالتالي الأمان، أن انتشرت شيئاً فشيئاً لدى الأوساط الأكثر ثراءً. ولا يزال موقف الأطباء حتى يومنا هذا مشوباً بالسلطة الأبوية تجاه القابلات اللاتي يحاولن إثبات علمهن.

– وماذا عن آلام الوضع، هل كان الأطباء يهتمون بها؟

– كلا، أبداً! لم يهتم علم الطب بالألم بصورة عامة كما لم يهتم بآلام الوضع بصورة خاصة. كان يقال للأم: "هذا أمر طبيعي اختاره الله: أن تضعين طفلك وسط الآلام". في حين كانت النساء تتبادل النصائح والأسرار لتخفيف الألم. ونشأت ثقافة نسائية كاملة حول آلام الوضع، الذي يشكل منبع الرعب إلى جانب كونه مصدر فخر. "لقد تألمتُ كثيراً ولكن طفلي سيكون الأجمل." يجب أن تعيش الأم المحنة، إذ إن الأخلاق المسيحية لا تمانع من الشعور بالألم. وبعد مرور عدة سنوات ستقول الأم لابنها "لقد عانيت الكثير". ثم شهد التاريخ عصر الولادة من دون ألم – وهذه إحدى طرق التعبير – على يد أناس يدّعون أنهم من اليسار، وهذا ما أثار نقاشات سياسية حقيقية. على كل حال، عندما تكون النساء في حالة وضع يشعرن وكأنهن يدخلن إلى النادي. تتبادل هؤلاء النسوة قصص ولاداتهن، وهذا تقليد قديم: "بالنسبة لطفلي الأول، بالنسبة لطفلي الثاني، أما طفلي الثالث...." يُعدن سرد الأحداث، والدم الذي فقدنه. لقد كانت معركة حقيقية.

أخوات في الرضاعة

– يحيا المخدّر! بانتظار هذه اللحظات المباركة، تعتني النساء اللاتي يُحطن بالأم الشابة التي خرجت لتوها من عملية الوضع بسلام ولم تفقد حياتها. كيف كانت تسمى فترة ما بعد النفاس وعودة الحيض الأول بعد الولادة؟

– فترة ما بعد النفاس هي عبارة عن احتفال ديني، تعود من خلالها المرأة التي وضعت جنينها بعد عدة أسابيع إلى الكنيسة لكي تُطهَّر، حيث تحصل على التبريكات لتعود إلى صف المصلّين كما تعود إلى ممارسة حياتها الزوجية. وعند عودة دورة

الطمث الشهرية، تستعيد المرأة خصوبتها من جديد، ولكنها في معظم الأحيان لا تهتم لها، فتقضي جل وقتها في عملية الإرضاع، علماً بأن فرص الخصوبة عند المرأة التي ترضع طفلها تصبح نادرة.

– رغم ذلك لم تكن عملية الإرضاع أمراً مناسباً للمرأة التي تنحدر من وسط ثري... ألم تكن تفضّل استخدام المرضعات؟

– نعم، كان ذلك حال النساء الثريات، كما كان حال النساء المنغمسات في العمل، مثل زوجات أصحاب الحرف، والتجّار الذين يعملون داخل الورشات أو المحال التجارية ولم يكن لديهن الوقت الكافي للاهتمام بأطفالهن. فكن يسلمن أطفالهن للمرضعات. ثم بادرت الأسر الأكثر ثراءً إلى توظيف مربيات مقيمات في المنزل، بدأت هذه الظاهرة في مطلع القرن الثامن عشر – إذ إن الأمر كان باهظ التكاليف – وكانت تُعَد من الخدم. وإذا تعذّر الأمر، كانت المربية تأخذ الطفل إلى الريف ويفضل ألا يكون المكان بعيداً. كانت تأخذه إلى مكان قريب من باريس، إلى النورماندي Normandie مثلاً أو البورغون la Bourgogne أو المورفان le Morvan...

– عندئذٍ يصبح الأطفال الذين تعتني بهم المرضعة الواحدة إخوة وأخوات بالرضاعة.

– نعم، وكان ينتج عن ذلك صلات قوية جداً. فإذا كان مصدر الحليب من نفس المرأة المرضعة يصبح جميع الأطفال إخوة وأخوات تقريباً. مما أدى إلى المحظور: إذ لا يجوز إقامة علاقات جنسية فيما بينهم.

– ماذا بشأن الروايات المروعة التي تحكي قصة موت أعداد كبيرة من الأطفال تم تسليمهم للمربيات، كان بعضهم يموت أثناء رحلة النقل؟

– كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للعائلات الثرية التي كانت تملك المال الكافي. في حين كان يتم إرسال الأيتام واللقطاء إلى الريف للعناية بهم. لكن نسبة الوفيات كانت مرتفعة بعض الشيء، إذ قُدّر العدد في القرن التاسع عشر بطفل مقابل طفلين، كانوا يموتون إما في الطريق وإما بسبب كثرة عدد الأطفال الذين يعهد بهم إلى مربية واحدة، فتعجز عن إرضاعهم بسبب نقص في حليبها. لم يكن هذا الموضوع مثاراً للجدل على اعتبار المصير الذي ينتظر هؤلاء الصغار الأيتام، وأطفال الزنا واللقطاء...

– يُعتقد أيضاً أن الأم كانت تعيش في ظروف بائسة...

– نعم الأم مذنبة، والطفل هو ابن زنا، وهؤلاء لا يستحقون الحياة في الديانة المسيحية. إنه طفل الخطيئة، يجب إخفاؤه والتخلي عنه بل ربما إضاعته. تبادر الكنيسة إلى تعميده على غرار باقي الأطفال، لكن لا وجود شرعي له على صعيد المجتمع. ولا يتمتّع بأي حقوق. لا يملك اسماً ولا أموالاً. حتى في البلاط الملكي، لا يتخلصون من الأطفال الذين يلدون من الزنا ولكن هؤلاء لا يحق لهم اعتلاء العرش. يعطيهم الملك المهر والألقاب والعقارات ولكنه ليس ملزماً بذلك.

الأم "الصالحة"

– إلى أي حقبة زمنية يعود الحب الأمومي؟ هل يعود إلى عمق التاريخ أو أنه وليد تطور البناء الاجتماعي؟

– من السهل أن نقول إن المجتمع هو الذي صنع الحب الأمومي. لدينا دلائل تعود إلى ما قبل سيادة تحديد النسل والطفل "الملك"، كلها تشير إلى رابط الحب الذي يجمع الأم بأطفالها. تجول في خاطري هنا نصوصٌ انتشرت في العصور المسيحية القديمة، تصور لنا امرأة حُكم عليها بالتعذيب حتى الموت بينما انحصر همها في الشخص الذي سيتولى شؤون أطفالها بعد موتها. هذا المثال القديم الذي يبرهن على الحب الحقيقي وعلى الاهتمام بالآخر، ليس الوحيد في التاريخ، ها هي السيدة العذراء تجسد مثالاً رائعاً للحب الأمومي في الدين المسيحي. أبدت مدام دو سيفينييه Mme de Sévigné التي عاشت في القرن السابع عشر حباً متقداً تجاه ابنتها دام طيلة حياتها في حين كان إهمال نساء البلاط الملكي لأطفالهن أمراً شائعاً في تلك الحقبة. مع ذلك يجب أن نقر بأن المعايير المتعلقة بالحب الأمومي على صعيد المجتمع كانت محدودة نسبياً. فلم يكن أحدٌ ينتظر من الأم أن تراعي شؤون أطفالها وتعتني بهم.

– هل كان هذا منتشراً لدى كافة الأوساط؟

– كان يتم إبعاد الأم عن أطفالها في الأوساط الأرستقراطية والبورجوازية بإعطائهم إلى المربية في وقت مبكّر جداً. لم تكن تراهم إلّا من بعيد، ولم تكن

تتدخل في شؤون تربيتهم أو رعايتهم. بل كان يفضل أن تبقى بعيدة عن أطفالها الذين لا يُقحمون في المودة السائدة بين الأهل، الأم والأب. أما في البيئة الشعبية، فلا يغادر الأطفال حضن أمهاتهم. ففي الريف، يلزم الأطفال أمهم فتعتني بهم أثناء عملها. من الملاحظ أن تفاني الأمهات الأمثل خرج من الأوساط الشعبية الدنيا في حين كانت الأوساط الميسورة تشهد تبدلات عديدة.

– كيف تشكّل نموذج الأم الصالحة، تلك التي نذرت نفسها لأطفالها وكرست حياتها لهم؟

– يعود ذلك إلى عهد الأنوار، وبشكل خاص إلى الحقبة التي عاش فيها روسو، ولكنه ليس الوحيد. فمنذ اللحظة التي يتم فيها إدراك وجود الجنين يأخذ دور الأم أهمية أكبر. تشكّلتْ فيما بعد رؤية فلسفية واجتماعية حقيقية للأم "الصالحة"، تلك التي تعتني بغذاء أطفالها وصحة أجسادهم كما تعتني بتربيتهم وتفكر بمشاريع لمستقبلهم. تتبنى الأم شخصية ابنها المستقبلية. لم تمنح الثورة الفرنسية حق المواطنة للنساء لكنها اعترفت بهنّ كمواطنات في المجتمع لكونهن أمهات ويتولين تربية مواطني المستقبل. كثرت المؤلفات الأدبية في تلك الحقبة وتناولت موضوع الأم "الصالحة"، ودُوِنت مقالات عديدة تفسر سلوك الأم الأمثل، وما هي المواضيع التي عليها الامتناع عن الخوض فيها والأمور التي عليها الإحجام عن فعلها. ظهر إلى الوجود دور الأم من الناحيتين الاجتماعية والسياسية.

الأم المتفانية من أجل أطفالها

– إلى جانب فكرة الأم "الصالحة" لا بد من وجود فكرة الأم "الطالحة"، والمرأة الأنانية!

– بكل تأكيد... قدم لنا بالزاك Balzac[1] في روايته "مذكرات زوجين شابين" التي ألّفها عام 1841 مثالاً وهمياً جديراً بالاهتمام. أخرج لنا فيها في عهد الإصلاح

(1) هونوريه دو بالزاك (1799-1850) اديب فرنسي، مؤلّف المسرحية الهزلية البشرية، كتب العديد من الدراسات الفلسفية والدراسات التحليلية والقصص والمسرحيات- المترجم.

حكاية صديقتين من الدير، لم تنقطع أخبارهما عن بعضهما طيلة حياتهما بسبب تبادل المراسلات بينهما. أما إحداهما وكانت تدعى رينيه دو ليستوريل Renée de l'Estoril وتنحدر من الطبقة البورجوازية، فكانت تتمنى أن تصبح أماً، لقد أحبت أطفالها، حيث تقول "طفلي". تهتم رينيه بالرضعات، والألعاب، ولحظة استيقاظ الطفل. على عكس صديقتها، لويز دو شوليو Louise de Chaulieu التي تعيش على طريقة العصور الغابرة؛ المهم بالنسبة إليها هو أن تحِب وتُحَب. لا ترغب في الأطفال –"فهذا يسبب لها الإزعاج"، هذا ما كتبته إلى صديقتها. وبالفعل لم ترزق بالأطفال. وانتهت حياتها التي عاشتها في الوحدة والسقم والبرود العاطفي. فالنموذج الذي يجب أن يعاش حسب رأي بالزاك والأخلاق السائدة في عصره، هي رينيه، الأم الصالحة التي لا تجري وراء المتعة بل تجد سعادتها من خلال تفانيها في خدمة أطفالها.

– قيمة الطفل في تحسّنٍ مستمر...

– بدأ ذلك انطلاقاً من القرن الثامن عشر. وبشكل موازٍ، بدأت العناية بالطفل تشغل حيزاً حقيقياً في حقل العلوم. لاقت الأمومة والطفولة الأولى اهتماماً طبياً وشغلت الأم دور الوسيط بين الطبيب والطفل، حيث أصبحت الناطق باسم الطفل. وأخذت تتلقى النصائح والأوامر التي عليها مراعاتها والالتزام بها. استحوذت هذه الفكرة على العقول وبلغت أوجها في فرنسا في عام 1900 حيث كانت معدلات الوفيات بين الأطفال مرتفعة جداً وخشيت الأمّة تراجعاً في عدد المواليد. ولعبت الأمهات دورهن إلى جانب الأطباء في ما يسمى بحملة لإنقاذ الأطفال. كان عليهن العناية بنظافة الأطفال والحرص على إرضاعهم. ومنذ ذلك الحين وُجدت المستوصفات وقطرات الحليب التي نصح بها العالِم باستور Pasteur[1]. نُصحت الأم في هذه المرحلة أن ترضع وليدها أطول مدة ممكنة، ثم تعلمت الأم كيفية تعقيم الرضّاعة. وبدأ الحديث عن الفيتامينات. وهكذا ألقيت مسؤولية ثقيلة على عاتق الأم، فالطفل هو في النهاية ملك للأمّة.

(1) لويس باستور (1822-1895): عالم كيمياء وعالم أحيائي فرنسي، أجرى أبحاثاً على طريقة تثبيت الألوان على الأجسام الصلبة، ثم تحول إلى دراسة التخمر، جاءت شهرته من اللقاح ضد مرض الجمرة وضد الكَلَب - المترجم.

– هذه الأعباء المتعلقة بالنظافة العامة للطفل، والتي من دون شك تعود عليه بالنفع، تزيد من أعباء النساء المنزلية الملقاة على كاهلهن.

– الصحة، النظافة، هذا من اختصاصهن. إلى جانب الغسيل بشكل خاص، الذي يتعلّق بعالمهن: الماء، والصابون، والكوي، والحياكة... تظهر النساء في اللوحات الفنية جالسة إلى حوض الغسيل أو ذاهبة لإحضار الماء. الغسيل والعناية بنظافة المنزل، وإعداد الطعام، والاهتمام بالأطفال، كل هذا يدخل في اختصاص المرأة. لقد تم الفصل بين واجبات الرجل والمرأة بشكل دقيق، وأسندت الأعمال المنزلية إلى المرأة، باستثناء الحقبة التي سبقت التصنيع، حيث كانت العائلة بأكملها تعمل حول النَوْل للنسيج. كان الأب هو المسؤول الأول عن النَوْل، وفي حال كان على المرأة إكمال بعض الأعمال كان الأب يهتم بإعداد الطعام ويؤدي بعض الأعباء المنزلية. هذا كان تقريباً الشكل الوحيد لتقاسم الأعباء.

– لا يمكن اعتبار الرجال غرباء عن أمور المطبخ، لذا لا بأس من إخراج المطبخ من السخرة اليومية ليتخذ طابعاً احتفالياً، قيّماً، أكثر نبلاً...

– إن لعالم الغذاء علاقة بالجنس. اللحم والخمر هما من اختصاص الرجال، بينما تهتم النساء بالخضار والحليب. تتخذ عملية طهي اللحم طابعاً ذكورياً، وكذلك كل ما يتعلّق بالخنزير يدخل في اختصاص الرجال، كقتل الخنزير، وتصنيع الفصيد. والمرأة الحائض يجب ألا تقترب منه لئلّا يفسد. والأمر مماثل في أيام الحصاد. ما أن يتعلّق الموضوع بأمر نبيل وذكوري حتى تُستبعد منه المرأة لعدم طهرها.

الأسرار المهلِكة

– بعد زواجها، الذي يبعث في داخلها بعض السعادة، وإنجابها لطفلها الأول، لا تلبث الزوجة الشابة أن تجد نفسها أمام همّ آخر: فهي لا ترغب في أن تنجب طفلاً كل عام، ولا تريد أن تستنفد قواها بشكل كامل، بل تريد أن تعتني بغذاء عائلتها الآخذ عددها بالتزايد...

– كانت المرأة في القديم تنجب الكثير من الأطفال، وكانت تترصد بقلق عودة دم الحيض... فإذا كانت حالتها المادية معدمة، وكانت تشتكي من مرض ما، أو الأسوأ من ذلك كانت لا تزال عازبة تجد نفسها في موقف مأساوي. والحقيقة، أن

وسائل منع الحمل أو على الأقل محاولة منع الحمل كانت موجودة منذ الأزل. إننا لا نعرف الكثير عن مجريات الأمور قديماً. ولكن منذ القرون الأولى للدين المسيحي، أوضحت الكنيسة واستنكرت بشدة ما أسمته بـ "خطيئة أونان" Le péché d'Onan[1]، أي المجامعة غير المكتملة: حيث ينسحب الرجل بينما ينتشر المنيّ خارج الجسد. كان موقف الكنيسة واضحاً بهذا الشأن، واعتبرته خطيئة. وفي القرن العشرين أدانت ما يسمى "بالعناق المحتشم" وهي طريقة متّبعة لمنع قذف المنيّ، إذ إن الله، حسب أقوال الكنيسة، منح المنيّ للرجل من أجل الإنجاب، وتَعتبر الكنيسة أن الجماع نقطة ضعف لا يمكن الموافقة عليه إلّا في حالة الزواج بهدف الإنجاب. فإذا كان الرجل لا يرغب في الإنجاب فعليه اجتناب إقامة العلاقات الجنسية.

– هل كان المؤمنون يراعون هذا الرأي؟

– ظاهرياً أبداً. كانت فرنسا في مقدمة الدول الأوروبية التي طبقت منع الحمل بصورة مكثفة. حاول القرويون من جهتهم الحد من الولادات منعاً لتقسيم الأملاك. فلجؤوا منذ القرون الوسطى إلى تأخير سن الزواج. وبسبب الوفاة في سن مبكرة، قصرت سني الزواج مقارنة مع ما نشاهده اليوم، إذ لم نجد زوجين يعيشان سوية فترة تصل إلى خمسين عاماً. لذلك تصبح فترة الإخصاب مقتضبة. لكننا نلحظ فوارق كبيرة تبعاً للطبقات المختلفة. عند الطبقة الأرستقراطية، يرتبط الزوجان في سن مبكرة، ولكنهما لا يتشاركان في السرير، هذا ترتيب اجتماعي محض. وبالتالي نشهد وعلى مستوى واسع ما يسميه مرشدو القرن السابع عشر "الإدلاء بالأسرار المُهلكة" التي يُعاقَب عليها بشدة "حتى في أريافنا": وهي المجامعة غير المكتملة. الكل يعرف أن الكنيسة تدين مثل هذا الفعل، ولكن المرأة لا تهتم طالما أن الزوج الجيد هو من "يكون حريصاً". إنها تشعر بالفخر، وتطالب به كشرف لها قائلة: "إنه يحبني ويحافظ عليّ، ويعرف تماماً كيف يسيطر على نفسه". أما إذا لم يكن متيقظاً فإنها ستُظهر استياءها. إضافة إلى ذلك، فإن جاراتها على علم بالأمر: يا للمسكينة إنها دوماً حامل!

(1) أونان، شخصية من الكتاب المقدس، التوراة، وهو الولد الثاني ليهودا (Juda) ابن النبي يعقوب، الزمه قانون ليفيرا (قانون في الشريعة العبرية يفرض على الاخ ان يتزوج بامرأة أخيه المتوفى بلا وريث) ان ينجب طفلاً من أرملة أخيه، فرفض وتجنب إتمام عملية الدخول بها- المترجم.

– إن هي أرادت التنصّل عليها الإمساك عن مضاجعة زوجها...

– نعم، وهذه الطريقة غالباً ما يطبقها الأزواج الذين لا يريدون مزيداً من الأولاد. يمتنع الأزواج عن مجامعة زوجاتهم، ويذهبون إلى الخادمات اللاتي يعملن في المزرعة، وإلى النساء اللاتي يلتقين بهنّ في المدينة، ومما لا شك فيه أنهم يعاشرون العاهرات. بالنسبة للرجال هناك مسلكان جنسيان، أما النساء فليس لديهن سوى مسلك واحد. ومن هنا الخطاب الملائم الذي يتناول المرأة الباردة جنسياً والتي لا تشعر بحاجة إلى ممارسة الجماع. أما بالنسبة للرجال، فلا يمكنهم السيطرة على الانتصاب، والمني هو سائل ثمين يجري كالنهر... لذا يتوجب عمل شيء من أجلهم.

– من هنا برز دور العاهرات... اللاتي كنّ يستخدمن طرقاً مانعةً للحمل منذ زمن بعيد، ومع ذلك لا ينأين عن تأمين المتعة، أليس كذلك؟

– نعم، إنهن يمارسن الإنسحاب الأنثوي، والحقنة الشرجية، والحمام المهبلي. فالماخور هو مكان يستلزم الماء، وعرف عن العاهرات أنهن يعتنين بنظافتهن الشخصية أكثر من باقي النساء، فهن يغتسلن. شاع في إنكلترا استخدام الإسفنج والواقي من الأمراض الزهرية ومانع الحمل منذ القرن السابع عشر. مما لا شك فيه، أن تلك المومسات كن ينجبن الأطفال في بعض الأحيان، فلديهن الرغبة في أن يصبحن أمهات، ولكنهن في الوقت ذاته كنّ يفخرن بقدرتهنّ على السيطرة على عملية الحمل وكأنهن يفتخرن بميزة مهنية. ولكن الزوج لا يجرؤ على اقتراح ذلك على زوجته، فهذا يُعد من اختصاص العاهرة.

– وماذا عن طريقة الدورة الشهرية التي تقر بها الكنيسة أكثر من أية طريقة أخرى؟ فهي تقتضي فترات امتناع عن المجامعة.

– إنها طريقة حديثة جداً. إذ لم يتم اكتشاف آلية الإباضة إلّا في نهاية القرن الثامن عشر، ولم يتم التأكد من فعاليتها إلّا في منتصف القرن التاسع عشر، لكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار إلّا في القرن العشرين. لقد تطورت الأمور باتجاه تحقيق زواج الحب، مع الرغبة في التوفيق بين الجسد والروح معاً. تم رد الاعتبار للمتعة والجنس، ولم يرد أحد من الزوجين التمنّع عن شريكه. لقد واجه الأزواج الشبان الذين يدينون بالديانة المسيحية – وبخاصة أولئك الكاثوليك، فالبروتستانت كانوا أكثر

انفتاحاً في هذا المجال – واجهوا أسوأ أنواع الهموم. أُنشئت في فرنسا جمعية تدعى "جمعية الزواج المسيحي" وهي تشجّع الحب في الزواج وتحارب منع الحمل. شهد كلٌ من كنوس وأوجينو Knaus et Ogino، وهما طبيبان من الطائفة الكاثوليكية، شهدا الصعوبات التي واجهها الأزواج الشبان، فنظموا طريقة تسجيل الحرارة لمعرفة الخصوبة عند الزوجة. فإذا رغب الزوجان في إنجاب طفل كان عليهما ممارسة الجماع في تلك الفترة، وإلّا كان عليهما الاكتفاء بممارسة الجماع في بداية الدورة أو نهايتها. ولكن أثبتت هذه الطريقة فشلها في كثير من الأحيان، إلى درجة شاع القول لدى الطائفة الكاثوليكية عندما كان يولد طفل غير مرغوب فيه: "هذا طفل أوجينو"!

"إسقاط" الجنين

– كم من امرأة على مدى التاريخ أصيبت بخيبة الأمل لدى اكتشافها بأنها حامل على الرغم من تضافر الجهود "الدالة على المهارة" لمنع حدوث الحمل!

– نعم، شكّل ذلك بالنسبة لها مصدر تهديدٍ مستمر، مع كل ما يرافقه من آلام، كالبؤس، والجوع، والخجل، وابن الزنا... كانت المرأة التي تتعرض للاغتصاب تحاول أن تتدبر أمرها. إن عمليتا الإجهاض وجريمة قتل الطفل هما في الواقع عمليتان قديمتان قدم العالم، ولم يعترض أحد على تنفيذهما. ففي كل الثقافات وفي كل العصور وجدت طرق "لإسقاط" الجنين: هناك أشربة المحبة، والمشروبات، والتمارين الرياضية، وثقافة الإجهاض، التي تم الاحتفاظ بها في السر، وكانت بعض النساء مؤتمنات عليها، واشتهرن في القرون الوسطى بالشعوذة. كان الغموض يكتنفهن، إذ كنّ ملمات بعلوم الجسد، ويَعرفن أسرار النباتات، كما لديهن إلمام بأسرار الحياة والموت. ثم اندثرت المشعوذات شيئاً فشيئاً في القرن التاسع عشر ليحل مكانهن المجبّرون. كل أولئك الذين يدّعون الطب الموازي – المشعوذات، والسيدات المسنّات المهيبات، والقابلات، والمجبّرون – كانوا يمارسون عمليات الإجهاض. اعتبر ذلك أمراً طبيعياً عند عامة الشعب. لم يكن أحد يثير الموضوع، كما لم يكن أحد يشعر بالذنب. كانت الزوجة التي رزقت بعدد كبير من الأولاد تعتبر أن من حقها الخضوع لعملية إجهاض، وتتلقى العون من الآخرين، وأحياناً من رجال

العائلة أنفسهم. لم يكن أحد يجد في الأمر غرابة كما لم يحرمه أحد. فضلاً عن ذلك، كانت عائلات البيئة الشعبية تعي تماماً التكاليف التي يمثلها الطفل في متابعة دراسته، والتدريب، فهو سيكلف الأسرة نفقات عالية. وعندما يصبح الطفل مشروعاً يُخطَط لإنجابه، تبادر الأسرة إلى مراقبة حجم العائلة، مما يبرر التضامن الفكري حول عملية الإجهاض.

– ولكن على الصعيد القانوني، هل كان الإجهاض موضع إدانة؟

– منذ تولي فرانسوا الأول لمقاليد الحكم صُنف الإجهاض في بعض النصوص تحت راية الجريمة ولكن بقي الأمر نظرياً. ثم جاء دستور نابليون ليعتبر كُلّاً من الإجهاض وقتل الجنين جريمتين يُعاقَب مرتكبهما. إلّا أن الملاحقة القضائية كانت تتم بالنسبة لجريمة قتل الطفل ونادراً ما تحصل ضد الإجهاض. كان هناك شيء من التسامح في هذا الصدد: الكل على علم به لكن لا أحد يعلن عنه. ثم جاء القرن التاسع عشر ليغيّر هذا المفهوم مع تطور علم إحصاءات الشعوب ضمن بيانات أكثر تهذيباً. لقد اعتُبر أن مصدر قوة الدولة يأتي من تعداد سكانها. دب الذعر في فرنسا من جراء تدني نسبة المواليد. لماذا؟ باتت وسائل منع الحمل وعمليات الإجهاض المتكررة موضع شك. تم إجراء إحصائيات في دور التوليد وشوهدت نساء كثيرات يشتكين من حمى النفاس التي تلي عملية الإجهاض. وسُجِّلت أرقام فلكية (وفي مطلع القرن العشرين، بلغ رقم عمليات الإجهاض مليوناً في العام) هل هذا صحيح؟ هل هذا خطأ؟ لا يمكن الجزم بالأمر. ولكن منذ ذلك الحين، وَجَد الأطباء أنفسهم مجندين لمساعدة الأمهات في عمليات الوضع ومن ثم العناية بمواليدهن. كتب إميل زولا Emile Zola بهذا الصدد روايته التي أسماها "الخصوبة" التي تُجسِّد دور ربة العائلة الكبيرة. كان زولا يميل إلى الاشتراكية، ومع ذلك كانت الأحزاب اليسارية تمانع تعاطي موانع الحمل وعمليات الإجهاض. كان ماركس Marx مناوئاً لمالتوس Malthus[1].

– هل مارست الدولة القمع منذ تلك اللحظة؟

– في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر بادرت الدولة إلى ملاحقة كل

(1) مالتوس (1766-1834) رجل اقتصاد بريطاني الجنسية، من أنصار الحد من الولادات، إذ كان يعتبر أن ازدياد عدد السكان يشكل خطراً على موارد غذاء العالم - المترجم.

من تدعي أنها من "ملائكة الرحمة" والأطباء "الدجالين"[1]. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، اتخذت الأمور منحى جديداً: أبلغت الدولة المدعي العام أن عليه تطبيق عقوبة قاسية ضد هؤلاء. ولم يفهم الشعب سر هذه الخطوة بل وسببت له صدمة. ما دخل الدولة بشؤونه؟ شهدت محكمة إيفرو Evreux مرافعة في قضية طبيب دجال كان يقوم بعمليات الإجهاض، أثارت ضجة. كانت النساء اللاتي يتعرضْن للاغتصاب يذهبن إليه. وفجأة قررت السلطات نصب كمين له ولكل النساء اللاتي ذهبن إليه. لكن الشعب وقف موقف الدفاع عن هذا الدجال، إنه يخدم مصالحه. حاولت السلطات إقناع هؤلاء الناس أن في الإجهاض خطراً على الأمة، وأنه ليس من حقهم القيام به، يجب على الأم أن تضع وليدها، حتى لو كان غير شرعي، فهو مُلْك للأمّة. صدر قانون عام 1920 في فترة ما بين الحربين العالميتين، تُحَظِّر فيه دعايات ترويج الإجهاض، كما صدر قانون في عام 1923 يقضي بمثول القيمين على جريمة الإجهاض أمام محاكم الجُنِح.

– أليس الأمر أقل ضرراً؟

– فقط في الظاهر، بينما تهدف هذه الخطوة في الواقع إلى مثول النساء أمام قضاة محترفين يُفترض بهم تشديد العقوبة من باب الأمانة، بينما تخشى الدولة من رحمة هيئة المحلفين في محكمة الجنايات فهؤلاء يمثلون الشعب. على كل حال، تعامل المحكمة هذه النساء بشيء من الرحمة لا تبديها تجاه "ملائكة الرحمة" أو الأطباء "الدجالين". حيث إن هؤلاء يواجهون خطر العقوبات الصارمة. مع هذه القسوة، لم تعد "ملائكة الرحمة" يواجهن خطر عقوبة الإعدام في بدايات القرن العشرين. لقد تراجع نظام حكم فيشي المعروف بعدائه للنساء عن هذا القانون وأصدر حكم الإعدام بالمقصلة لامرأة أجرت عملية إجهاض عام 1943، كما تحكي قصة الفيلم الذي أخرجه كلود شابرول Claude Chabrol "قضية النساء".

– وما هو موقف الكنيسة؟

– مشابه لموقف الدولة، فهي لم تتدخل إلّا في نهاية القرن التاسع عشر. كانت فيما مضى تعارض الأمر ولكنها لم تفصح عن رأيها. أدرك المعرّفون وبشكل ضمني أن ليس عليهم التدخل في الأمر. لاذت الكنيسة من جهتها بالصمت فيما

(1) الذين يزاولون مهنة الطب من غير شهادات أو تراخيص - المترجم.

يخص فراش الزوجية وتوابعه. فهذا من شأن الزوجين، وفضّل القساوسة الابتعاد شيئاً فشيئاً عن أمور الأخلاق الجنسية. ولكن عندما سيطرت الدولة على الولادات، أي على الإجهاض ووسائل منع الحمل، شعرت الكنيسة أن زمام الأمور بدأ يتفلت منها بسيطرة الدولة على الأخلاق التي هي من اختصاص الكنيسة. فالجسد والخطيئة هما من مجال اختصاصها. وصدرت التعليمات من روما إلى الكهنة ومنهم إلى القساوسة ليقوموا بتوصية النساء بالامتناع عن اللجوء إلى وسائل منع الحمل وبشكل خاص تجنّب الإجهاض. أظهر البعض استياءهم العميق مقتنعين أن الموضوع لا يعنيهم. ومنذ ذلك الحين نشأت المنافسة بين الدولة والكنيسة، ليؤكّد كل طرف منهما أن مجال الجنس وجسد المرأة يخصنا نحن دون غيرنا!

غرَّر بها ثم هجَرَها

– بالنسبة للمرأة التي لا تستطيع العناية بوليدها الذي لم تكن في الأصل ترغب في إنجابه، بقي أمامها الخيار القاتم الذي يتمثّل بالتخلّص منه، لقد قلتِ إن هذه الجريمة قديمة قدم الزمان.

– لم يبرز الاهتمام بالأطفال إلّا مؤخراً، وكذلك الأمر بالنسبة للأجنّة أو حتى لحديثي الولادة. كان الأب عند الرومان يتصرّف بأولاده كما يحلو له، فهو المالك الحصري لهم. لقد جرت العادة أن يتخلصوا من الأطفال بالخفاء إذا تجاوز عددهم الرقم المطلوب، أما الطفل حديث الولادة فلم يكن يُنظر إليه على أنه إنسان، كان يُنعت بالـ"طرح"، تماماً كالجنين. كانت النساء يُبررن قتل أولادهن بأنهم وُلدوا أمواتاً. ويتوقف الحديث عند هذا الحد... يعود تاريخ إدانة جريمة قتل الأطفال إلى العصور الوسطى: فإذا صرخ الوليد فهذا يدل على أنه حيّ، ويجب تعميده لكي لا يذهب إلى نار جهنم وينتهي به الأمر في العالم الغريب المسمى "اليمبوس[1]" حيث لن يرى الله ولكنه لن يلقَ العذاب بعد الآن. كان يجب انتظار القرن الخامس عشر لمعاقبة جريمة قتل الأطفال من خلال المناشير الملكية. مع ذلك استمرت هذه الجريمة على صعيد واسع حتى من قبل النساء المتزوجات. لم يكن أحد يلقي

(1) هو مقام أرواح الأطفال الذين يموتون قبل أن يعمدوا وكذلك أرواح البررة قبل مجيء السيد المسيح- المترجم.

انتباهاً للأمر. كانت فساتين النساء واسعة، فترى النساء ممتلئات ثم لا يلبثن أن يصبحن ممشوقات القامة، وهكذا تجري الأمور! كان الكل يتجاهل الموضوع ... وشيئاً فشيئاً تدخلت الدولة وكان لها رأيها في القضية على مر السنين، وتنبه الجميع وبدأ الاهتمام يتزايد لوجود الطفل. في الأرياف، الكل يراقب، والشائعات تُتناقل، والجميع يندهش لرؤية النساء بأحجام مختلفة بين عشية وضحاها وكان يُبلّغ عنهنّ. وفي عهد الإمبراطورية الثانية، حُكم على كثير من النساء بتهمة قتل أولادهن، ويقدر عددهن بألف امرأة كل عام. ولدى الرجوع إلى الملفات القضائية، يطالعنا المصير المخيف. في الحقيقة، كانوا يتغاضون عن النساء المتزوجات، بينما بلغت نسبة الفتيات الفقيرات اللاتي كنّ يُسحبن للمثول أمام المحاكم 80%.

– هُجِرن بعد أن غُرِّر بهنّ...

– نعم، فتيات شابات، ضحايا حقيقيات، كانوا يضعوهن في غرفة مختلطة أو في الإصطبل حيث ينام الأجراء والخادمات. الكل يترقبهنّ حتى في الحقول، السيد والخدم والبائعون الجوالون، إلى درجة لم يعد باستطاعتهن الحفاظ على أنفسهن. فما أن تحمل إحداهن حتى يهجرها الرجل ويتركها وحيدة لتواجه مصيرها، وخاصة أن هؤلاء الرجال متزوجون. لهذا تحاول هذه الفتاة التخلّص من طفلها. أما التي لا تنجح في إسقاط جنينها – وهذا غالباً ما يحصل – فإنها تحاول إخفاء حملها لكي لا تُطرد من عملها، فتلجأ إلى ارتداء المعوزة فوق ثياب الفلاحين ويزداد وزنها دون أن تتفوه بكلمة. وتبقى سيدة المزرعة ساهرة، وتحاول إحداهن بين الفينة والأخرى مساعدة الخادمة لتصبح شريكة في الجرم. ولكن هذا الأمر نادراً ما كان يحصل. وعندما يحين موعد الولادة، كانت تلك الفتيات االبائسات يلدن لوحدهن ويتخلصن من الجنين في السر، ليعدن في اليوم التالي إلى مزاولة عملهن. وفي حال عبّر أحدهم عن دهشته لضعف جسدهن يتحججن بالمرض. في أغلب الأحيان، يتغافل الناس عنهن. أما أولئك الذين يكنّون لهن الحقد فيلجؤون إلى الإبلاغ عنهن، ليبادر رجال الدرك إلى التفتيش، وفي حال تم العثور على الجنين في مكان ما، تُحول هذه النساء إلى القضاء.

– وما هو المصير الذي ينتظرهن؟

– يُصنف هذا الفعل تحت باب الجرائم من حيث المبدأ، وعقوبة الإعدام هي

المصير المحتم. غير أن المحكمة كانت تراعي تسامحاً كبيراً بحقهن، وتعتبرهن ضحايا بسبب حداثة سنهن، والأطفال الذين يولدون في مثل تلك الظروف خارج نطاق رابط الزواج لم يكن لهم أية قيمة. وبدءًا من منتصف القرن التاسع عشر خُففت عقوبة الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة، فكانت تلك الفتيات تُنفى إلى غوايان أو إلى كاليدونيا الجديدة. هنا أيضاً، كانوا يحتاجون إلى النساء من أجل السجناء المحكومين بالأشغال الشاقّة، الذين يبقون في المنفى بعد انقضاء مدة سجنهم. الهدف من ذلك هو تكوين أسرة.

– وبالنسبة للنساء اللاتي لم يسعين إلى الإجهاض أو إلى التخلّص من أطفالهنّ– أو لم يستطعن – فيلجأن إلى الحل الأخير الذي يتمثّل بإهمال الطفل غير المرغوب فيه أو التخلي عنه.

– بالفعل. لم يكن التخلّي عن الطفل مسموحاً بل كان يتم بالخفاء. كانت الراهبات في القرون الوسطى يحاولن العناية بالأطفال الرضّع: فالطفل حديث الولادة له روح ويجب أن لا يترك ليموت. ومع بداية القرن السابع عشر، تم تنظيم هذا الموضوع بشكل ممنهج. فتم إنشاء ما يسمى "بالدولاب"، الذي هو عبارة عن باب دوار يوضع عند باب الدير ويجهز بمقصورات. كانت أية امرأة تستطيع أن تضع مولودها من دون الإفصاح عن هويتها، فتعمل الراهبات على إدارة الباب على محوره وتُلحِق الطفل بالدير. استمر هذا النظام في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر. وجاء نابليون الثالث في فرنسا ليمنع إشادة الدواليب، إذ ساد الاعتقاد في ذلك الوقت أنه يقع على عاتق المرأة الاهتمام بطفلها حتى لو كان الخجل يغمرها. وبدؤوا يقدمون لها المساعدات. فكانت تقع مجازر حقيقية في دور الأيتام إذ كان الأطفال يموتون بأعداد كبيرة. وجاءت الجمهورية الثالثة لتنظيم الدعم العام فسمحت بإجراء الولادة من دون الإفصاح عن هوية الأم ومن ثم إرسال الأطفال إلى الريف. ذلك كان مصير جان جينيه Jean Genet.

وحيدة أو مثيرة للفضائح

– ثم تبلغ المرأة سن النضوج، فالشيخوخة، ومعروف على مدى العصور أن المرأة في هذه المراحل تصبح مخلوقاً واهناً وهشّاً...

– أكثر ما تخشاه المرأة في حياتها هي مرحلة الشيخوخة، فهي تعني لها العيش بعزلة وتعاسة. وسواء كانت متزوجة أو غير متزوجة تشعر المرأة بالقلق لفقدانها القدرة على الإغواء. لقد هيمن خوف النساء من مرحلة الشيخوخة على المجتمع في القرن التاسع عشر بشكل واضح. ها هو موباسان Maupassant[1] يصوِّر في رواياته نساءً – ورجالاً أيضاً – يتأملون ملامح وجوههم في المرآة وقد أفسدها الزمان بينما خطّ المشيب مفرقهن. يشير بالزاك إلى أن النساء في عمر الثلاثين فقدن أنوثتهن في عصره، ولكنه لم يكن مقتنعاً بهذه الفكرة تماماً، ها هي صديقته السيدة هانسكا Mme Hanska امرأة متقدمة في العمر. والسيدة دو مورتسوف Mme de Mortsauf بطلة رواية "زنبقة الوادي" Lys dans la vallée أم لأطفال، ولكنها لا تزال فاتنة وجذابة بدليل هيام البطل الشاب بها، ولكنها لم تستسلم له أبداً في الوقت الذي تتوق فيه إلى ذلك. يوحي بالزاك بأنها حسناً فعلت ... إنه يعتقد على غرار فلوبير Flaubert أن الإغراء لدى المرأة الناضجة موجود على أرض الواقع، قد تكون نظرة فلوبير وبالزاك استثنائية، وقد تكون نظرة فنانين يبحثون عن وجوه مشبعة بالحنان. أما بالنسبة للنساء الأخريات فإن سن النضوج يعني لهن الخسارة بعينها.

– إنها سنوات من العمر تجد فيها النساء اللاتي بقين من دون زواج أنفسهن وحيدات في المجتمع كما تجد الكثير من النساء المتزوجات أنفسهن أرامل.

– وتعود هؤلاء الأخيرات إلى الوحدة من جديد. فينغمسن في ظروف معيشية مزرية أو في تبعية كبيرة. نلاحظ في هذه المرحلة تفوّق عدد الأرامل من النساء على عدد الأرامل من الرجال. ويعود السبب في ذلك إلى الفارق في العمر عند الزواج، وإلى التعمير، وإلى حقيقة أن الرجل عندما يفقد زوجته لا يبقى أرملاً لفترة طويلة بل سرعان ما يرتبط بأخرى.

– من أين ينشأ هذا الفارق الآخذ بالنمو بين مأمول الحياة لدى الذكور والإناث؟

– إنه لا ينتج عن الطبيعة بل يتعلق بأسلوب المعيشة والمخاطر التي تعترض المرء. يبلغ هذا الفارق اليوم الثماني سنوات تقريباً. ولكن إذا عدنا بالتاريخ إلى

(1) موباسان (1850-1893)، أديب فرنسي، كان صديقاً لفلوبير ومعجباً بآرائه. كتب العديد من القصص الواقعية التي تحكي حياة الفلاحين والبورجوازية الصغيرة - المترجم.

منتصف القرن الثامن عشر (عصر الإحصائيات الأولى) كان الفارق يسجل لصالح النساء بسنتين، ليزداد في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين. لقد نتج عن الحروب، وبشكل خاص الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، نسبة وفيات مخيفة في صفوف الرجال. ثم كان للثورة الصناعية بعد ذلك أثرها في تفاقم هذا الفارق، حيث بقيت النساء في المنزل بينما خرج الرجال إلى المصانع وكانوا يقعون ضحايا لحوادث العمل. إضافة إلى ذلك، كانت تقاس هوية الرجولة بالمخاطر التي يخوضها: لا يعتبر رجلاً من لا يخوض الصعاب ويعرّض نفسه للمخاطر، في حين تميل هوية النساء إلى الحذر. فهن لا يلجأن إلى المبالغات. لم تكن المرأة في الماضي تدمن التدخين، كما لم تكن تتعاطى الكحول البتة. في الأوساط الشعبية كنا أحياناً نرى نساءً مخمورات ولكن هذا لم يكن منتشراً على صعيد واسع. وباتت النساء يرتدْن العيادات الطبية أكثر من ذي قبل، على الأقل خلال مدة حملهن، فهن قلقات بشأن صحتهن.

– هل يرتبط طول العمر عند النساء بالتباعد بين الولادات وبشروط الولادة المحسّنة؟

– نعم. من أهم المخاطر التي كانت تؤثر سلباً على حياة المرأة حالات الحمل المتكررة والولادات الصعبة، والالتهابات والنزف الذي كان ينشأ عن الولادة. ثم شيئاً فشيئاً وجد الزوجان طريقة لتباعد حالات الحمل قبل أن تتدخل وسيلة منع الحمل الحقيقية. فقلّ عدد الأولاد ولقيت النساء من يعتني بجسدهن نتيجة تطور علم الصحة وعلم التوليد. إلّا أن هناك نساء شابات يلقين حتفهن أثناء عملية الوضع.

– في هذه الحالة، لن يبقى الأرمل الشاب أرملاً لفترة طويلة...

– بل وحتى الأرمل المتقدم في العمر! يتزوج مرة ثانية ومن امرأة شابة. الكل يحبّذ هذا الارتباط الجديد – بدءاً من الكنيسة – حرصاً على حياة الرجل الجنسية، والتي تعتبر ضرورة حتمية بدونها قد يتسكع الرجل، ويعرض ميراث العائلة للخطر. فضلاً عن حاجته لامرأة تدير شؤونه.

– وماذا لو أرادت امرأة أرملة أن تتزوج للمرة الثانية؟

– كان الأمر يثير استياء الجميع، وكأن هذه المرأة ترتكب الفاحشة. فإذا كانت الأرملة صغيرة في العمر وانتظرت فترة زمنية طويلة، فلا بأس. ولكن إذا تقدم بها العمر فإن عائلتها ترفض زواجها ويستنكر أولادها هذه الفكرة. بل ويتهمونها

بالشهوانية. نعم، أن تعبّر امرأة تجاوزت سناً معيناً عن رغبتها في ممارسة حياة جنسية فهذا دليل على فقدانها لعقلها. وعملها مرفوضٌ أخلاقياً ويستوجب إدانة الكنيسة. وجرياً على العادة، كان سن اليأس يُعتبر نهاية الأنوثة لدى المرأة. وفي المقابل، ما إن تجتاز بعض النساء فترة النشاط الجنسي والإغواء حتى يحصلن على نوع من الحرية الجديدة وكأن هناك تبادل بين الجنس والسلطة. فيؤخذ برأيهن فيما يخص مصالح العائلة وزواج الأولاد، بل وحتى شؤون المدينة أو القرية. وكأنهن تبوأن مركز الرجال.

مشاطرة الدموع

– وما هو مصير الأرملة التي تبقى بمفردها؟ هل كانت تذهب لتعيش مع أولادها؟

– غالباً ما كان يُرصد مبلغ من المال في الأوساط البورجوازية – يُطلق عليه اسم إرث المرأة من زوجها – لذا لا يوجد أي مبرر للرثاء على وضع الأرملة. أحياناً كانت هذه الفترة من حياة الأرملة تبعث على السرور والبهجة. بيد أن الأولاد غالباً ما كانوا يعتبرون أن المبلغ الذي يتم احتجازه لصالحها ما هو إلّا اقتطاع لجزء هام من حصتهم في الميراث، من هنا تنشأ العداوة التقليدية بين الحماة التي فقدت زوجها والصهر (أو الكنة) الذي كان يترقب لحظة وفاتها ليفوز بأملاكها. وعلى العكس، في حال لم يرد نصيبها المخصص لها من زوجها ضمن بنود عقد الزواج، كان الأولاد يتقاسمون الميراث قبلها. فكان هذا الوضع يشكّل خسارة هامة بالنسبة لمركزها الاقتصادي مما يجعلها عاجزة في أغلب الأحيان عن الاحتفاظ بمنزلها. لهذا السبب نشاهد الكثيرات من النساء المتقدمات في العمر مكرهات على العيش عند أبنائهن، في عزلة تامة داخل غرفة واحدة.

– وكيف هو الحال في الأوساط الشعبية؟

– عاشت النساء اللاتي تقدم بهن العمر ظروفاً في غاية القسوة. لم يتم رصد أي مبلغ تقاعدي للأرامل فيما عدا تلك التي مات زوجها في الحرب. يعود تاريخ القانون الأول الخاص بالمعاش التقاعدي للعاملات والفلاحات في فرنسا إلى العام 1910؛ حتى إن كثيراً منهن لم يكن لهن الحق في تقاضي هذا المعاش. أما النساء

اللاتي لم يزاولن أية حرفة في حياتهن، فإنهن لا يملكن أي شيء لقوتهن اليومي. طالما أنهن قادرات على تقديم الخدمات، والعمل، ورعي البقر، وجمع الحطب، فإنهن يحصلن على الفتات. ولكن فيما بعد عندما يبلغن من العمر عتياً، ويصبحن عاجزات تماماً عن القيام بأي عمل عندئذٍ يعشن حياة البؤس والشقاء، فالكل ينظر إليهن على أنهن مجرد أفواه يجب إطعامها، ويلقَين بالمقابل معاملة سيئة. هناك في بعض المناطق – مثل اللوزير Lozère والجيفودان Gévaudan كانت توضع تلك النسوة في معزل عن الناس في مكان أشبه ما يكون بأكواخ صغيرة حيث يقدم إليهن الطعام كما يقدم للكلاب.

– هذا يبعث القشعريرة...

– حاولت النساء الوحيدات العيش ضمن مجموعات لمواجهة هذا البؤس. فعاشت الأرامل الشابات مع أولادهنّ في منزل أو شقة، يتقاسمن فيها كل شيء. ثم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبح البيت يضم كُلّاً من الأب والأم والأولاد غير المتزوجين. وشيئاً فشيئاً بات الأولاد يرفضون إيواء المسنين في بيوتهم، فتم إنشاء دور خاصّة لإيواء العجزة بإدارة الراهبات في أغلب الأحيان. نجد في هذه الدور نساءً مسنّات يعشن ظروفاً بائسة. أما في عصرنا الحالي، فإننا نشهد ظهور لن أقول المرحلة العمرية الثالثة، بل المرحلة العمرية الرابعة التي تخص النساء بشكل أساسي. إنهن سيدات تقدم بهن العمر، وألمّ بهن المرض، إنهن ينتمين إلى الجيل الذي لم يكن يعمل بصورة رسمية أو أنه كان يعمل عملاً جزئياً في وظائف أكثر من متواضعة. تعيش هذه النسوة في الفاقة بمرتب تقاعدي ضئيل.

– مع ذلك فالجدة في وقتنا الحاضر هي إنسانة محبوبة، ودعامة للحياة العائلية. ألم يكن هذا الحال هو السائد في كل زمان؟

– بالتأكيد، نشاهد اليوم نساءً في الستين أو السبعين من عمرهن – بعيداً عن المرحلة العمرية الرابعة – يمارسن نشاطهن، ويشاركن في الجمعيات، ويعتنين بأزواجهن وأحفادهنّ، بل وحتى بآبائهن الذين بلغوا العقد التاسع من أعمارهم! لكن هذا الاهتمام الذي أنيط بالجدة لا يزال حديث العهد نسبياً. نراها في القرن التاسع عشر قد بلغت القمة افتراضياً من خلال الروايات والمذكرات التي دونت. لعبت الجدة في هذه القصص دوراً أساسياً سواءً على صعيد الحياة الفردية أو الحياة العامة.

إنها المرأة التي تُحيي ذكريات الزمن الغابر. صورت جورج ساند في روايتها "قصة حياتي" Histoire de ma vie أحداث طفولتها التي لعبت الجدة فيها دوراً هاماً. لقد عاشت في عهد النظام القديم ونقلت إلى حفيدتها إرثاً ثقافياً غنياً. وتمضي ستون عاماً ويصور بروست Proust[1] من جهته جدته كإنسان محوري، شاهدٍ على الزمن الضائع- سيما وأنها قدمت له رواية جورج ساند ....François le Champi.

– المرأة تنقل الذكرى، وهي مكلفة بكل القضايا التي تتعلق بالموت. إنها تنجب أطفالاً إلى هذا العالم وتساعد الآخرين على مغادرته...

– هذا الدور نجده في كثير من الأديان، ومنذ العصور القديمة. لا يصور الفن الإغريقي الدور الذي تقوم به المرأة حين الولادة، لكننا نشاهدها برفقة المحاربين الذاهبين إلى الحرب، ثم نشاهدها على أبواب المدينة بانتظار استلام جثث الذين وقعوا صرعى في ساحات الوغى. عليهن أن يبكين هؤلاء، وأن يتبعن الجنازة مع إظهار كل علائم الألم. نجد بعض الآثار في الثقافات المعاصرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث تتقاسم النساء الأدوار بشكل شبه مسرحي، تارة يصرخن وطوراً يبكين بشدة، متشحات بالسواد، لون الحداد... على عكس الرجال الذين يترتب عليهم الثبات وكبت المشاعر.

– إنها مشاطرة للدموع حاضرة أبداً على مر التاريخ.

– نعم، فالرجل الذي يبكي ليس برجل، وبالقياس، المرأة التي لا تبكي ليست امرأة! المرأة هي التي تعتني بالميت، وتغلق عينيه، وتشرف على نظافته، وتسهر على خدمته، وأخيراً تشارك في دفنه. النساء هن المؤتمنات على حفظ ذكرى الموتى، إنهن ينقلن ذكريات العائلة والسلف. إنهن في الواقع، مسؤولات عن الأمور الخاصة، من الولادة حتى الممات.

---

(1) بروست (1871-1922)، أديب فرنسي، ألف مقالات وقصصاً. سيطر على تاريخ الرواية الفرنسية في القرن العشرين- المترجم.

الفصل الخامس

متمردات وطريدات

الكنيسة، إنها من شأن الرجال!

– **نيكول باشاران**: في مقابل النظام الأسري الحميم الذي اعتمد لفترة طويلة على النساء في كل مراحل حياتهنّ، يمكننا أن ندرك السبب الذي دفع البعض منهن إلى التمرّد على قدرهنّ الذي رسمه لهن الآخرون من حولهنّ، والهروب من رابطة الزواج والحياة الزوجية والأمومة بل وأحياناً أيضاً من الرجال بكل بساطة... دعينا نتوقف لبرهة عند هذه النساء الفريدات اللاتي احتجبن بعيداً عن الأنظار، سواء طوعاً أو كرهاً. كان الحل الوحيد والأمثل المتاح لهنّ لإتمام هذه المبادرة هو الدخول في الدين، وقد لجأن إليه لفترة طويلة. ولكن هنا أيضاً، لم يكن الوضع أفضل من الحياة المدنية، لم يوفقن إلى إيجاد المساواة مع الرجال. حتى في العصر الحجري القديم، لم تكن الآلهة الأنثى توازي في مركزها الإله الذكر.

– **ميشيل بيرو**: هذا صحيح. ولكننا مع ذلك نجد عدداً من الآلهة ذاع صيتهنّ – كآلهة الإخصاب، وآلهة الحب، وآلهة الحكمة. بصورة عامة، كانت هذه الآلهة تسمو ببعض أدوار المرأة لكنها لم تكن لتدمرها. لا يوجد مساواة بين المذكر والمؤنّث، وها هو الإله زوس الذي يجسد السلطة المطلقة، لا يوجد من يكافئه بين الآلهة من الإناث. بينما تُجسِّد الوجوه الهدامة والمدمرة، مثل الآمازون التي تحدثت عنها فرانسواز إيريتييه، خوف الرجال من سلطة النساء المحتملة. ها هي كاهنات

باخوس Ménades خادمات لدى الإله ديونيسوس يقعن فريسات "لهذيان" هذا الأخير: مخمورات، خطيرات، إنهن يصورن أشكالاً للفوضى التي قد تُدْخِلها النساء إلى المدينة في أي وقت من الأوقات. من خلال رغبتهن في التملّك، وسلطتهنّ الملعونة، والغيرة التي تتملكهنّ – كالملكة ميديه Médée التي قتلت أبناءها – فإنهن قادرات على نشر الكدر حتى وسط عالم الآلهة.

– وفي الوقت ذاته، وبسبب هذه الصفة التي يفترض أنها غير عقلانية، فإنهن يلعبن دوراً هاماً في الطقوس الدينية.

– صحيح تماماً. كان دور الآلهة فستا Vesta عند الرومان القدماء هو حماية النار المقدسة، والإبقاء عليها مشتعلة، بل كانت تدّعي النبوءة وكانت كاهنة. تعود مسؤولية دفن الموتى وإحياء ذكراهم إلى النساء، حيث يُعتقد أنهنّ على صلة خاصة بعالم الأرواح، أرواح الآلهة وأرواح الأموات على حد سواء. وامتد ذلك إلى العصور الوسطى حتى طال الساحرات وفيما بعد المسرنمين (الذين يسيرون أثناء نومهم) ومستحضري الأرواح. وبينما كان القرن التاسع عشر يشهد تطوراً سريعاً للعلوم، لا زال هناك من يتحكم في إدارة الطاولات ويمارس علم الأرواح في حضور النساء.

– لا ننسى وجودهن الظاهر في الكنيسة، مع أن دورهنّ كان ثانوياً.

– من شأن الرجال الاهتمام بسر القربان المقدّس، على غرار الذبائح في روما القديمة. مع ذلك، يجدر بنا أن نَذْكر أن موقف السيد المسيح من النساء في بداية الدين المسيحي كان مختلفاً عن موقفه من الرجال في زمانه. بالطبع، النساء اللاتي يتبعنه – أمه و"النساء المقدسات"– يبقين في المؤخرة، في وضع تقليدي. إنهن هنا من أجل خدمة السيد اليسوع والحواريين. أما بالنسبة للسيد المسيح، فإنه يتعامل مع النساء بتهذيب وألفة. وعندما اشتكت مارتا Marthe، المرأة النشيطة، من ماري المحبة للتأمّل، من عدم مساعدتها لها بالشكل المطلوب، تحدّث إليهنّ مطولاً، وأزال الخلاف بينهنّ. ومن ناحية أخرى، برهن على تسامح كبير تجاه النساء اللاتي شُهِّر بهنّ أمام الرأي العام، وكان يحمي المرأة العاهرة وكذلك الزانية، قائلاً: "من كان منكم من دون خطيئة فليبدأ برجمها". إنه على علم تام أن الرجال يخونون زوجاتهم ويلجؤون إلى تعدد الزوجات.

– في مقابل الخيانة الجنسية، لا يعترف السيد المسيح بازدواجية الأخلاق.

– بالفعل. ثم إنه لا يدين العاهرة. عندما تقترب منه ماريا المجدلية Marie Madeleine – المرأة ذات السمعة السيئة – فإنه يتكلم معها ويطلب منها الإقلاع عن البغاء، ثم يردّها إلى الدين. انضمّت فيما بعد إلى النساء التابعات، وكانت حاضرة إلى جانب مريم، الأم، ساعة دفن السيد المسيح، شاهدة على انبعاثه. وأخيراً ذهبت بالقارب حتى مقاطعة البروفانس Provence من أجل نشر الدين المسيحي في جنوب فرنسا. لعبت المجدلية دور الرسول، ثم انعزلت كالنسّاك في مكان سرّي، تكفيراً عن خطاياها. ولكنها احتفظت طيلة حياتها بشعرها الرائع الذي يجسّد إغراء المرأة، كما هو شائع.

– ظهر يسوع إذاً بمظهر المحرّض على الثورة ... وشهدت الكنيسة المسيحية حين أُنشئت بعد فترة قصيرة من وفاته، اندثار موضوع المساواة بين الأجناس.

– لم يأذن بطرس، مؤسس الكنيسة، إلا للرجال لممارسة مهنة القساوسة. وعندما يتعلّق الأمر برسم الكاهن، يتم التوضيح أن الرجال وحدهم هم المرشحين لخلافة الرسل. هذا الإقصاء للمرأة من مجال الكهنوتية هو إشارة واضحة على التمييز. وفيما بعد، جعل القديس بولس من الزواج طقساً دينياً تَطلّبَ المساواة بين الرجل والمرأة أمام الله، حيث قال إنه لا يوجد رجال ولا نساء في الجنة. وكما يتبيّن لنا، يحمل هذا الموقف في طياته الكثير من الالتباس، فالمساواة المعلن عنها لا تطبق إلّا على الأرواح في علاقتها مع الخالق. ويبقى الاختلاف بين الرجال والنساء قائماً على الأرض من أجل بناء الكنيسة.

– كتب القديس بولس في رسالته التي وجهها إلى أهل إيفيس (افسس)[1]: " أيتها النساء اخضعْن لأزواجكنَّ خُضُوعَكُنَّ للرّبّ!"

– وفي رسالته الأولى التي كتبها إلى الكورنثيين، أضاف أن عليهن وضع الوشاح على رؤوسهن عند ارتيادهن الكنيسة:"إذا كانت المرأة لا تغطي رأسها فلتقُصَّ شعرها، ولكن إذا كان من العار على المرأة أن تكون مقصوصة الشعر أو محلوقته فعليها أن تغطي رأسها." لا يزال هاجس الشعر الذي يثير الفتنة موجوداً... عندما يحضرن إلى الكنيسة، يجب على النساء الامتناع عن الكلام، إلا في حال

(1) سكان مدينة أيونيا التي تطل على بحر إيجه، وكانت مركزاً تجارياً هاماً قبل مجيء السيد المسيح- المترجم.

تكلمت كداعية – هنا أيضاً عليها مراعاة تغطية رأسها – استمراراً لكاهنة الإله أبولو القديمة. لا يفترض المزج بين ما هو مقدس وما هو مدنس، لذا يجب الحرص على مراقبة النشاط الجنسي لدى المرأة، فالنساء يشكلن خطراً جسيماً...

– مع ذلك، يلاحظ أن بعض النساء يحافظن على نشاطهن أثناء إقامة الطقوس الدينية، كما كان العهد عند الرومان القدماء.

– نعم. كان للنساء وجود فعال في عهد الكنيسة المسيحية القديمة. في سراديب الموتى كانت المصليات يدعين بصوت مرتفع، متضرعات بأكفهنّ إلى السماء. عند حلول العصور الوسطى، تقلص دورهن، إذ لم يعد بمقدور الشمّاسات والواهفات[1] سوى الاهتمام بالزيت والأدوات، والقيام بأدوار ثانوية. أما دور القندلفت أو حامل الصولجان فكان يفضل أن يقوم به الرجل. هنا أيضاً، فُرِض على النساء ستر شعرهنّ إذ لا يسمح لهن بالدخول إلى الكنيسة إلّا إذا حجبن مصدر أنوثتهن.

السيدة العذراء تتغلب على حواء

– تظهر هذه الأمور بشكل جليّ في الدير... في أي وقت من الأوقات بدأت الكنيسة بتنظيم الحياة الرهبانية، والكهنوت؟

– عمدت الكنيسة في وقت مبكّر جداً إلى اعتبار العفّة في المقام الأعلى للرجال والنساء. كان يراود آباء الكنيسة الذين كانوا نُسّاكاً في أغلبهم هاجس الجنس. وتناول القديس أوغسطين في القرن الرابع هذا الموضوع في نصوصٍ كثيرة، وكان جوهر الفكرة يدور حول خطيئة الجسد التي هي من أخطر الخطايا على الإطلاق، فالجسد هو الناقل الرئيسي للشر. هذا وقت إعادة تدوين سِفر التكوين (في العهد القديم). ورد في الترجمة الأولى منه أن ولادة الرجل والمرأة جاءت في آن واحد؛ منذ ذلك الحين، جاءت المرأة في الترتيب الثاني بعد الرجل بعد أن خرجت من ضلع آدم: إنها حواء الغاوية، المضللة، الفاسقة، التي تستمع إلى الشيطان وتنشر الخطيئة في العالم. انطلاقاً من هنا كانت المهمة الرئيسية للنساء هو التكفير عن

(1) الخادمات في الكنيسة- المترجم.

ذنبهن. ولحسن الطالع ستتمكّن النساء من التخلّص من هذه الخطيئة بتعبد السيدة العذراء. إن اسم "Ave Maria" هو حواء (Ève) معكوساً. إننا عندما نسلّم على السيدة العذراء فإننا نتغلّب على حواء.

– إنه تقييم للعفّة.

– لم يقم العهد القديم أي اعتبار للعفة، بينما وضعته القرون الوسطى في المقام الأول. لقد اعتبرت الكنيسة أن الزواج هو وضع طبيعي، هذا أمر ثابت، وأكد القديس بولس أنه يمكن للزوجين إنقاذ نفسيهما أمام الرب. "انموا وتكاثروا "هذه هي إرادة الرب. أما بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن القداسة ويكرّسون أنفسهم للرب، فيجب عليهم أن يُبقوا على حياة العزوبية والعفة. يشبّه آباء الكنيسة الجنس بالخطيئة ويصفون المرأة بأنها غاوية خطيرة. والأنموذج المنيع هو السيدة مريم العذراء التي ولدتْ السيد المسيح من دون أن تعرف الرجال. إنها عذراء وأم: يا له من فخ جهنمي بالنسبة للنساء! وفي محاولة منهن ليحذين حذو السيدة العذراء، تطوعت الكثيرات من الفتيات في حياة الرهبنة. أما الأخريات اللاتي تمّت تهيئتهن للزواج فإنهن رأين في العذرية حالة مؤقتة لكنها هامة. كانت الفتاة في القرون الوسطى تدعى بالبتول أو بالعذراء. كانت تمثّل وجهاً قيماً إلى درجة كان ينسبون إليها المعجزات. جان دارك التي كانت تلقب بالبتول كانت عذراء. لهذا السبب كانت تسمع أصواتاً من السماء وتدّعي بأن الله أوكل إليها مهمة محددة واستطاعت إنقاذ مملكة فرنسا.

– ربما حاولت جان دراك، تلك القديسة والمحاربة، الهروب من قدرها التقليدي كامرأة، على غرار المتصوفين... قد يُنشئ تقييم العفة بالنسبة للرجال وللنساء شكلاً من أشكال المساواة.

– من حيث المبدأ على الأقل... يجب أن ننوه هنا إلى أن تقييم العزوبية هو ظاهرة حضارية نادرة الحدوث، كنا قد وجدناها عند البوذيين في الصين على نطاق ضيق، حيث كان الرهبان طاهرين وكانت الأديرة تضم النساء. لكن هذا لم يشمل سوى نسبة ضئيلة جداً من السكان. ورد في القرآن الكريم أن ممارسة النكاح أمر جيد للأزواج وأن الامتناع عنه يعد خطيئة. وبتعبير آخر يجب على الرجال والنساء الإقدام على الزواج، هناك أجنحة خاصّة بالنساء لكنها لا تستقبل العازبات. ففكرة

امرأة عَزَبة لم تمارس الجنس ولم تعش فترات الأمومة قضية غير متداولة. لقد انفردت المجتمعات الغربية من دون غيرها بالإفلات من ممارسة الجنس عن طريق ابتكار وضع معيّن يتمثل بالعزوبية، وأماكن خاصة تدعى بالأديرة.

أسرار في خبايا الدير

– ما هي حقيقة الدير بالنسبة للمرأة التي اختارت الدخول إليه واعتزال العالم؟ هل هو مكانٌ تتابع فيه الفتاة دراستها وتترعرع بعد أن هربت من الأمومة غير المرغوب فيها؟ أو إنه سجن تُزَج فيه الفتيات المتمردات والعاصيات؟

– تميّز الدير بأنه مكانٌ يكتنفه الغموض، ودام ذلك حتى الحرب العالمية الأولى، أي حتى 1914. بينما نشهد اليوم دخول فتيات إلى الدير بمحض إرادتهن، على خلاف ما كان يحصل في الماضي، فكانت هناك ثلاثة حالات لدخول الدير. تأتي في المقدمة الفتيات اللاتي تعجز عائلاتهن عن دفع مهورهن أو تزويجهن. أما عند طبقة النبلاء، فقد جرت العادة أن تُرسَل إلى الدير الفتيات اللاتي يُعِقْنَ الخطة الأسرية الموضوعة للزواج. وكانت هذه العادة سارية المفعول عند طبقة الفلاحين، إذ كانت ترسل إلى الدير كل فتاة تعاني من ضعف في البنية، أو تشتكي من عاهة معينة أو لم تكن قوية بالقدر الكافي للقيام بالأعباء المنزلية أو للإنجاب. في المقابل، هناك الفتيات اللاتي آثرن العيش في الدير بحثاً عن القدسية والكهنوت، بعد أن رفضن الزواج القسري. كانت غالبية الفتيات عذراوات – وهو شرط أساسي للقدسية – مع ذلك كانت الأرامل تستطيع الدخول إلى الدير. يتخلل هذين الوضعين – القسري أو الحر – النساء اللاتي أُجبرن على دخول الدير، فانتهى بهن الوضع إلى التأقلم على الحياة فيه وتحويله إلى مكان قابل للعيش.

– الدير هو مكان للدراسة وللروحانيات، ولكن هل نعتبره أيضاً مكاناً للسلطة؟

– أظهرت الكنيسة على مر الأيام ميلها لهيمنة الرجل على المرأة على صعيد المجتمع أكثر مما كان عليه الأمر في عهد السيد المسيح، حيث لم تنل المرأة أي نوع من أنواع السلطة في مؤسساته. كانت الأوامر التي تصدرها النساء تخضع

لمرجعية الرجل؛ على كل حال، لم تكن معظم الأوامر الصادرة عن النساء سوى نسخة عن أوامر الرجال. أما الأوامر التي صدرت عن النساء (كالأورسوليات[1] اللواتي يكرّسن أنفسهنّ للتعليم) فإنها كانت بحاجة لتأكيدها من الأسقف. مما لا شك فيه أن رئيسة الدير تمارس سلطة قوية داخل الدير، وقد تتوصل أحياناً إلى إخضاع المرشدين الروحيين تحت إمرتها، ولا يخلو الأمر من مشاحنات مضمونها الحسد. إن عالم الدير أبعد ما يكون عن المثالية. فهو مركز للتنافس بين الراهبات، والتنافس على السلطة بين المعرِّف ورئيسة الدير، يتخذ في بعض الأحيان طابعاً جنسياً. قد تلجأ بعض رئيسات الأديرة إلى تجاوز سلطة الأسقف مستجيرة بالبابا القابع في روما، ولكن البابا ما هو إلّا رجل في نهاية المطاف! لعب روبير داربريسيل Robert d'Arbrissel في مطلع القرن الثاني عشر دوراً هاماً في تطوير مؤسسات الرهبانيات، بهدف إعطاء المرأة دوراً مساوياً لدور الرجل؛ وهذا ما تم فعله في فونتفرو Fontevraud[2]. وكان هذا حال القديس فرانسوا داسيز François d'Assise حيث كانت القديسة كلير Claire صديقته، وطورت راهبات الكليريّة ما عُرف بالصوفيّة، وهو تيار مماثل لراهبات الفرانسيسكان ولكن منفصل عنه. على كل حال لا يوجد نظام ذو طابع أنثوي مستقل عن السلطة الذكورية.

– ألم تمارس القديسات الكبيرات سلطة داخل أسوار الدير أو حتى خارجها؟

– بلى كان لبعض القديسات تأثير كبير على الراهبات اللاتي يحطن بهنّ، كما كان لهن تأثير من خلال كتاباتهن ومن خلال الكهنوت الذي أنشأنه. وكان ذلك يتجاوز أسوار الدير. لقد تألقت تيريز دافيلا Thérèse d'Avila على سبيل المثال في مجال الصوفية. وكانت كتاباتها تُقرأ كما كانت تلقى احتراماً، وكان المؤمنون يأتون إليها من بعيد بمن فيهم الأساقفة للاستشارة، وكانت تحظى باحترام جان دو لاكروا Jean de la Croix. أما تيريز دو ليزيو Thérèse de Lisieux "الأخت الصغيرة" فقد ماتت عن عمر يناهز الرابعة والعشرين، بعد أن أثارت حماساً خارقاً، وكانت روايتها "حكاية روح" أكثر الكتب رواجاً.

– لكن الشكوك كانت تحوم حول القديسات...

(1) مرتبة لراهبات القديسة أورسولا، أنشأتها عام 1535 القديسة آنجيلا دي مريتشي- المترجم.

(2) أبنية أديرة شيدها روبير تضم النساء والرجال، سلمت الإدارة فيه لامرأة عام 1101 – المترجم.

– نعم. كانت الكنيسة تبجّل القديسات، ولكن الشك كان يساورها من ناحيتهن. كان يُنظر إلى تلك النساء المحبّات للتأمّل، اللاتي يدّعين أنهنّ على صلة مباشرة بالرب، على أنهنّ غريمات للكاهن فيما يتعلّق بترجمة الكتابات. وقفت تيريز دافيلا موقف الناقد للكنيسة في عصرها. ثم كانت هناك الخشية من "حماقات" النساء وهَرَعِهن وطبعاً فقدان شهيتهن للطعام. وشهد الدير الكثيرات من النساء المتصوفات اللاتي كنّ يلجأن إليه، وكنّ يفرطن في التأمّل والصلاة والتقشّف، وبشكل خاص يحرمن أنفسهن من الطعام. كان هذا هو حال كاترين دو سيين Catherine de Sienne إنها "أم" لكل اللاتي فقدن شهيتهن للطعام، كما رفضت تيريز دو ليزيو في القرن التاسع عشر تناول الطعام رغم توسلات كل من يحيط بها – ولا أحد يعلم سبب موتها، أهو مرض السل أو القهم (فقد الشهية). وعلى غرار تعبير "المراهقة"، لم يظهر تعبير "القهم" إلّا في القرن التاسع عشر، وكان يُرى فيه مشكلة الشابات الصغيرات وينسب مصدره إلى خلل في وظائف الجسم. كان يجب انتظار فترة ما بين الحربين لتصنيف القَهَم بأنه اضطراب نفسي.

رفضُ الاستسلام لعملية النكاح

– يعود تاريخ القَهَم إلى عهد بعيد. هل كانت هذه المتصوفات ينكرن أنوثتهن ونشاطهن الجنسي بامتناعهن عن تناول الطعام؟

– يصعب علينا معرفة السبب الحقيقي الكامن وارء مثل هذا التصرّف. ربما أحسسن بدنس أجسادهن... تَعتبِر كافة الديانات الموحِّدة أن الحيض هو فترة نجاسة عند المرأة، حيث تكون نجسة في تلك الأيام المعدودات ويجب اجتناب ملامستها. فالدم الذي يخرج من الفتيات ما هو إلّا دم نجس مع أنه نبض الحياة، بينما يكون دم الرجل الذي ينزف في ساحة الوغى دماً مجيداً. تكاد الأمهات يهملن إبلاغ بناتهنّ بما ينتظرهنّ. فتشعر الفتيات الصغيرات بالذل والألم لما يصيبهنّ من جراء دم الحيضة الأولى، واستمر هذا حتى فترة وجيزة. كان يُعتبر سراً مخجلاً يجب كتمانه، وعلى الفتيات تدبر أمرهنّ. لذا فإننا ندرك تماماً سبب لجوء بعض الفتيات

الشابات إلى الزهد إنكاراً لجسدهن في محاولة للاتصال بالرب وإزالة هذا الدنس. وإذا امتنعن عن تناول الطعام فإن دم الطمث سيتوقف، وهذا ما يسمى بانقطاع الطمث.

– يمكن أن نستخلص أن القهم على مرّ القرون لم تعاني منه إلا الفتيات اللاتي يعشن أزمة دينية...

– أبلغ الأطباء في القرن التاسع عشر عن حالات مرضية كثيرة، خاصة عند النساء اللاتي خضعن لزواج قسري– وهذه حالة شكلت منذ الأزل معياراً جعلنا نفترض أن القهم بدأ منذ زمن قديسات العصور الوسطى. فبالإضافة إلى الاعتقاد السائد بخصوص الطمث والدم النجس، وقعت الفتيات في تناقض جوهري. فمن جهة كانت عذريتهن مبعث فخر ومن جهة أخرى كان يقال لهنّ: "الزواج هو مصيركن المحتوم" – وهو زواج قسري – "وما إن تتم مراسم الزواج حتى يصبح من حق الرجل الدخول بهن." لأن هذا هو المعنى الحقيقي للواجب الزوجي: يحق للزوج نكاح زوجته متى شاء. وبالقهم ترفض الفتاة أن تكون هذا الجسد المتاح في كل الأوقات. عندما تُخضِع المرأة الشابة جسدها للجوع، يصبح هزيلاً، عاقراً، غير جذاب، فتنجو من قدرها المحتوم. ويتوقف جسدها عن كونه موقوفاً على الإنجاب. وجاء موقف الكنيسة متحفظاً بخصوص هذا النوع من الزهد الذي ينتهي به المطاف إلى الجنون وقتل النفس.

– أثارت القديسات الشك لدى الكنيسة لكنها مع ذلك رفعتهن إلى مصاف القديسين. أما تصرفها بشأن المشعوذات فإنه مختلف، رغم كونهن على اتصال بالعالم الآخر.

– من الملاحظ أن الفارق بينهن واهٍ في بعض الأحيان. هذا ما شهدناه في قضية "اللائي بهنّ مسّ من الشيطان في كنائس القرون الوسطى وفي عهد النهضة": ففي عام 1632 بادرت الأورسوليات إلى توجيه أصابع الاتهام ضد مُعَرِّفهنّ أوربان غراندييه Urbain Grandier بأنه سحرهنّ قبل إغوائهنّ. تمت إدانته وأُحرق حياً؛ أما الراهبات اللاتي أصابهنّ المس فتم تطهيرهن من الأرواح الشريرة. كان يجب طرد الشيطان الذي سكن داخلهن، لأنهنّ كنّ قريبات جداً من الشعوذة. أما بالنسبة للراهبات اللاتي تم التحقق من سحرهنّ، أي اللاتي كنّ موضع ارتياب بتجارتهنّ الطوعيّة مع الشيطان، فإنهن لم يلقين الرحمة. كان البحث عن دليل

خطيئتهن يتم بإلقائهن في النهر بعد تثبيت حجر في عنقهنّ: فالدليل على براءتهن هو غرقهن؛ أما إذا صعدن إلى السطح فمعنى هذا أنهن على اتفاق مع الشيطان، فيُحكم عليهن بالإعدام حرقاً، إذ كان يجب التخلص من آثار أجسادهنّ. شهد كل من القرن السادس عشر والسابع عشر آلاف النسوة اللاتي حُكم عليهن بالإعدام على المحرقة، ونخص بالذكر إنكلترا، وفرنسا، وألمانيا، وبوهيميا، وبولونيا. بدت الشعوذة متعارضة مع نمو الفكر العلمي في عهد النهضة.

مدير الضمائر

– إنهنّ الخاسرات في كل الأحوال. هذا هو مصير النساء اللاتي يحاولن إدارة دفة الحوار! إن الراهبات والمشعوذات بل وأيضاً الفتيات في عمر الزواج ثم النساء المتزوجات، كلهن اصطدمن بسلطة رجال الكنيسة.

– نعم. فالكنيسة الكاثوليكية هي مُنشأة تتضح فيها هيمنة الرجال. الكهنة هم من يديرون أسرار الكنيسة، ويقيمون القداس، ويقومون باستحالة القربان إلى الجسد، ويناولون القربان المقدّس، ويحملون الضمائر على الاعتراف ويوجهونها. يبقى مدير الضمائر حاضراً في الدير إلى جانب الراهبات. كما يحضر في الحياة المدنية إلى جانب الفتيات والشابات المتزوجات. إنه يسيطر على ضمائرهن وسلوكهنّ من جراء حرصه على سرية توبتهن. تراقب الكنيسة من خلاله رعاياها. لقيت هذه المراقبة في بداية القرن السابع عشر دعماً بصدور تعليمات صارمة من قبل معارضي الإصلاح. أظهر بعضهم استياءه من هذا النفوذ – والمثال على ذلك هو شخصية "طرطوف" Tartuffe للأديب موليير. حرص الجنسينيون[1] القريبون من البروتستانت على انتقاء مدراء ضمائر يستطيعون التحدث معهم. لكن لويس الرابع عشر، الحاكم حقيقي لمعارضي الإصلاح، لم يحتمل أي شقاق فبادر إلى نفي راهبات دير بور رويال Port Royal. وبعد الثورة الفرنسية، راهنت الكنيسة بشدة على مدراء الضمائر

(1) Les Jansénistes مذهب مسيحي انتشر في فرنسا منذ عام 1640 على يد رهبان وراهبات دير (بور رويال)، ويؤمن هذا المذهب بقضاء الله وقدره منذ الأزل، وأن السلطة المطلقة للنعمة الإلهية، وينفي حرية الإنسان في اختيار مصيره. ومن الناحية الأخلاقية يقضي هذا المذهب بالتزام الفضيلة الصارمة المتقشفة بصرف النظر عن قضاء الله للنفس في هذه الحياة أو في الآخرة- المترجم.

"لمراقبة" النساء. بينما أظهر الجمهوريون في القرن التاسع عشر سخطهم على أولئك الكهنة الذين يحاولون الوصول إلى أسرار العائلات من خلال النساء.

– في المقابل، لا وجود للكهنة عند البروتستانت، هل هذا يعني غياب مدراء الضمائر؟

– حافظ لوثر[1] على الكهنوت، في حين أبطلها كالفن Calvin[2]. يرى كالفن أنه لا وجود حقيقياً للسيد المسيح في سر القربان المقدّس، فلا حاجة إذاً لارتقاء الكاهن ولا لوساطته. لكن القسيس البروتستانتي هو رجل في النهاية، فحافظ كل من لوثر وكالفن على النظام البطركي حول الزواج والحياة الخاصة حسب مفهومهما. مع ذلك بقي المذهب البروتستانتي كبالون أوكسجين بالنسبة للنساء داخل النصرانية.

– لقد رأينا أنهنّ تعلمن القراءة وبالتالي الكتابة؛ هل بإمكانهن أيضاً إدارة دفة الحوار؟

– لا زال الكلام من اختصاص الرجال، إلّا أن ذلك أحدث فجوة صغيرة مع البروتستانت. ففي كل مرة تثار فيه "صحوة البروتستانت الكبيرة"، وهي لحظات العودة إلى التقوى الشديدة، تكون النساء حاضرات ويشاركن في التعبير عن رأيهن. هذه ليست بدعة بالنسبة للبروتستانت بل إنه تسامح ناجم، تسامح نجده أيضاً عند مؤيدي العقيدة التقوية في ألمانيا، وعند المتزمتين من البروتستانت الإنكليز، وعند الميثوديين[3] وقليلاً عند المَشيَخيّة. وفي بريطانيا الجديدة وأمريكا يجتمع حول الداعيات آلاف الأفراد. مما لا شك فيه أن هذه الحركات تبقى هامشية عند البروتستانت، ولكنها موجودة. ومن جهتها تقع الكنيسة الكاثوليكية في تناقض في هذا المجال، فهي تضيّق الخناق على النساء في مراقبتهن ومن جهة أخرى تسمح لهن بالمطالعة والكتابة داخل الأديرة. ومن المعروف أن النساء لا يبقين سلبيات أبداً. حتى في القرون الوسطى، وداخل الكنيسة الكهنوتية تخصص المرأة لنفسها مساحات من الحرية، والثقافة، والسلطة، والمتعة، والرغبة (حتى لو تعلق الأمر بالرب). ها هي الراهبات تطور نمط التعليم للبنات. كان للأورسوليات تأثير هامٌ قبل الثورة سرعان ما وجدنه لاحقاً. في القرن التاسع عشر، قمن بتأسيس وإرساء

(1) لوثر (1483-1546) رجل دين ومصلح ألماني- المترجم.

(2) كالفن (1509-1564) مصلح فرنسي من أنصار أفكار لوثر- المترجم.

(3) إحدى الفرق الدينية في الكنيسة، تعتمد المعالجة الطبية حسب قواعد ونظريات منتظمة - المترجم.

كهنوتٍ كاملٍ لتعليم الفتيات. واهتمت الكنيسة بتعليم النساء لدرايتها بنفوذهن وسط عائلاتهن، وعملت على تحديده بما يتلاءم مع الأوساط الاجتماعية: تتلقى بنات الطبقة الأرستقراطية العلم عن طريق معلمات مربيات؛ بينما تذهب بنات الطبقة البورجوازية إلى المدارس الداخلية الصغيرة (مدام بوفاري خير مثال) أما بنات الطبقات الشعبية فإنهن يجتمعن في المشغل.

نساء "فوق العدد المطلوب"

– إضافة إلى التعليم، ألا تكتسب بعض الراهبات شكلاً من أشكال السلطة الاجتماعية عندما يُبدين اهتمامهن بالفقراء؟

– هذا يخص الراهبات اللاتي لا يُقِمْنَ في الدير. وإلّا فموضوع الإحسان يدخل في اختصاص النساء الكاثوليكيات ورئيسات الجمعيات الخيرية، فهن يَقُمْنَ بجولات على الفقراء، ويعتنين بالمرضى، ويغلقن أعين الأموات في المستشفيات. بالفعل، عندما تعمل هذه السيدات في مجال الإحسان، فإنهن يعملن على تطوير السلطة إلى جانب العلم الاجتماعي. وعندما تهتم هذه النساء بدورهن (حيث إن بعضهن يجدن هذا العمل مملاً ويعدلن عن صعود درجات السلم المتزعزعة لبيوت الفقراء)، فإنهن يحصلن على ما يسمى "بعلم الفقراء". في القرن التاسع عشر، قمن بفتح ما يسمى بالمطعم الشعبي للفقراء، وشاركن في إطلاق العنان للبرّ والإحسان، الذي هو شكل من أشكال عمل الخير المنظّم وفق المبادئ العلمانية. حتى إن بعض زوجات الصناعيين نبهّنَ أزواجهن للبؤس الذي يقبع فيه العمال.

– مجمل القول، لقد استبقن نظام المساعدة الاجتماعية.

– بالضبط. ومن بين كفاءاتهن هناك جانب يتعلق بالطب، وآخر يتعلق بالقانون الاجتماعي والنفسي. كما أنهن أسسن الجمعيات، وقمن بتنظيم الأسواق الخيرية التي شغلت حيزاً هاماً. بهذا الشكل اطلعت النساء على بعض نواحي الحياة الاقتصادية. وشكّل جيش الخلاص عند البروتستانت من جانبه في القرن التاسع عشر مؤسسة كبرى، أسسها وليام بوث William Booth وزوجته وكان لهما عدد كبير من البنات اللاتي أخذن بزمام السلطة. وبما أن النظام داخل مؤسسة جيش الخلاص كان

عسكرياً، أصبحت رتبهن "رُوّاداً" و"عقداء"، وما لبثن أن طوّعن تحت لوائهن نساءً أخريات سارعن بدورهن إلى ارتداء لباس العمل.

– في نهاية المطاف، يمكننا القول بأن النساء يشعلن النار في كل قطعة خشب يرونها. فما أن يعطيهم أحدهم حيزاً صغيراً حتى يبادرن إلى توسيعه.

– نعم. حتى الحياة الدينية شغلت حيزاً لا بأس به. لست بصدد الإطراء على الكنيسة الكاثوليكية التي تمثل نفوذ الرجل المعروف بعداوته للنساء، ولكن يبدو أن الالتباس يخيم على الحياة الاجتماعية بأنواعها. مما لا شك فيه أن النساء مارسن بعض السلطة في الحياة الدينية لكن كان عليهن البقاء تحت سيطرة الرجل، سواء كان الأب أو الزوج أو الأسقف، أو رئيس دير الرهبان... والمرأة التي ليس لها معيل تواجه خطراً جسيماً.

– وما هو مصير البنات اللاتي لم يتزوجن ولم يدخلن مع ذلك إلى الدير؟

– لم يكن عددهن كبيراً، وفي هذه الحالة كن يلزمن بيت العائلة. ذلك كان نموذج الخالة السيئة الطباع أو بيت Bette ابنة عم بالزاك. فالمرأة التي لم تجد الرجل المناسب أو لم يقع اختيار أي رجل عليها تبقى موضع شبهة. مع ذلك هناك بعض النساء اللاتي كنّ يرفضن فكرة الزواج، ليس لأنهن لا يثرن رغبة الرجال بل لأنهن متمردات. وشهدت نهاية القرن التاسع عشر ارتفاعاً ملحوظاً في عددهن، تزامن مع تطوّر التعليم لدى البنات. كان بمقدورهن من ذلك الحين أن يتقاضين مالاً لقاء العلم الذي يقدّمنه في سوق التوظيف، وأن يصبحن مدرسات أو معلمات أو مربيات. ساد الحديث في إنكلترا عن المتحللات المثيرات لسخرية الجميع من جراء ادعائهن الثقافة. كما ساد الحديث عن النساء "العالة" اللاتي لا يرتجى منهن أية فائدة. والمرأة التي لا تخضع لسلطة رجلٍ ما تبقى موضع قلق الجميع، فهي لا تلبي المعايير المتفق عليها. تعكس لنا الروايات صورة المربية، إنها تلك المرأة الفاتنة والفاسقة بعض الشيء.

الاغتصاب الاعتيادي

– اعتُبرت المرأة التي "ليست مُلْكاً" لأي رجل مصدر خطر، في الوقت الذي تجد فيه نفسها عرضة للخطر...

– هذا صحيح. فالاغتصاب هو الخطر الذي يحيق بها منذ الأزل. وكل شيء يدل على أنه موجود في كل زمان. لم تردنا أخبارٌ كافية عن هذا الموضوع في العصور القديمة، فالبنات كنّ ينتقلن مباشرة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد. فما إن تبلغ الفتاة هذه السن حتى يتم تزويجها بل وأحياناً قبل ذلك. أكدت الكنيسة في العصور الوسطى أن الاغتصاب خطيئة، ويفترض من الفارس حماية الأرملة، واليتيم، والفتاة المعرّضة للخطر. لكن الأخلاق اختلفت، فأصبح اغتصاب الفتيات مقياساً للرجولة عند الصبيان، وبشكل خاص الاغتصاب الجماعي الذي يعتبر مفخرة العصابة. إنها مأثرة ينفّذونها سوية لدعم وحدة مجموعتهم. وهكذا تجتاح مجموعة من الشبان القصور والقرى، ويتفاخرون فيما بينهم بإنجازاتهم. إنهم يعتبرون إكراه الفتاة، خاصة إذا كانت عذراء، نصراً لهم، حيث إنهم لن يتخذوا منها زوجة، وعلى الفتاة أن تتمنع، وتحمي عذريتها، في حين يحاول الذكر الغازي أن يتغلّب عليها كما يقتحم القلعة. هناك تكافؤ واضح بين الفتاة والقلعة. التغلّب على الفتاة بالقوة، واقتحام القصر أو المدينة، تعتبر كلها بمثابة طقس لإثبات نكورة الشاب. إنها الحرب.

– هل تستطيع الفتاة التي انتُهك عرضها أن تشتكي؟

– تعتبر الفتاة التي فشلت في الدفاع عن نفسها إنسانة مذنبة. ويعتقد الجميع أن كل شيء تمّ بموافقتها: "كان لها ما أرادت". إنها بشكل أو بآخر مسؤولة عما حدث، ما كان عليها أن تتواجد في ذلك المكان المشبوه. أما في القرية فيشيع الخبر في كل مكان، الكل يَعتبر أن شرفها قد دُنّس، لقد فُضَّتْ عذريتها، ولن يقبل بها أحد كزوجة له. وفي أغلب الأحيان لا يبقى أمامها سوى طريق واحد هو طريق البغاء في المدينة.

– في أي وقت من الأوقات استحق الاغتصاب التوبيخ واللوم؟

– أثيرت قضايا عدة في القرن التاسع عشر وكان موضوعها "ضرب وجروح". لكن انتهاك العرض الذي يتم بشكل جماعي هو الجريمة الوحيدة التي يعاقب عليها القانون: حيث إنه من المعلوم أن الفتاة عندما تتعرّض للاغتصاب على يد مجموعة من الشبان فإنها تعجز عن الدفاع عن نفسها. وكانوا يقولون: "بإمكانها أن تدافع عن نفسها في حال انفرد بها رجل واحد، أما إذا تمكن منها فهذا دليل

على أنها لم تكن جادة في المقاومة". أحياناً قد يمنح الآباء ثقتهم لابنتهم وهم على علم بالعنف الذي تعرضت له، يحاولون إصلاح الموقف ولكن لا أحد ينصت إليهم. يدّعي الفاعل بشكل عام أنه تعرّض "للإثارة"، في هذه الحالة يُصدّق الرجل وتُكذَّب المرأة (إلّا في حال كان الفتى ذا سمعة سيئة). لهذا السبب تندر حالات البحث عن الحقيقة في مثل هذه القضايا. كل ما نعرفه هو ضرورة إخضاع الفتاة لفحوص طبية، علماً أن الأمر سيكون شديداً عليها. في أغلب الحالات، تلوذ الفتاة بالصمت وكل ما ترجوه ألا تجد نفسها حاملاً. ساد صمت غريب حول الاغتصاب، لم يطرأ تغيير إلّا في موضوع الأطفال، هذا ما أشار إليه جورج فيغاريلّو[1] Georges Vigarello.

– وبالتأكيد انتشر انتهاك الأعراض "كسلاح حربي" في كل الأزمنة.

– نعم. يشكل انتهاك الأعراض أحد بنود الغزو. عندما يدخل الطرف المنتصر إلى المدينة، تمارِس فرقه المحارِبة كافة الحقوق على سكان البلد، وتصبح أجساد النساء هدفها الرئيسي. ويتغاضى الضباط عما يحصل. لا يوجد ما هو أسوأ من الحروب الأهلية. عندما يتم الاستيلاء على قرية ما، تُسبى النساء من قبل الجنود المنتصرين؛ وعندما يستعيد الأهالي قريتهم يتهمون النساء بحسن استقبال الجنود المغتصبين، ومرة أخرى يتعرضن للاغتصاب. تعيش النساء هذا الرعب في كل الحروب. الكثيرات منهن ينتحرن بينما تؤْثر الأخريات اللجوء إلى الصمت.

– وكذلك الأمر خارج نطاق الحروب، تصمت النساء أمام التحرش الجنسي، الذي غالباً ما ينتهي بالاغتصاب.

– في الماضي كان يطلق على التحرّش الجنسي تسمية "حق التفخيذ"[2]، ومن الناحية النظرية، كان هذا امتيازاً يحظى به السيد. يعتقد المؤرخون أن هذا الأمر لم يكن معترفاً به كحق، كما أنه لم يحظَ بموافقة الكنيسة في وقت من الأوقات.

– لكن في الحقيقة...

---

(1) جورج فيغاريلّو في كتابه "تاريخ الاغتصاب، بين القرن السادس عشر والقرن العشرين"، باريس، دار سويل للنشر، 1998.

(2) وهو حق السيد في القرون الوسطى في أن يتمتّع بالعروس في الليلة الأولى - المترجم.

– في الحقيقة كما في التصوّر، كان السيد ينفرد برعاياه. تتضمّن حيازة السلطة أيضاً السيطرة على أجساد النساء. لقد شاهدنا ذلك داخل أسوار القصر حيث يبقى باب غرفة السيدات مفتوحاً على مصراعيه. فكانت تتم حالات الاغتصاب والملامسة. أما بالنسبة للأوساط الأكثر تواضعاً، فكانت النساء يتعرّضن لمثل هذه الانتهاكات في مكان عملهن. حيث كان يشعر صاحب العمل أن من حقه التحرش الجنسي بالخادمة، كما أن صاحب المزرعة يلاحق الخادمة ويهددها إن هي لم تستسلم له. أحياناً كانت صاحبة المنزل تتواطأ، فتفضّل أن يقيم ابنها العلاقات مع الخادمة الصغيرة، النضِرة، القادمة من الريف على أن يذهب إلى الماخور حيث الفرصة مهيأة للإصابة بالأمراض. كانت النساء تواجه صعوبات جمّة في الحفاظ على أجسادهن من طمع الرجال الذين يعتبرونه حقاً لهم.

– وماذا كان باستطاعتهن أن يفعلن؟

– كنّ يدافعن عن أنفسهن، ويلجأن إلى الحيلة، ويبحثن عمّن يحميهن... وكنّ يلجأن إلى الدير للإفلات من عملية ممارسة الجنس التي لا يرغبن فيها، حيث كانت شديدة الوقع عليهن وعنيفة فيحتمين بالكنيسة التي تضم بين جدرانها التباس الدير والعفة... دخلت النساء في صراع مستمر وغير متكافئ ليقفن في وجه القوة الجسدية للرجال وشهوتهم تحقيقاً لرغبتهن العميقة والدفينة في التصرف بجسدهن.

– عندما نقترب من العصر الحديث نلاحظ تكرار حالات التحرش الجنسي داخل المعمل والمخزن والمكتب.

– نعم. يَعتبر رئيس العمال أو رئيس القسم أن الأمر اعتيادي، وأن على الفتاة أن "تخضع لهذه التجربة". وهذه العبارة تكررها الفتيات على كل حال: "لا بد من ذلك". لكن تمردهن كان يتفاقم يوماً بعد يوم. اعترضت نقابات العمال على "حق التفخيذ" الصادر عن رؤساء العمال. لقد أشعلت حادثة مماثلة إضراباً كبيراً في ليموج Limoges عام 1905 استلهم منها جورج إيمانويل كلانسييه Georges-Emmanuel Clancier روايته "الخبز الأسود" Le Pain noir. كان نائب مدير معمل البورسلين يمارس حق التفخيذ بشكل منتظم؛ فتقدمت إحدى الفتيات بشكوى مما أثار نخوة العمال. تحول الاعتراض فيما بعد إلى إضراب من أجل الرواتب وغاب عن الأذهان الغرض الرئيسي من الإضراب الذي كان سبباً في حنق العمال تجاه حق التفخيذ.

"وماذا لو كان الضرب يروقني!"

– انتهاك الأعراض، والضرب، وأحياناً القتل...تلك هي التهديدات التي تتعرّض لها الفتيات اللاتي يعشن بمفردهن أو تلك اللاتي "يتمرّدن على وضعهن".

– هذا لا ينطبق على الفتيات فقط بل يتعداهنّ ليطال الزوجات أيضاً، فالزوج هو من يمارس العنف ضد زوجته. إنه لأمر طبيعي أن تُضرب الزوجة! اعتُبر الضرب من ضمن سلطات الرجل في القرون الوسطى. كانوا يشبّهون المرأة بالطفل والحيوان، بسبب افتقارها إلى العقل. وفيما بعد، جاء قانون نابليون ليعترف ضمناً بهذا الحق ويمنحه للأب والزوج الذي يمسك بزمام السلطة ويستطيع أن يمارس كافة الحقوق على زوجته وأولاده. وله مطلق الحرية في ضرب زوجته إن هي قاومته. حتى إن الأخلاق الشعبية تتقبّل هذا الفعل ولكن ضمن حدود المعقول. فالعنف مسموح به وخاصة في الأحياء الشعبية حيث الجدران رقيقة، والمساكن صغيرة، كان يتناهى إلى المسامع في كثير من الأحيان: " آه، لقد عاد فلان، ها هو يضرب زوجته!" ذهب الزوج إلى الخمّارة وعاد إلى المنزل لينتهي الأمر بالضرب. أما في الأوساط البورجوازية فكانت المرأة تتعرّض لضرب مبرّح. ثم هناك الجواب الشهير لإحدى شخصيات موليير: "وماذا لو كان الضرب يروقني؟" لقد ساد الاعتقاد أن المرأة تختبر رجولة زوجها بهذا الأسلوب. إذا كان فاقداً للسلطة، ولم يدافع عن شرفه، فالأمر جد سيئ. تميل المرأة إلى الدفاع عن حياتها الزوجية مبررة الوضع: "لا شأن لكم بهذا".

– وغالباً ما تصب المرأة جام غضبها على أولئك الذين يحاولون مساعدتها؟

– نعم. يدهشنا موقف بعض النساء المستسلمات والخانعات حتى النهاية، ويستنكر الرأي العام موضوع العنف عندما "يتجاوز حده المعقول"، أما إذا كان مقبولاً فلا أحد يهرع إلى نجدة المرأة. حاولت بعضهن التقدم بشكوى أمام المحكمة، لكن عددهن كان محدوداً، ثم ما لبثت الشكاوى أن كثرت مع بدايات القرن الثامن عشر. لم يكن الطلاق وارداً، لكن النساء بدأن يضعن المعاملة القاسية في مقدمة ظلامتهن ليحصلن من القاضي على حكم "بالانفصال الجسدي بين الزوجين". وشيئاً فشيئاً تبدلت الحساسيات وساد الاعتقاد أنه من حق المرأة ألا تتعرّض للضرب أو على الأقل مراعاة الاعتدال في ذلك. كان على المرأة أن تنتظر

طويلاً قبل أن تشكّل نشاطات جماعية لتقديم الاعتراض ضد العنف الذي يمارس ضدها حتى من قِبل أولئك الذين يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة حيث لا يُصنف هذا ضمن أولوياتهم. وحتى اليوم، لا تتجاوز الشكاوى المقدَّمة للقضاء حول موضوع انتهاك الأعراض 5% من القضايا. صمتٌ عميق يطبق حول هذا الموضوع سيما وأن العنف يتراءى بأشكالٍ متنوعة داخل الغرفة الزوجية. انتهاك للأعراض، والضرب والمضايقات السلوكية. أشارت استقصاءات حديثة العهد بأن النساء لا زلن يتعرضن للعنف الشديد[1].

– على كل حال لم يمض وقت طويل على تداول مفهوم "الاعتداء الزوجي".

– عشرون عاماً ونيف. لم تطرق فكرة "الاعتداء الزوجي" ببال أحد في الماضي: كان "الواجب الزوجي" هو الموضوع الشائع. فما إن تتزوج المرأة حتى تُطَالَب بتقديم الخدمات الجنسية لزوجها. ويعتبر تمنعها مخالفاً للشرع.

– وكانوا يختلقون الأعذار "للجريمة الغرامية" الذائعة الصيت...

– عاقب القانون على الجريمة الغرامية من حيث المبدأ. ولكنها كانت تعتبر شرعية على الصعيدين الأخلاقي والاجتماعي، فهي تشبه جريمة الشرف. كانت تتم تبرئة ساحة الرجل الذي يقتل زوجته الخائنة. ولم يُفتح باب النقاش إلّا عام 1875. وبدأت المحاكم حينها تصف هذه الجريمة بأنها تستدعي اللوم في الوقت الذي ما زالوا يختلقون لفاعلها الأعذار. وهكذا شهدنا بعض الإدانات. لكن ألكسندر دوماس الابن اعتقد أن عليه أن يخط نصاً لصالح الرجال الذين "يدافعون عن شرفهم". وقوبلت الجريمة الغرامية في العالم الغربي – التي يقترفها الرجل – بمنتهى التسامح حتى نهاية القرن التاسع عشر.

فتيات "تائهات"

– "الواجب الزوجي"، الضرب بل وحتى الجرائم التي ترتكب بحق الفتيات في حالات سلوكهنّ السيئ... أصبحنا ندرك سبب رفض بعضهنّ للزواج! لكن الفتيات اللاتي يعشن

(1) "الكتاب الأسود عن النساء"، باريس، دار فيكسوت للنشر، 2006.

وحدهن، من دون مورد رزق، أو كما ذكرتِ "اللاتي تعرّضن لتدنيس شرفهن" فإنهنّ معرضات للسقوط في البغاء.

– نعم. معظم هذه العاهرات يعشن في مهب الريح، لا أحد يحميهن، كما أن لكل واحدة منهن قصتها المأساوية. فهن إما تعرضن للاغتصاب أو طُردن من العائلة أو أنهن ضحايا فاقة كبيرة... لقد انتشر البغاء في كل الأوقات وفي كل الثقافات على اختلاف الأوضاع الاجتماعية. أشارت فرانسواز إيريتييه Françoise Héritier إلى أن مجتمع الإغريق كان يُكنّ التقدير للمرأة البغيّ. كذلك الأمر في روما، حيث تستطيع الزوجة الشرعية التي أنجبت لزوجها ثلاثة من الأطفال الذكور، أن تقلع عن الحياة الجنسية – وكان هذا الحال منتشراً بكثرة، مما يدل أن هذه الحياة لم تكن مصدر سعادة للمرأة، فتعتكف في منزلها بينما يذهب الزوج لملاقاة العاهرات في المواخير، أو يأتي بهنّ إلى البيت، وكان على الزوجة أن تتقبّل وجودهن. ثم فيما بعد في القرون الوسطى، أصبحت سمعة هذه العاهرات في الحضيض، وأدانت الكنيسة من جهتها هذه "الفتيات الفاجرات" ولكن من دون محاسبتهن. ففي النهاية، كان "لا بد من هذا المرض". يعتمد هذا التسامح على مفهوم الحاجة الجنسية لدى الذكور التي تُعتبر حاجة شرعية لا يمكن التغلب عليها: فتأتي البغيّ لتخفف عن الزوج المحروم ولتعلّم الشبان. كانت بيوت الدعارة (المواخير) تقام على مشارف المدن، أو في الأزقة المشبوهة من العاصمة. لقد أعيد طرح هذا التنظيم الخفيّ على بساط البحث مرة أخرى في القرن التاسع عشر، حيث أرادت الدولة فرض رقابتها على الوضع وتنظيم "بؤرة الفساد المنوي" وخصوصاً لأسباب صحية. بدأ الأمر في إنكلترا ثم تلتها فرنسا حيث كتب الدكتور باران دوشاتوليه Parent-Duchâtelet عام 1836 "عن البغاء في مدينة باريس". اكتسب الكتاب أهمية كبرى إذ جاء كأول بحث من نوعه في علم الاجتماع، كتبه طبيب حول هذا الموضوع. لقد عكس هذا الكتاب سلطة الطب والاهتمامات الصحية للعصر، غير أن باران دوشاتوليه حاول توظيف أساليب حديثة: فقد اتبع طريقة الإحصائيات واستند إلى استبيان رأي للنساء. لم يكن مرتاحاً لدى مقابلتهن لذلك اصطحب معه شرطياً، مما أحدث تشويشاً أثناء الحوار! لكنه كان يهدف إلى سماعهن واستيعابهنّ.

– وكيف كان موقفه منهنّ؟

– في الواقع لم يستنكر أقوالهنّ. لم تكن تلك النساء المسكينات يملكن الخيار،

بل كنّ يثرنَ شفقته. كان متفهماً لهذا الوسط. لقد صور لنا نساءً لا يشعرن بأية متعة أثناء تأديتهن "لمهنتهنّ" واللاتي عندما يبحثن عن الجنس، كنّ يزاولنه مع نساء من بنات جنسهن – فشاع الكلام عن السِحاق وعن نساء مساحِقات، أي أنهن يمارسن الجنس فيما بينهن ويرفضن أي تماس مع الجنس الخشن. يشير باران دوشاتوليه إلى أن البعض منهن كنّ يسعين للإنجاب بل ويسهرن على رعاية أطفالهنّ على الوجه الأمثل. أما الأخريات فكنّ يمارسن البغاء خلال فترة محددة من حياتهن: "سأقوم بادخار بعض المال، ثم سأتزوج".

– هل كان هذا ممكناً؟

– أكثر مما نتصوّر. لم تكن الأوساط الشعبية تستنكر هذا العمل بالدرجة المطلوبة. فما أن تتزوج عاهرات الأمس حتى يصبحن "زوجات شريفات" مثل باقي الزوجات. نزع باران دوشاتوليه طابع الأسطورة عن النساء العاهرات، كما قلّص من عددهنّ. بدت باريس في القرن التاسع عشر كأنها "ماخوراً" حقيقياً أو "بابل". هذه مبالغة لا ينبغي الوقوع فيها. وفقاً للحسابات التي أجريت عام 1835، كان يفترض أن يبلغ عدد العاهرات حوالي الاثني عشر ألفاً في مدينة كباريس يبلغ تعداد سكانها الثمانمئة ألف نسمة. لهذا السبب سعت الدولة إلى تنظيم البغاء. فتم إغلاق المواخير وتسليمها إلى مسؤولات (غالباً ما يتم اختيارهن من بين العاهرات اللاتي تخلين عن مزاولة المهنة وأصبحن جديرات بالاحترام) يحملن رخصة صادرة عن مركز الشرطة. فتعهدت هذه النسوة احترام الآداب العامة والبرهنة على حسن السلوك من خلال مراقبة الفتيات التي يجب أن يحملن بطاقة ويخضعن لفحوصات طبية من خلال زيارات منتظمة إلى المصحات والمستشفيات. عُرِفت سان لازار Saint-Lazare في باريس بأنها تضم سجناً للعاهرات إلى جانب كونها مستشفىً.

– هل تعني البطاقة رخصة عمل. فتشير العاهرة التي تخضع للمراقبة بهذه الطريقة بأنها في دورتها الشهرية، هل هذا صحيح؟

– نعم هذا صحيح. هناك إذاً العاهرات "السليمات"، المحترفات، اللاتي يخضعن للمتابعة والمراقبة ولا ينقلن مرض الزهري، بل قد يعطين نصائح صحية للرجال أو نصائح لمنع الحمل. وهناك المومسات اللاتي يعملن في الخفاء، وقد عُرف عنهن أنهن متمردات وخطيرات ولا يتناهين عن التحرش بالمارّة، وغالباً ما يترددن

على الفنادق التي لا تخضع للنظام. لا تبدي الشرطة أية رحمة في التعامل مع هذه النسوة، فكل شيء مهيأ لدفعهن إلى ممارسة البغاء المنتظم.

بيت الدعارة أو الماخور

– ننتقل من المومس التي تعمل في الخفاء إلى المرأة المُعالة "التي ينفق عليها عشيقها"، فعالم البغاء له ترتيبه الخاص.

– نعم إنه يخضع لنظام تسلسلي ممنهج، خاصة إذا تناولنا مفهوم البغاء بمعناه العام: بيع الجسد لقاء الحصول على حفنة من المال والمزايا من دون زواج. فكلما ارتفعت نسبة التمدّن والتعقيد في المجتمع لجأت الأوساط الشعبية على اختلافها إلى البغاء، وتوطّد تسلسل عالم البغاء. كان المهاجرون القادمون من الريف إلى باريس في القرن التاسع عشر يفتقرون إلى المال، فيذهبون لملاقاة العاهرات من "البيئة الدنيا"، وغالباً ما يعودون إلى نفس النساء في كل زيارة. أما عندما يتعلق الأمر بالزواج فيقع اختيار هؤلاء الشبان على "فتاة طاهرة" من قريتهم؛ فهم لن يرتبطوا على الإطلاق بفتاة من باريس، عاصمة الرذيلة! أما الزوج المنحدر من الطبقة البورجوازية الذي يشتكي من عدم قدرته على ممارسة الجنس بشكل مكثّف أو بشكل رفيع فإنه يفضّل الذهاب إلى إحدى تلك البيوت. في كل قرية من الريف يوجد ماخور عالي المقام كالذي وصفه موباسان Maupassant في رواياته، وخاصة في قصته بعنوان "بيت تيلييه" La Maison Tellier حيث يجده الرجال الذي اعتادوا على ارتياد بيوت الدعارة مُقفلاً بسبب مناولة حفيدة إحدى تلك السيدات فيبادرن إلى إغلاق المنزل لحضور القربان المقدّس سوية في القرية برفقة بعض الزبائن.

– هل يمكن القول بأن "بيت الدعارة" هو بيئة اقل وحشية من "فندق الدعارة"؟

– نعم، كان بيت الدعارة مؤلفاً من شقق صغيرة خاصّة تستقبل النساء اللاتي ينفق عليهن عشاقهنّ. كانت هذه النساء يعاشرن عدة رجال، غير أن عددهم كان أدنى من عدد أولئك الذين تعاشرهم البغيّ. فالعامل الأساسي هو الوقت: كانت هذه النساء يقضين وقتاً طويلاً في التأهب والحديث وتوزيع الحركات المثيرة. يمكن

أن نتصور هنا إثارة جنسية من النوع الرفيع مختلف عن اللقاء "العابر" السريع. لم تكن البعض منهن سيدات مجتمع بكل معنى الكلمة، ولكنهن كنّ على قدر كبير من الجمال، نذكر على سبيل المثال كُلًّا من ليان دو بوجي liane de pougy أو كليو دو ميرود (Cléo de Mérode). لقد كانتا شهيرتين وتتمتعان بنفوذ إلى درجة أصبحتا مثالاً يُحتذى من قِبل النساء اللاتي يطمعن في الحصول على قدر أكبر من الحرية. في قصصها التي تروي فيها سيرتها الذاتية، تقص علينا كوليت Colette كيف استطاعت كليو أن تنقلها إلى عالم الأحلام...

– هذا ما نجده عند بروست أيضاً.

– نعم. في روايته بعنوان "غرام سوان" Un amour de Swann، يظهر سوان "زيراً للنساء" ويقع في غرام امرأة تدعى أوديت كريسي، كانت تعمل سابقاً في مجال الفن. وبعد أن سئمت من التسلية، اتجهت إلى عالم الغزل، ولكنه غزل من النوع الرفيع. عندما يذهب سوان للقائها، كان يستخدم عبارة (لنمارس الكاتليا) وهي عبارة تحمل مغالاة في التكلّف ليقول "لنمارس الحب"، حيث إن الكاتليا هي من أنواع الأزهار التي تزين بها أوديت جيدها، وعندما يمارس معها الحب يستأذنها سوان لإعادة الزهرات إلى مكانها. لكن سوان على علم بأن هناك عدة رجال يترددون عليها وهذا ما يسبب له الألم. فيقرر أن يرتبط بها لكي ينفرد بها لنفسه... لكن قراره يأتي في الوقت الذي لم يعد مغرماً بها.

– هذا يدلنا إلى أية درجة يمكن للعلاقات بين الرجل والمرأة أن تصبح خانقة بل قد تصبح منبعاً للقلق في حقبة كانت تخضع لضوابط منتظمة تحت إمرة الملكة فكتوريا.

– بالفعل. إليك مثالاً آخر: كثيراً ما يتكلّم فرانز كافكا Franz Kafka[1] عن فتيات يستهوينه، فيراهنّ رمزاً للجمال والطهر. يريد الاقتراب منهنّ ولكن الفكرة التي كونها عنهن جعلته عاجزاً عن ذلك. فيقرر الذهاب إلى بيوت الدعارة ويقيم علاقات مع العاهرات إذ إنه لا يكنّ تجاههن الكثير من الاحترام فيبدو له الأمر أكثر سهولة.

(1) كافكا (1883-1924)، اديب تشيكي كتب بالالمانية، عكست مؤلفاته الرمزية القلق البشري أمام لامعقولية الوجود المتزايدة مع إنشاء المؤسسات الاجتماعية- المترجم.

يا للجرذان المسكينة!

– يحمل القرن التاسع عشر في طياته تناقضاً كبيراً على الرغم من تصنّع الحياء الذي كان سائداً فيه...

– من جهة نجد حشمة بالغة تنم عنها المواقف المتزمتة والوقورة للفتيات والزوجات على حد سواء والتي ليس عليها أي غبار، ومن جهة أخرى يظهر لنا النشاط الجنسي من دون قيود حيث يُعَبِّر عنه بفظاظة مخفر الحرس ويتمثّل بالنساء القادمات من عالم المومسات اللاتي يواظب على التردد عليهنّ الرجال في بيوت الدعارة. تروي بعض الفنانات أنهن يسارعن إلى اتخاذ الوضعية المناسبة ويرفعن أرجلهن على الكراسي حال وصول العشيق المتلهف، ومن ثمّ، يمكن الانتقال إلى أي شيء آخر! هناك عالم خاص يحيط بالفنانات والراقصات والمغنيات. يتميّز عالم الفنانات بشكل خاص بالتسلسل المنتظم وهو أقرب ما يكون من عالم الدعارة. يحاول عدد كبير من الرجال الميسوري الحال ومن ذوي المقامات العالية نيل الحظوة لدى إحدى الممثلات الشهيرات، كما يعتبر رجل المجتمع أنه بلغ الأوج إن هو ظهر على الملأ برفقة ماري دورفال Marie Dorval أو بولين فياردوت Pauline Viardot أو سارة بيرنارد Sarah Barnhardt. تمكنت هذه الأخيرة من إذلال كافة الرجال تحت قدميها وفرضت عليهم سيطرة لا تخلو من نزعة انتقامية، وهي التي تنحدر من بيئة متواضعة. لم تكن من أنصار الحركة النسائية ولكنها لم تكن تقبل في الوقت ذاته أن يسيطر عليها أحد.

– وماذا عن الراقصات، تلك الآنسات اللاتي يرقصن في دار الأوبرا؟

– تأتي الفتيات الصغيرات، أو الجرذان الصغيرة، اللاتي يرقصن في المسرحيات الغنائية، من الأوساط الشعبية وتحلم أمهاتهن بحياة مهنية رائعة مختلفة عن حياتهن الحالية. وما إن تدخل هذا العالم حتى تقبع تلك الفتيات تحت جناح سماسرة الأوبرا وقوّادها، وهم امرأة ورجل يدعيان "والد ووالدة الأوبرا"، يحاول كلاهما تأمين عائل ثري لها. يبادر هذا الأخير إلى إعطاء المال للفتاة ولعائلتها ولا ينسى حصة القوّاد. وما إن تبلغ هذه الفتاة سن البلوغ وتدخل مرحلة المراهقة حتى "يقع عليها الفعل". ولن تتمكن من الخلاص من هذا المحيط ما لم تصبح نجمة. وعندما تظهر موهبة الفنانات يحاولن التخلّص من التبعية والحصول على

حريتهن. لقد اشتهرت ماري تاليوني Marie Taglioni – وكانت الأولى في عصرها التي استطاعت الوقوف على رؤوس أصابعها – مع راقصات أخريات عرفن برفضهن الخضوع لأي شخص.

– هل أبدت النساء رأيهن حول الأسطورة المتعلقة بالرجل والتي تتحدث عن "البغيّ السعيدة"، تلك الفتاة البسيطة ذات القلب الكبير أو تلك البغيّ المتملقة التي من المفترض أن تختار مصيرها وتبتهج في عالم البغاء؟

– هناك القليل من النساء اللاتي أبدين رأيهن حول موضوع البغاء، فيما عدا وجهات النظر النابعة عن أنصار الحركة النسائية. لقد تبنّت هؤلاء الأخيرات موقفاً أخوياً تجاه العاهرات، إذ قلن: "هؤلاء العاهرات هن أخواتنا وضحايا مثلنا". وذهبت أخريات إلى التأكيد أن الأمر سيان بالنسبة للفتاة إن هي " باعت نفسها للرجل من خلال الزواج أو من خلال البغاء". وهناك من اعتبرن أن البغاء ما هو إلّا استعباد لهنّ، و"تجارة الرقيق الأبيض" ما هي إلّا مرض محدق يجب التخلص منه. في نهاية القرن التاسع عشر، أطلقت جوزفين باتلر Josephine Butler البريطانية الجنسية "حملة تطهير". ونظّمت مجموعات نسائية حملات تأديبية عقابية بغية إظهار حقيقة الوضع ضد هذا الرجل الذائع الصيت أو ذاك من الذين يترددون على بيوت الدعارة. وفي عام 1885، جمعت جوزفين باتلر في لندن آلاف المتظاهرات اللاتي هتفن بإدانة القوّاد لا النساء باسم "التطهير". لقد كانت مطالبة فريدة من نوعها، هامّة، ولكن فرص اتباعها لم تكن واعدة. كان يجب انتظار عام 1946 في فرنسا وصدور قانون مارت ريتشارد Marthe Richard لإغلاق بيوت الدعارة. وكان الرمز واضحاً وقوياً: "لم يعد من المحتمل أن نبيع أجساد النساء في بلد محرر كفرنسا حيث مُنحت المرأة حريتها". ولكن البغاء استمر ضمن شروط مستفحلة من خلال استغلال المهاجرات. وبقي النقاش قائماً بين البغاء "المنتظم" والبغاء "الهمجي".

ملجأ سافو

– لا زلنا نبحث في الموضوع الذي أشارت إليه فرانسواز إيريتييه المتعلق بالضرر

الناجم عن شرعية الغريزة الجنسية لدى الذكور وبضرورة إشباعها حيث لا يمكن كبح جماحها. هناك نساء يبحثن عن مخرج بديل عن الحياة داخل الدير إذ لا شأن لهن به، كما أنهن لسن مضطرات للوقوع في البغاء، هذا الطريق هو الجنسية المثلية (المساحقة). لا بد وأنهن اثرن الاستنكار والفضيحة...

– الأمر منوط باختلاف العصور، مع وجود فارق كبير بين الذكر والأنثى. فالحظر على الجنسية المثلية لدى الذكور هو الأقوى. لا بد لنا أن نذكر أن الإغريق أباحوا ذلك، غير أن الكنيسة نهت عنها لما فيها من ضياع للمني ولقوة الإنجاب. أما بالنسبة للنساء فالأمر أقل خطورة حيث يُنظر إليه على أنه علاقة مؤقتة. إذ لا توجد خطورة من تبادل الفتيات المداعبة فيما بينهن، ويبقى الأمر أفضل من إقامة علاقات مبكرة مع الرجال، لأنهن من خلال الجنسية المثلية، يحافظن على عذريتهن.

– وماذا لو جاهرت النساء بالمثلية؟

– هنا يختلف الأمر! لا يمكن أن ندّعي تجاهل الجنسية المثلية، كما لا يمكننا تقبّلها. أصبحت "المجاهرة" مطلب بعض النساء وبشكل خاص الفنانات منهن. لقد شاع الكلام في نهاية القرن الثامن عشر عن طائفة المثلية أو الأناندرين Anandrynes، علماً بأننا لسنا واثقين من وجودها حقاً. كانت الأديبة جورج ساند ثنائية الجنس خلال فترة ما من القرن التاسع عشر؛ وقد قرأنا من خلال الترجمة الأولى لروايتها ليليا (Lélia) دفاعاً عن المثلية الأنثوية وإشهاراً لها. وفي مطلع القرن العشرين، مارست أديبات بريطانيات المثلية بشكل مطابق للجنسية الغيرية[1]؛ وكان هذا حال كل من فيرجينيا وولف وفيتا ساكفيل ويست Vita Sackville-West وفيوليت تريفوزيس Violet Trefusis وكل صديقاتهن. أما في فرنسا، فكانت مجموعة من النساء الأمازونيات (المسترجلات) يجتمعن حول ناتالي كليفور بارنيه Nathalie Clifford Barney في صالونها في شارع جاكوب، وكانت هذه الأخيرة صديقة لرينيه فيفيان Renée Vivien الشاعرة الموهوبة التي كانت تحب أن تقلّد خادم الملك أو الأمير في لباسها وكانت تهتم بخيال الفن الحديث. ساهمت الروايات التي ألفتها كل من كوليت – التي عرف عنها أنها ثنائية الجنس– ولوسي دولارو

(1) التمتع بالاتصال الجنسي مع فرد أو أفراد من الجنس الآخر- المترجم.

ماردروس Lucie Delarue-Mardrus في جعل المثلية الأنثوية موضوعاً أدبياً. وقد برهن كل من ويلي Willy الزوج الأول لكوليت والدكتور ماردروس عن روح التسامح في هذا الصدد، خاصةً وأنهما ساهما في لعبة الوكيل الأدبي! وفي العشرينيات من القرن العشرين في عصر الفتيات المسترجلات في باريس، شاع ذكر - باريس الصبية أو ليسبوس Paris-Lesbos - فكانت هناك محاولات لإعطاء المثلية الأنثوية طابعاً نبيلاً، وخُصّصت أماكن اللقاء، كشقة جيرترود شتاين في شارع فلوروس، أو مكتبات أدريين مونييه Adrienne Monnier وسيلفيا بيتش Sylvia Beach في شارع الأوديون.

- ألم يشكل اختيار النساء للمثلية الأنثوية نوعاً من أنواع المطالبة بالحرية وبالحق في المبادرة والإبداع؟

- بلى، شهدت البلاد خلال حكم الملكة فكتوريا في بريطانيا تطوراً لمطلب الثقافة الأنثوية إلى جانب المثلية الأنثوية في الثانويات والجامعات. فإلى جانب جامعتي أوكسفورد وكامبريدج، أسست بعض النساء جامعات موازية، ومدارس داخلية للإناث كن يقمن فيها. لم يعد الأمر يتعلّق بالمراهقات بل تعداه إلى الشابات اللاتي بلغن سن الرشد. كانت النساء يعشن هناك المثلية الأنثوية المسموح بها، والسعيدة - وكان الأمر يتم بطبيعة الحال بكل المآسي التي تولدها أية قصة حب. على كل حال، شهدت أوروبا في الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية، انفتاحاً واضحاً للمثلية الأنثوية والذكورية على حدٍ سواء. كما شهدنا ذلك في ألمانيا. كان أولاد توماس مان Thomas Mann[1] على سبيل المثال يمارسون المثلية، بينما عمل بعضهم في مسرح روز بلانش Rose Blanche[2]، المركز الهام لمواجهة النازية ولكنه لا ينأى أيضاً عن كونه مركزاً لممارسة المثلية.

---

(1) توماس مان (1875-1955) اديب الماني - المترجم.

(2) نظام روز بلانش وهو نظام وطني فنلندي اسسه عام 1919 مانرهايم، الماريشال ورجل السياسة الفنلندي، حارب ضد روسيا في الحرب العالمية الثانية وعين رئيساً للبلاد ما بين عامي 1944 و 1946 - المترجم.

في منأى عن الفن

– يمكننا القول إن بعض النساء لجأن إلى الفن والأدب في محاولة منهن للتنحي والابتعاد. ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل وقد وجدن مشقة في فرض أنفسهن كمبدعات. إذ كان يُفضَّل حصرهن في عالمي المقتنيات والخيال...

– لم يعرف التاريخ خلال فترة طويلة إلّا نظرة الرجال الموجّهة نحو النساء اللاتي كنّ يَظهرن في التصاوير الجدارية المائية القديمة وعلى الآنية اليونانية. ففي العصور الوسطى، صوّر الفن الديني رؤية القساوسة. ومن جهة أخرى، هناك الفن المدني الذي يمثّل الحياة اليومية بصورتها المضحكة، والتي نجدها في التماثيل الصغيرة وعلى الرسوم الجدارية المائية وتيجان الأعمدة. كما تعكس لنا الرسوم الملونة "أعمال الشهور والأيام" في صور للرجال والنساء وهم يعملون جنباً إلى جنب في الحقل والحصاد وقتل الخنازير. كما نرى النساء وهن يعملن في المطبخ والمغسَل والمتجر. يبدو لنا كل ذلك قريباً من الواقع.

– مع ذلك عندما اتخذ الفن الطابع الجنسي لم تتخلّص المرأة من دورها كتحفة تزيينية إلى جانب دورها كامرأة؟

– كان الرجال يرسمونها، ولكن هل بقيت المرأة سلبية بشكل تام؟ تحررت النظرة الدنيوية في عهد النهضة ونجد ذلك حتى في بعض اللوحات الدينية. وفي لوحة لوكا كراناش Lucas Cranach التي صوّر فيها حوّاء في عري رائع، نقرأ التملّك في هذه اللوحة من دون شك، إلى جانب الإطراء لجسد المرأة. ومن يدري؟ لعل هناك متعة تعيشها المرأة عندما تتحرر من ملابسها. في نهاية القرن السادس عشر، أقدمت مدرسة فونتينبلو Fontainebleau على تعرية المرأة من ملابسها في اللوحات الفنية، فنرى النساء في الحمّام، ونرى أنييس سوريل الجميلة وقد جرّدت جيدها من الملابس، ونرى امرأة وهي تغسّل امرأة أخرى وتلامس ثدييها. تُرى هل شعر الرسام بالمتعة وهو يتخيّل هذه المشاهد التي تقترب من السحاق؟ أو هل كان مجرد ناقل لمواقف كان شاهداً عليها؟ – لا ننسى أن تلك الحقبة من التاريخ تميزت بالحرية النسبية، وخاصة في الأوساط الأرستقراطية– أو ترى كانت محاولة من قبل الرسامين لاستمالة النساء وإغوائهن؟ لا نملك سوى التساؤلات أمام هذه الصور المحمّلة بالألغاز.

– في أي وقت من الأوقات بادرت النساء المبدعات إلى نقل رؤيتهن الخاصة بالمرأة وبالعالم من خلال اللوحات الفنّية؟

– بدأ ذلك منذ عصر النهضة، وعلى الرغم من كل الصعوبات، نجحت بعض النساء في الانتقال إلى الطرف الآخر من حمّالة اللوحة. قَدِمَتْ أولى الفنانات اللاتي عرفناهن من إيطاليا، مثل آرتيميس (Artémisia Gentileschi) Artémis، وهي رسامة موهوبة أشرف والدها على تدريبها غير أنها عاشت محناً صعبة قبل أن تفرض وجودها. في متحف المجمّع الفني في فينيسيا (البندقية) نشاهد لوحات لصور ذاتية إبداعية صممتها امرأة فنانة. وفي فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر، عملت نساء في مرسم الرسام دافيد، تمّ استخدامهن كناسخات في صالات اللوفر، ثم باشرت فيما بعد تلميذات الرسّام دافيد بفتح مراسم خاصة بهنّ. وفي البلاط الملكي، اشتُهرت السيدة فيجيه لوبرون Vigée-Lebrun التي رسمت صوراً للعائلة الملكية وبخاصة للملكة ماري أنطوانيت. وشيئاً فشيئاً استحوذت النساء على فن الرسم ولم يتوقفن... وهكذا تطالعنا أسماء بيرت موريزو وماري كاسات وماري لورانسان وسونيا دولوني ... وفي عام 2009–2010، ضمّ مركز بومبيدو مئات اللوحات الفنية التي تعكس، وفقاً لعنوان المعرض، تنوعاً للمواهب لدى فنانات ظهرن في القرن العشرين.

– وهل كنّ يوقعن بأسمائهن على اللوحات؟

– تمكنت هؤلاء الأخيرات من التوقيع بأسمائهن، ولكن واجهت أغلبهن صعوبات في ذلك. ففي فن الرسم كما في الموسيقى، يتم حصرهنّ في الفنون الترفيهية والمحيط العائلي. لا بأس أن ترسم الشابات الرسوم التمهيدية، ويستطعن في وقت لاحق أن يرسمن أولادهن، ويقدّمن الهدايا الصغيرة. ولكن لا سبيل لتبَوُّ الأماكن العامة والمدارس (بقيت جامعة الفنون الجميلة مغلقة في وجه المرأة حتى عام 1900) كما هو حال الصالونات بشكل خاص التي أصبحت في أواخر القرن الثامن عشر أماكن تثبيت شرعية الفنانين. فإذا بحث الفنان عن الشهرة لا بد أن يراه العوام وكذلك النقّاد الذين أخذت أهميتهم تتزايد يوماً بعد يوم. استقبلت المنتديات الأدبية ديدرو Diderot ثم بالزاك Balzac وبودلير Baudelaire... ولكن أن تستقبل النساء؟ بدا ذلك أمراً غير مألوفٍ. كانت هيئة التحكيم مؤلفة من الرجال الذين اعتبروا أن الرسم النسائي فنٌّ متكلفٌ. لم تكن ماري باشكيرتسيف Marie

Bashkirtse تحظى بمديح من أستاذها في المجمع الفني إلا في حال وسم عملها الخلّاق بأنه "عمل فني رجولي".

– إذاً، يُفترض بالفن الحقيقي أن يبقى ذا طابع "رجولي"، وهذا يعني أن الإبداع هو من اختصاص الرجال، وأن له دلالة جنسية.

– بشكل قاطع. الإبداع يعني الفعل بكل ما للكلمة من معاني، إنه الخالق. عندما نتحدث عن إبداع ما هو جديد في العالم، فهذا من اختصاص الخالق (جل في علاه). إن الله هو الخالق الوحيد، وفي حال منح شيئاً من السلطة فهذا لا يكون إلّا إلى أنبل مخلوقاته ألا وهو الرجل، الذكر. لقد أكّدت كافة النصوص الفلسفية منذ القدم على عجز المرأة عن الإبداع، فهي غير قادرة على ذلك. لا تتجاوز قدرتها النسخ والإلقاء والترجمة...، اعتُبرت مهنة الترجمة من أفضل المهن للمرأة: نقل فكر الرجل من لغة إلى أخرى، هذا ما يلائمها. ولكن أن يذهب بها الأمر لأن تكتب، فهذه قضية أخرى. أما الرسم فهو أصعب من الكتابة. وإذا تكلمنا عن تأليف الألحان فهذا من أقصى المحظورات. الموسيقى هي لغة الآلهة. فلتكتفِ النساء بالعزف على آلة البيانو في صالونها الخاص أو لترافق رجلها العظيم في العزف. لقد ظهرت طريقة التفكير هذه عند الأزواج المبدعين بشكل خاص. كتب ماهلر Mahler إلى خطيبته ألما Alma قبل الزفاف، (وكانت ألما فنانة كبيرة قادرة على إبداع الأعمال الفنية ولا تقل عنه في المستوى) رسائل تهز المشاعر بهدف إقناعها في العدول عن التأليف، وامتثلت ألما لمشيئته، غير أن زواجهما لم يكن سعيداً. كذلك الأمر بالنسبة لكلارا شومان Clara Shumann التي كانت موهوبة جداً: اعتقد شومان أنه في حال استمرت كلارا في إبداعها فإنهما سيعيشان أبد الدهر تنافساً حقيقياً قد يؤدي إلى فشل زواجهما. القضية محسومة بالنسبة له، عليها أن تتوقف عن الإبداع لتثبت له حبها.

الكتابات التي هي وقف على الرجال

– في حين يحق للرجل المبدع أن يستحوذ على كل شيء: المهنة، المجد، المنزل، والمرأة (أو غالباً النساء) والأولاد...

– بإمكان الرجل المبدع إذلال كل النساء، وهذا يزيد من إغوائه لهنّ. يَظهر لنا الأديب فيكتور هوغو كأفضل مثال على ذلك. لقد طالب جولييت درويه Juliette Drouet بالإقلاع عن مهنتها كممثلة في الوقت الذي كان ينظّم سجلاً بمغامراته النسائية، فأخلصت له ولاءها بخشوع الراهبة...

– ألا يمكن للمرأة التي تختار الفن أو حتى الإبداع، أن تعيش قصة حب ممكنة؟

– سطّرتْ مدام دوستايل Mme de Staël هذه الجملة المرعبة: "ليس المجد سوى المأتم الساطع للسعادة". في روايتها "كورين" Corinne، برزت مأساة المرأة المبدعة بسبب عجزها عن إيجاد السعادة. لقد وقعت مدام دوستايل في غرام رجال كثيرين – وعاشت مع بنجامن كونستان Benjamin Constant قصة حب كبيرة – لكنها أبداً لم توافق على التضحية بموهبتها الأدبية، ولم يكن الأمر بسيطاً بالنسبة لها. مع ذلك يبقى التأليف هو المجال الأكثر ملاءمة للنساء في عالم الإبداع.

– من الصعب منعهن من التأليف في الوقت الذي يتألّقن في الكتابة والقراءة.

– تكفيها طاولة أو في أفضل الأحوال غرفة خاصة بها. فإذا كانت تكتب مذكراتها أو تتدرب على الكتابة من دون أن يكون ذلك على حساب وقتها يبقى الوضع مقبولاً. لكن إن هي سعت لنشر مؤلفاتها والدخول في المحيط العام فهذه قضية أخرى، وستُسد كل الدروب أمامها. يعتبر الشعر الذي يقارب الموسيقى، فناً خاصاً بالذكور، وتُترك للمرأة قصائد الرثاء، ذات الأسلوب الخفيف الذي يثير الشجون.

– تصرّفٌ يخفي وراءه خبثاً...

– نعم. تتجسد القصيدة "العظيمة" والشعر الحقيقي في "ملحمة الأجيال" لفيكتور هوغو، بأسلوبها الملحمي الغنائي الذي يتصدى للتاريخ. كتبت الشاعرة مارسلين ديبورد– فالمور Marceline Desbordes-Valmore من جهتها: "إني أعلم تماماً أنه يُحظر على المرأة أن تكتب، مع ذلك ها أنا ذا أكتب". كذلك الأمر بالنسبة للمسرح، يصعب على المرأة أن ترقى إليه، إذ إنه فن عام. لم تتوصل امرأة في التاريخ إلى عرض مسرحياتها إلّا فيما ندر – فيما عدا جورج ساند التي توصلت إلى ذلك في القرن التاسع عشر. يمكننا الجزم أن المرأة تمكنت من إثبات موهبتها في الكتابة من خلال الروايات، إلى درجة تركت بعضهن مؤلفات غاية في الأهمية في عصر لم يكن يسمح للمرأة أن تعبّر عما يجول في أعماقها. نذكر على سبيل

المثال كريستين دو بيزان، ومدام دو سيفينييه ومدام دو لافاييت... ومع ذلك لم نكتشف أن مدام دو سيفينييه هي مؤلفة "أميرة كليف" La Princesse de Clèves إلّا في وقت متأخر، إذ بقي الأمر سراً، مما يشير إلى الصعوبة التي تعترض المرأة في طريقها للإبداع. حتى في القرن التاسع عشر، شهد العالم حملات ضد الجوارب الزرقاء (دلالة على النساء المتحذلقات). كثيراً ما تتعرّض النساء "المؤلفات" إلى القَدْح والتحقير فيلجأن إلى التخفي ويتخذن لأنفسهن أسماءً مستعارة، نذكر منهن جورج ساند ودانييل ستيرن وجورج إيليوت وغيرهن كثيرات.

– مع ذلك ذاعت شهرة الروائيات البريطانيات في القرن التاسع عشر، بل كان لهنّ جمهورهنّ الخاص – نذكر على سبيل المثال جورج إيليوت والأخوات برونتي.

– نعم. فتحت فجوة كبيرة في بريطانيا وبلغ عدد المقالات اليومية حوالي العام 1900 ما يقارب 15 إلى 20% (لكن الرقم لم يتجاوز 10% في فرنسا)، ومما لا شك فيه أن جمهورهن كان من النساء في البدايات. ثم ساهمت المطالعة التي انكبت عليها النساء في بلاد البروتستانت إلى تشكيل مجموعة لقرّاء الصحف اليومية في بريطانيا. وفي فرنسا أيضاً تزايد عدد النساء اللاتي كنّ يلتهمن روايات جورج ساند: إنديانا، وليليا... كما نجحت جورج ساند التي حطّمتْ الحدود بين الأجناس في إثارة إعجاب الرجال بها. وهذا حال كل من بالزاك وفلوبير المعروف عنه كرهه للجنس اللطيف. فبعد أن أظهر هذا الأخير تحفظاً تجاهها، انتهى به المطاف إلى إقامة علاقة مميزة معها، كانا يبدآن رسائلهما بقول (عزيزي تروبادور[1] أو صديقي العزيز) وكانا يتخاطبان بلغة الذكر. كانت جورج ساند آنذاك في الخمسين من عمرها وكانت تقول عن نفسها: "أنا التي لم تعد امرأة". كان لديها تصوّر تقليدي جداً بالنسبة للأجناس! أما فلوبير فلم يكن يتردد أن يكتب لها: "أنت التي تنتمين إلى الجنس الثالث"...

– إذاً فنحن نتقبّل أن تروي النساء قصصاً، لكن أن يذهب بهن الأمر إلى طرح أفكار جديدة وإنتاج الفكر؟

(1) اسمٌ كان يُطلق على الشعراء المتجولين الذين كانوا ينظمون الشعر الغنائي الغزلي بلغة جنوب فرنسا في القرنين 12 و 13، وأغلب قصائدهم كانت توجه إلى إحدى السيدات النبيلات تعبيراً عن الولاء والإعجاب - المترجم.

– مثل الإبداع في الفنون التشكيلية أو الموسيقى، فالفلسفة مجال محظور تماماً على النساء. كان علينا انتظار القرن العشرين لنشاهد عالمات في الفلسفة مثل سيمون ويل Simone Weil – في الفترة الواقعة ما بين الحربين – أو حنّة آرانت Hannah Arendt، وكنّ الوحيدات في ذلك الحين اللاتي اعتُمدت مؤلفاتهن في كتب الفلسفة (حتى إن سيمون دو بوفوار ليس لها اسم في عالم الفلاسفة إلى يومنا هذا). لقد انفردت حنّة آرانت في عصرها إذ دُرسَتْ مؤلفاتها على قدم المساواة مع مؤلفات مفكرين آخرين في مجال السياسة. كما كان وضعها معقداً بالنسبة لهايدغر إذ كانت موضع ثقته كما كانت تلميذته وعشيقته. يكشف لنا التاريخ بأكمله عن رغبة النساء في التعبير عما يجول في خواطرهن في الكتابة. (تكلمت جورج ساند عن الرغبة الجامحة التي تتملكها للكتابة)، ولكن لا تزال النساء يحتللن دوراً هامشياً حتى اليوم.

– ولكننا كثيراً ما نسمع عن "غزو الأنثى" في مجال الأدب...

– هل هذا مؤكد؟ انظري إلى الزاوية الأدبية التي تملأ الصحف، عدد الرجال يفوق فيها عدد النساء. هل ننسب ذلك إلى العدد المحدود للمقالات التي تكتبها، أو أن كتاباتها تمر على الرقابة بشكل لا إرادي على مستوى رؤساء التحرير والصحفيين الذين يكتبون التقارير حول الإنتاج الأدبي؟ ما إن تحصل امرأة على جائزة ما حتى يعتقد الجميع أنها كسبت الرهان. وكذلك الأمر إذا أقبلت بعضهن على كتابة الروايات الفاضحة. ولكن يجب على النساء أن يتنبهن من حصرهنّ في "دائرة الجنس اللطيف". لم لا تتطرق النساء إلى المواضيع الجنسية وتستحوذ عليها؟ لكن يخيل إلينا أحياناً أن الرجال يتنازلون عن هذه المواضيع تفضلاً منهم بينما يستحوذون على الرواية القوية، الاجتماعية والسياسية التي تتناول الدائرة العامة. إنهم يعيدون إنشاء مجالٍ يطلق عليه اسم "مجال بالامتياز" لا لشيء سوى لكونه ذكراً. تعاني النزعات القديمة من قسوة الحياة.

الفصل السادس

غزو ميدان العمل

يا لها من مسكينة! تلك الفتاة الساذجة

– **نيكول باشاران**: لنخرج معاً ونتتبع خطى المرأة خارج منزلها وبعيداً عن محيط حياتها الخاصة، في خضم الحياة العامة. لم تتوقف المرأة عن العمل منذ الأزل، سواء كانت متزوجة أو عازبة. لكن كم من صراعات خاضتها قبل أن يعترف العالم بعملها ويعطيها الأجر بالمقابل!

– **ميشيل بيرو**: كان عمل المرأة في كل الأوقات واجباً وضرورة. فلقد عملت على الدوام في الحقول، وكان همّها الاعتناء بأمور المنزل والمطبخ وبالطبع الأولاد. لقد عملت في الغزل، والخياطة، والغسيل وعلاج المرضى... لا يمكن أن نتخيّل استمرار مجموعة ما على قيد الحياة، مهما بلغت عظمتها، من دون عمل المرأة. عندما يكون الزوج تاجراً أو حرفياً، فإنها تبقى إلى جانبه لتساعده. لنأخذ على سبيل المثال مشغل الخيّاط حيث تعمل كل العائلة، فيقوم الرجل بالتصميم وتفصيل القماش (فالرجال هم دوماً المسؤولون عن عملية قص القماش)، وتقوم المرأة بتجميع القماش وحياكته، إذ إنها غير مسؤولة عن الجانب الإبداعي. وإلى يومنا هذا، نجدها تعمل ضمن "فريق": فالخباز هو من يصنّع الخبز بينما تهتم زوجته بالبيع. يجب أن ننوه إلى الاختلاف الذي طرأ على مخططات العمل التي شهدناها حتى يومنا هذا: فالمرأة الخبّازة هي التي تعمل في الخارج وتتعامل مع الناس بشكل

مباشر بينما يعمل زوجها الخبّاز في الداخل – حتى إنه في الماضي كان يعمل في القبو.

– حتى وقت قريب لم يكن لأولئك النساء اللاتي يعملن في حقل التجارة والمهن الحرة من مهنة رسمية. هل كان هذا هو الحال من الوجهة التاريخية، وبشكل أدق في العصور الوسطى في زمن الاتحادات المهنية التي أُنشئت للدفاع عن مصالح المهن المختلفة؟

– لم يطرأ أي تغيير على مر السنين. لم تحصل المرأة على الموافقة للدخول إلى هذه الاتحادات إلّا فيما ندر، ثم تمّ إقصاؤها فيما بعد بصورة منتظمة لينعدم وجودها تماماً في نهاية القرن الثامن عشر. لكن الأرامل شكّلن حالة استثنائية، ففي المطبعة مثلاً التي تُعتبر مهنة خاصة بالرجال، لا بأس إذا بادرت الأرملة إلى إعادة فتح الورشة بعد وفاة زوجها، وبذلك يكون لها تمثيل مؤقت في الاتحاد ينتهي ببلوغ ابنها سن الرشد؛ ويتحتم عليها آنذاك إخلاء المكان لابنها بحكم انتهاء دورها كوصية.

– تنتمي تلك النسوة إلى أوساط اجتماعية ميسورة الحال نسبياً، فماذا عن الأخريات، كيف عملن لكسب لقمة العيش؟

– عملت الفتيات الفقيرات منذ أقدم الأزمنة كخادمات، وهذا عمل خاص بالنساء بامتياز. كنّ يعملن في المزرعة، ثم مع تقدم المدنيّة، أصبحت المرأة تعمل كوصيفة، وطبّاخة، وخادمة تصلح "لعمل أي شيء". عملت النساء في فرنسا قبل 1914 كخادمات في البيوت، وكان عددهن يتجاوز نصف النساء اللاتي يعملن خارج منازلهن. سبق لنا التعرّف على المصير البائس الذي يمس كرامة المرأة كخادمة في المزرعة. عملت بعضهنّ، وكنّ في غالبيتهن أُمّيات، حتى سن الشيخوخة ضمن نظام مقيّد هو أشبه ما يكون بالنظام الإقطاعي. ربما كان وضع الخادمة الصغيرة في المدينة أفضل. كنّ يحصلن على السكن والطعام – الذي كان سيئاً للغاية – وكنّ يعطين أجورهن لآبائهن، بينما احتفظت بعضهنّ بقسم يسير لادّخاره كمهر لها لتستطيع الزواج به لاحقاً. هناك خادمات حظين بأسياد على درجة من الطيبة، كنّ يحصلن منهم على ثياب أنيقة، وكان بإمكانهن الحصول على الثقافة من خلال الوسط الذي يعشن فيه. غير أن مصير بعض الخادمات اللاتي كنّ يعملن عند عائلات أخريات كان مثيراً للشفقة. فبالنسبة للسيد، الخادمة التي تصلح لعمل أي

شيء "تصلح للمضاجعة أيضاً". وفي حال أنجبت طفلاً فستطرد خارج المنزل! ذلك كان الوجه القاتم للخدم.

– هل نعتبر أن الخادمة النموذجية هي تلك الفتاة الساذجة؟

– على الأقل هذه صورتها الهزلية التي يمقتها سكان منطقة بريتانيه الفرنسية Bretagne. كانت هذه المنطقة فقيرة للغاية في القرن التاسع عشر، وكان رجالها يقصدون مدينة باريس للعمل في مصانعها – مصانع المنتجات الغذائية، والكيميائية، والتعدينية، ومصانع السيارات الكبرى – وكانوا يقدّمون اليد العاملة الأساسية ولكن من دون أية مؤهلات، ووصل الأمر إلى درجة إبدالهم بعمال من شمال أفريقيا، فكان هؤلاء يُعرفون "بسكان بريتانيه الزنوج". كانت فتياتهم يخدمن في بيوت الطبقة البورجوازية. نشأت شخصية الفتاة الساذجة عام 1905 في صحيفة "أسبوع سوزيت". صحيح أن لها أذنان ولكن لا فم لها، إذ عليها التزام الصمت. تبدو الناحية الهزلية لشخصية الفتاة الساذجة على درجة من القسوة: إنها تلك الفتاة البسيطة، التي لم تتلقَ أية تربية، ولا تفقه المعنى الضمني للكلمة، ولا تستوعب الأوامر التي تتلقاها، وتقترف باستمرار الأخطاء والهفوات...أما في الحقيقة فأهل هذه الفتاة دائمو القلق على ابنتهم التي تعمل في المدينة ويخشون عليها من الحمل. فمدينة باريس سيئة السمعة. ثم شيئاً فشيئاً، أصبح مستوى المعيشة لسكان بريتانيه أفضل من ذي قبل، وباتت العائلات يفضلن إبقاء بناتهن اللاتي أصبحن يعملن في سوق السمك ومصانع المعلبات إلى جانبهن كي لا يبتعدن كثيراً عن منزلهن. "لم يعد بالإمكان أن نجلب من يخدمنا" هذا ما قالته ربات بيوت الطبقة البورجوازية رداً على ذلك في الفترة الواقعة ما بين الحربين.

"إنها عاملة، يا للكفر!"

– هل تم إلحاق الفتيات اللاتي لا عمل لهنّ بالمعامل إبان الثورة الصناعية؟

– نعم، تمّ توظيف النساء والأطفال في المعامل التي كان لها سبقٌ في التأسيس، فنرى الأمهات مع أولادهن. في المرحلة التي سبقت الثورة الصناعية، أي في مرحلة الورشات التي كانت تهتم بالإنتاج الصناعي الريفي الموسمي لتمويل

الأسواق الخارجية، كانت العائلات تعمل جنباً إلى جنب. بدأ ذلك بصناعة النسيج. فالأب الحائك هو صاحب النول وكان ينجز الأعمال الأكثر أهمية والأكثر صعوبة، بينما يلقى المساعدة من زوجته وأولاده في تمرير الخيط وربطه. شجّع هذا العمل على الزواج المبكر والخصوبة، إذ إن عمل الزوجين والأولاد كان يضفي قيمة على المنتوجات. ولكن هذا الوضع لم يصرف الخوف عن رب العمل الذي كان يخشى من الاستغلال كما يخشى من اتفاق القرويين فيما بينهم فيتضاءل الإنتاج، لذلك فضّل جمع كافة العاملين لديه في معمل واحد حيث يستطيع مراقبة الإنتاجية وساعات العمل. وكان إنشاء هذه المعامل على حساب الورشات التي أخذت تغلق الواحدة تلو الأخرى بينما انتقلت العائلة المؤلفة من الأب والأم والأولاد للعمل بالمعمل، حيث كان الأولاد يقتبسون المهنة عن آبائهم منذ عامهم الثامن. حاول أصحاب الأنوال الصمود أمام انتشار المعامل ولكنهم في النهاية لم يجدوا خياراً آخر أمامهم: فالأجور تدنّت ولم يعد هناك من يشتري منهم بضائعهم.

– في أي وقت تمّ إعداد القوانين الأولى التي تتعلّق بعمل الأطفال، ذكوراً وإناثاً؟

– صدر عام 1841 قانونٌ يقضي بعدم قبول الأطفال دون سن الثامنة في المعامل – مما يدل على أن المعامل كانت تشغّل أطفالاً أصغر من هذا السن – وألا يتجاوز عدد ساعات العمل الثماني ساعات – مما يدل أيضاً على أن فترة العمل كانت أطول من هذه المدة. ويتوجب على أرباب العمل السماح للأطفال بارتياد المدارس أو تنظيم مدارس داخل أسوار المعمل إتماماً لساعات العمل. وفي عام 1881، صدر قانون يقضي بالتعليم الإلزامي حتى سن الثانية عشرة، ولكن هذا لا يمنع الطفل من ممارسة عمله إلى جانب الدراسة. هناك الكثير من العائلات اللاتي باتت تجر قدميها لتطبيق هذا القانون: فلا مصلحة للأهالي في تعليم أبنائهم، فهم يحتاجون إلى الأجور التي يدفعها لهم الأبناء في مقابل عملهم. شملت هذه القوانين الذكور والإناث من دون تمييز. فالفتيات يعملن في وقت مبكر جداً ويستمرون فيه حتى زواجهن، الذي لم يعد مبكراً بسبب حاجة الأهل لأجورهن.

– لكن يبقى القلق يساور الأهل فيما يتعلّق بأخلاق فتياتهم اللاتي يعملن في المعامل، كما هو الحال تجاه "الخادمات الصغيرات".

– إنه همّ كبير، يضاف إلى ذلك السمعة السيئة التي تكتسبها الفتاة من جراء

عملها داخل المعمل. يُفضِّل العمّال بشكل عام أن تعمل بناتهم في ورشات عمل خاصة بالإناث. فهم يخشون على بناتهم من رئيس العمال ومن ممارسته لحق التفخيذ معهن، كما يخشون من العلاقات التي قد تنشأ بين بناتهم والأولاد الذين يعملون في هذه المعامل. يصف إميل زولا Emile Zola في روايته جرمينال Germinal عالَم المنجم الذي جُبِلَ على الجنس: ها هي الموكيت la Mouquette تهب جسدها لكل من يصادفها. يعتقد زولا أن هؤلاء الناس يميلون إلى الوحشية. بينما كتب ميشليه Michelet: "إنها عاملة، يا للكفر!" إنه يرى أن الخطر يحيق بالنساء داخل المعمل. فالعمل قذر وقاس وبعيد كل البعد عن طبيعة الجنس اللطيف، هذا إضافة إلى الاختلاط الجنسي. هناك بعض من أرباب العمل ممن يهتمون بخطورة الأمر ويعملون على الفصل بين الذكور والإناث، وهؤلاء ممن يدينون بالمذهب الكاثوليكي. فيحرصون على عدم خروج العمال والعاملات من باب واحد منعاً لالتقائهم عند الانصراف. وفي الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، تجاوز عدد العاملات في المعامل عدد العاملين، الذين ذهبوا للجبهة، فتم تعيين مشرفات اجتماعيات للمعامل، ينحدر أغلبهن من الوسط البورجوازي الكاثوليكي مهمتهن مراقبة العاملات. وبادرت هذه المشرفات إلى تهيئة غرفٍ خاصة بالنساء المرضعات اللاتي يأتين إلى العمل مع أطفالهن الرضّع.

– إلّا أن القوانين التي صدرت بخصوص عمل النساء اهتمت بمجملها بحماية الأمومة أكثر من اهتمامها بتجاوزات رؤساء العمال.

– نعم. فالقوانين التي تناولت موضوع المرأة صدرت للمرة الأولى في بريطانيا عام 1860، تبعتها فرنسا. لم تكن رواية جرمينال التي كُتبت في عهد الإمبراطورية الثانية دقيقة في وصفها للعمل داخل المناجم، حيث تُصور لنا نساء على غرار الموكيت la Mouquette، في حين انحصر دور العاملات في تلك الحقبة من تاريخ فرنسا في عمليات فرز الإنتاج في القسم العلوي من المنجم، ولم يكن يُسمح لهن بالنزول إلى عمق المنجم حيث "جهنم السوداء" قاسية على أمهات المستقبل. فالقوانين التي صدرت في البداية لم تتناول سن العامل بل جنسه، وكانت مخصصة لعمال المناجم بالتحديد. وفي عام 1891، بادرت الجمهورية الثالثة إلى تقليص عدد ساعات العمل بالنسبة للنساء والأطفال إلى 10 ساعات يومياً على مستوى كل المعامل. لكن هذا القانون لم ينل موافقة الجميع، بمن فيهم النساء.

– ولمَ؟

– أبدى العديد من الصناعيين استياءهم من هذا القانون فعملوا على طرد العاملات اللاتي عبّرن عن احتجاجهنّ وأكدن أنهن يؤثرن العمل خلال اثنتي عشرة ساعة على أن يفقدن عملهن. وفي الحقيقة، لم تكن فرنسا سباقة في هذا المجال، إذ جاءت قوانين بسمارك في ألمانيا في وقت مبكر وتناولت التأمين الصحي وحماية النساء وأمن العمل الصناعي. ومرة أخرى لعب البروتستانت دوراً هاماً. اعتقد رب العمل البروتستانتي، مدفوعاً بحبه للبشر أو حرصاً على مصالحه الشخصية، أن عليه مراعاة طاقة الطبقة العاملة بالكامل لا استنفادها. فبادرت الدول البروتستانتية – ألمانيا وإنكلترا وهولندا – إلى تبنّي قوانين حماية العمال قبل غيرها من الدول. فمع نظام التجنيد، بدأ رب العمل يتنبّه إلى الحالة الصحية للشباب (وهذا لا يخص النساء) الذين كان عليهم الخضوع لفحص مجلس إعادة النظر[1]. وهكذا اكتُشفت إصابات بداء الخنزير أو بداء السلّ أو تشوهات أخرى في المناطق الصناعية والنسيجية. ولم تلحق فرنسا بالركب إلّا في وقت متأخر. فتم إنشاء ما عرف بمفتشين على العمل، ومفتشات للنساء، وكان هذا في العام 1890.

– وعلى غرار المشرفات الاجتماعيات في المعمل، ها هنّ النساء إذاً يُعينّ في مراكز السلطة؟

– كان هذا "المركز الأول" من نوعه. لم يكن وارداً أن يقوم الرجال بفحص العاملات. تفانت هؤلاء المفتشات للحصول على نظام يؤمّن سلامة المرأة وخاصة المرأة الحامل، ووافقت فرنسا في النهاية على منح إجازة الأمومة للمرأة الحامل في عام 1909 (وهي عبارة عن ثمانية أسابيع من دون أجر). طُبِّق التشريع الفرنسي بادئ ذي بدء على مصانع الدولة، تبعها قطاع التبغ حيث تبلغ نسبة اليد العاملة من النساء 80%. وكان هذا المكان الأمثل للنساء، حيث يعملن طيلة حياتهن، ويعدن إليه بعد الولادات؛ لقد استفادت النساء من إجازة الأمومة التي منحتها إياها الدولة. طُبق هذا القانون فيما بعد بشكل إلزامي على كافة قطاعات الدولة، ولم يقابَل بالرفض كما كان الحال بالنسبة لتقليص عدد ساعات العمل. وفي مطلع القرن العشرين، تنبهت الحكومة الفرنسية إلى تدهور صحة الطبقة العاملة وإلى تدنّي نسبة المواليد قياساً إلى النمو السكاني في ألمانيا.

(1) وهو مجلس يبحث فيمن يصلح للخدمة العسكرية - المترجم.

ربة بيت ممتازة

– سواء حصلت المرأة على إجازة أمومة أم لم تحصل، فإنها لا تصبح عاملة في المعمل بموهبتها. ألم تكن تفضّل البقاء في منزلها والاعتناء بعائلتها إذا تهيأت لها الظروف؟

– إنها لن تتوانى عن مغادرة المعمل إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً. مع بداية الثورة الصناعية تمّ الفصل بين "الداخل" و"الخارج". كانت المرأة في الماضي تعمل جنباً إلى جنب مع زوجها، داخل المنزل. ثم تطور الوضع وأصبح العامل يكسب أجره من العمل الذي يؤديه خارج المنزل. وظهرت طبقة العامل المأجور في الوقت الذي ظهرت فيه ربة المنزل التي تسهر على راحة بيتها. رغم ذلك، لم تمانع الأوساط الشعبية من عمل المرأة خارج منزلها، لهذا السبب فالراتب "الحقيقي" هو الراتب الذي يقبضه الأب والذي يقدم منه القوت لزوجته وأطفاله. وفي حال كسبت المرأة بعض المال من عملها في الخارج فإنها تساهم مع زوجها في النفقات.

– هل تفعل ذلك عن طيب خاطر؟

– إنها تتحمّس لجلب اليسير من المال الذي قد يدعم الميزانية. فتبادر إلى تقديم المساعدة لجاراتها في الأعمال المنزلية والخياطة والكيّ، كما ترعى أطفالهن وتجلب لهن الخبز. وإذا كان دخل الزوج جيداً (وهذا حال عمال التعدين)، فإنها تخفي دخلها أحياناً وتدخره لتقدّم لعائلتها وليمة أو تخصصه لتربية البنات. يبدي الأب استعداده لتقديم التضحيات كي يذهب أولاده للمدرسة أما تعليم الفتيات بالنسبة إليه فيبقى أمراً ثانوياً. تشعر النساء بالفخر إن هنّ ساهمن مادياً في رفاه العائلة، ولا يحتملن حرمانهن من مسؤولية جلب بعض المال للعائلة. تشعر المرأة التي "لا تعمل" بأنها غير ذات قيمة. عندما نذهب إلى السوق حيث كل شيء يحتسب بالمال، نشعر أن قيمتنا تضاهي قيمة المال الذي بحوزتنا.

– على العكس من ذلك، فإن عمل المرأة لدى الأوساط البورجوازية أمر غير مقبول، ويدل على تقصير الزوج...

– قطعاً. تبنّت المرأة في المجتمعات البورجوازية في القرن التاسع عشر المقولة القديمة للطبقة الأرستقراطية التي تقول:"إن أردت أن تعيش كالنبلاء فعليك أن تعيش من دون أن تفعل أي شيء". فإنسان الطبقة الأرستقراطية لا يعمل. هناك

فصل بين الزوجين في الطبقة البورجوازية: الرجل يعمل ولكن ليس بيديه إنما في إدارة مشاريعه، ويعمل على استثمار رأسماله وهو رئيس مؤسسة كبرى. أما زوجته البورجوازية فإنها لا تعمل. هذه هي "الحياة على الطريقة البورجوازية". مع ذلك يتوجب على الزوجة أن تتصرف كسيدة منزل مرموقة، فتوجّه الخدم، وتخطط لنمط المعيشة، وتشرف على الأولاد وعلى تنظيم ولائم العشاء والحفلات. تهتم الزوجات في الشركات الصغيرة بالسجلات الحسابية والقيود وهذا ما يشير إلى تقدّم مستواها التعليمي. أما إذا اتسعت رقعة عمل الزوج فإنه يبادر إلى فصل مكان العمل عن البيت وتكرس الزوجة عندئذ حياتها لإدارة شؤون المنزل. لقد شهدنا ذلك لدى طبقة البورجوازية في منطقة الشمال في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان صاحب العمل يقطن منزلاً مريحاً عند سور المعمل. هنا كان الزوج ينتظر قدوم العمال عند الصباح بينما تهتم الزوجة بالحسابات. ومع تطور الصناعة، ألحق الزوج موظفاً يدير الحسابات، وغادرت الزوجة منزلها القريب من المعمل واستقرت في منزل جميل في منطقة سكنية، مثل جادة باريس في روبيه.

عاملة الهاتف

– هل تملك المرأة التي تعمل رسمياً خارج المنزل إمكانيات أخرى غير الأعمال المنزلية والمصنع؟

– نعم، بدأ ذلك في مطلع القرن التاسع عشر مع تأسيس قطاع الخدمات الذي جاء لإنقاذها. عملت الشابات في البداية في حقل التجارة حيث تمّ تشغيلهن كبائعات سواء في المخازن الصغيرة أو في المتاجر الكبيرة الآخذة بالتوسّع. وشاع الكلام عن "آنسات المخازن". كانت مواعيد العمل قاسية جداً كالنظام، وخضعت هؤلاء الفتيات لمراقبة شديدة لأنهن كنّ موضع شك من الناحية الأخلاقية. وأُنشئ فيما بعد نظام مراقبة اجتماعية في المتاجر الكبيرة ولم يعد باستطاعة رؤساء الأقسام التصرّف على سجيتهم. هذا كان الحال عند البوسيكو Boucicaut وهم من الطائفة الكاثوليكية، حيث أسسوا ما يعرف بالسوق الخيري في حي الأبيرة. كما عُرفت تلك الحقبة "بسيدات البريد"، اللاتي كنّ يستقبلن المراجعين من خلف المكتب، فالأخلاق إذاً سليمة. أما في الأرياف، فكانت هذه الوظيفة مرغوبة جداً،

وكانت تُعهد في الغالب إلى أرملة الضابط أو الموظف. وفي وقت لاحق، ظهرت "فتاة الهاتف". فكان الناس يحبون هذا الصوت اللطيف، وبما أن لا أحد يراها فهي في مأمن من كل سوء.

– لا زلنا نواجه هذا الاهتمام بالناحية الأخلاقية...

– نعم، يبقى الفصل بين الجنسين هو الشغل الشاغل. خشي الرجال على مناصبهم فقابلوا عمل النساء في الخارج بالاحتجاج. بينما في الواقع لم يؤدِّ هذا إلى التنافس فيما بينهم بل كان دافعاً للترقية، حيث أعيد تنظيم هيكلية العمل وأُسندت إلى الرجال الوظائف الأكثر أهمية والأفضل من ناحية التعويضات.

– إنه ذاك التدرج التقليدي: الطبيب/ الممرضة...

– هذا صحيح. اعتبرت مهنة التمريض خاصة بالإناث! جاءت المبادرة الأولى على يد فلورانس نايتنغال Florence Nightingale في بريطانيا، التي ساهمت بحملة القرم (1854–1856) إلى جانب سيدات أخريات للعناية بالجنود الإنكليز، وتوصلت إلى ضرورة إنشاء الوحدة الصحية. وناضلت طويلاً لتُخرِج هذه المهنة من إطار التطوّع إلى حيّز المهنة المأجورة. ومنذ ذلك الحين انكبت فتيات الطبقة البورجوازية الإنكليزية على التخصص في هذا المجال وحصلن على أجور مقبولة نسبياً. من هنا تطور ما يعرف بقطاع التمريض في العالم الأنكلوسكسوني.

– وماذا عن فرنسا؟

– جاء النموذج الفرنسي مختلفاً بشكل جذري، حيث كانت الراهبات يعملن منذ زمن طويل كمساعدات للأطباء في المشافي. ثم اتخذت هذه المؤسسات فيما بعد طابعاً علمانياً بدءًا من الجمهورية الثالثة بتحريض من الدكتور بورنفيل Bourneville. كان ماسونياً، راديكالياً[1]، علمانياً وخبيراً بعلم الصحة، رفض أن تقوم الراهبات مقام الممرضات، إذ إنهنّ لا يراعين شروط النظافة حسب رأيه؛ في الوقت ذاته، كان يجد المرتب الذي تتقاضاه الممرضة الإنكليزية في مقابل العناية بالصحة العامة باهظاً جداً، لذلك اتجه نحو توظيف شابات من الوسط الشعبي المتواضع، اللاتي كن يحصلن على تدريب سريع في مكان العمل قريب جداً من مساعدات

(1) الحزب الراديكالي هو حزب إصلاحي متطرّف ينشد معالجة الأوضاع الراهنة وتعديلها بشكل جذري - المترجم.

الممرضات في يومنا هذا. لجأ الدكتور بورنفيل بنفسه إلى الفتيات القادمات من منطقة بريتانيه الفرنسية اللاتي كنّ يؤثرن العمل في التمريض بدل أن يعملن كخادمات. كانت هذه النساء عازبات، وكنّ يقمن في المستشفى ويأكلن على حسابها. وفي مقابل الإقامة الداخلية، خضعن لمراقبة شديدة في تحركاتهن ومخالطتهن للناس. إن هذا التوظيف للمستخدمين من الطبقة الشعبية بطابعه الديني الذي يُظهر التفاني والإحسان، دام فترة طويلة. كانت الممرضات يغطين رؤوسهن حتى ولو كنّ علمانيات. ولكن كان عليهن خوض صراع حقيقي من أجل متابعة دراستهن بشكل جدّي في المدارس الخاصة ولكي يعترف بهن المجتمع ويعطيهن الأجر الذّي يستحقنه.

هل تتساوى الأجور عندما يتساوى العمل؟

– بالإضافة إلى المتاجر ومراكز البريد والمشافي، هناك أيضاً المكاتب التي يحتاج فيها الرجال إلى من يساعدهم وينوب عنهم، أليس كذلك؟

– بدأت النساء بفرض وجودهن في مجال التجارة من خلال عملهن في المكاتب، وكن قد عملن في مطلع القرن العشرين ثم في فترة ما بين الحربين في مجال الصناعة، فيما يعرف بنظام العمل المتسلسل، وفي وظائف أخرى غير لائقة. ثم اتسعت رقعة العمل في المكاتب في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. تحولت أوروبا بأكملها إلى متاهة من المكاتب، وكانت النساء هي الفئة المسيطرة من حيث عدد العاملين، ولم تغيّر فترات الركود الاقتصادي من الأمر شيئاً، وأصبحت حاجة العائلات إلى دخل إضافي ملحّة. عملت هذه الموظفات كأمينات سر، وعاملات هاتف، وطابعات على الآلة الكاتبة. وانفردت الصفوة فيهنّ بشغل منصب أمينات سر الإدارة حيث لعبن دور صاحبة المنزل في مكتب المدير: كان عليهن العناية بترتيب الزهور، وإحضار برشامة الأسبرين... إنهن هنا للعناية الخاصّة، وهو دور أنثوي بامتياز.

– سرعان ما شهدنا نساءً مكلفات بقيادة فريق العاملات. ولكن متى بدأن بقيادة فريق العمال؟

– تجلى ذلك في قطاع الصناعة عندما بدأت النساء باحتلال مكان الذكور في العمل. ففي الفترة التي سبقت 1914، شهدت معامل الأشرطة والتخاريم في منطقة سانت إتيان Saint-Etienne أزمة في اليد العاملة، إذ كان العمال يفضلون العمل في المناجم أو التعدين بسبب تدني الأجور في تلك الورشات. وهكذا وجدت النساء أنفسهن فجأة على رأس مجموعة من العمال – لا يزالون في مرحلة الشباب وبالتحديد في سن المراهقة. عمل هؤلاء العمال في مجال إعادة ربط الخيوط في مصانع الملابس المحبوكة ومصانع الغزل. وكانوا يمارسون عملهم في هذا القسم حتى سن 15–16 عاماً لينتقلوا بعدها إلى قسم العمال الفنيين، وتنحصر مسؤوليتهم في إصلاح الأنوال. ويتوقفون عن طاعة أوامر النساء منذ ذلك الحين. اشتكى بعض هؤلاء الشبان من "الإغراءات" التي يتعرضون لها من قبل رئيسات العمل. يجب أن ننوه هنا أن هذه النساء بقين عازبات خلال مركز السلطة الذي تبوأنه.

– المرأة التي تعمل "رئيساً" هي في النهاية رجل!

– تماماً. فلو كانت تقود نساءً لكان الوضع أفضل وبشكل خاص داخل المصنع، مما يؤدي إلى ضبط قصص التحرّش الجنسي. ولكن لكي تصبح المرأة رئيسة لفريق عمل مؤلف من رجال داخل المكاتب أو حتى في المصانع، فهذا يتطلّب الكثير من الوقت.

– كيف يمكن أن نعرّف مهنة ما بأنها "خاصة بالنساء"؟ مهنة قد لا تتطلب جهداً جسدياً؟

– أيما مهنة – مهما كانت – يبلغ معدّل العاملات فيها 75% تُعتبر خاصة بالنساء. ولا يشترط أن تكون العاملة في هذه المهنة على درجة عالية من الكفاءة، لذلك فإن الأجر سيكون متدنياً. ولا يرتبط الأجر بمردود العمل بل بالوضع، وحيث إن وضع الرجل مميز عن وضع المرأة فمن الطبيعي إذاً أن يكون أجره أفضل من أجرها. هذه وجهة نظر نظام قديم أكثر من كونها مبدأ في النظام الرأسمالي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار إلّا مردود العمل. أما على الصعيد الرسمي فيتم تبرير الموضوع بأن النساء أقل كفاءة من الرجال وأنهن يزاولن العمل بشكل تلقائي من دون عناء، فالفارق الذي يُدفع للرجل هو لقاء علمه وكفاءته. عندما تعمل النساء في النسيج

يقال: "إنهن يتقنّ فن الخياطة ولديهن نظر ثاقب". وعندما يعملن على الآلة الكاتبة (وهذا يتطلب تدريباً حقيقياً) يقال:"لديهن موهبة في العزف على البيانو، ولديهن أصابع رشيقة". كان يجب انتظار صدور قانون كروازات Croizat عام 1946 في الفترة التي تلت التحرير، الذي نص على: "تساوي الأجر عند تساوي العمل"، مثال أعلى لم نبلغه حتى يومنا هذا! لقد ناضلت النساء طويلاً ليحصلن على الاعتراف بكفاءاتهنّ، ولن يبلغن هذه الغاية إلّا من خلال دخولهن إلى المدارس وحصولهن على الشهادات المهنية.

التعطّش إلى التعليم

– منذ زمن بعيد، انطلقت المطالبات النسائية من قاعدة متينة اعتمدت على دخول المرأة مجال التعليم.

– نعم، لم يعطَ العلم للنساء إلّا بالتقتير. في عام 1836 لاحظ وزير التعليم العام فرانسوا غيزو François Guizot في العهد الملكي في تموز/يوليو تدنّياً في مستوى التعليم، فقرر أن يوليه اهتمامه. فطلب من كافة البلديات التي يتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف نسمة فتح مدرسة، غير أنه لم يخص بالذكر سوى الفتية. مع ذلك كان غيزو يدين بالمذهب البروتستانتي الذي كان أكثر انفتاحاً أمام تعليم الفتيات من المذهب الكاثوليكي، وكانت زوجته المتعلّمة قد كتبت فيما سبق رسالة عن تعليم الفتيات. ولم تفتح المدارس الخاصة بالفتيات إلّا في عهد الإمبراطورية الثانية بأمر من فيكتور دوروي Victor Duruy وجّهه إلى البلديات ذاتها. وهكذا سجلت فرنسا تأخراً واضح المعالم في مجال التعليم قياساً بإنكلترا وألمانيا بشكل خاص.

– هذه المدارس التي أمر فيكتور دوروي بتأسيسها لصالح الفتيات، هل كانت للمرحلة الابتدائية؟

– نعم في بادئ الأمر. ثم في عام 1867 أنشأ ما يسمى "بالصفوف الثانوية" الخاصة بالفتيات اللاتي تجاوزن سن الثانية عشرة من عمرهن. بذلك أنشأ ما يقارب الخمسين صفاً في المدن الأكثر أهمية، ومع ذلك لا يمكننا التكلم حتى الآن عن تأسيس مدارس حقيقية. ارتادت الشابات هذه الصفوف بصحبة أمهاتهن،

وتلقَّيْنَ عدداً معيناً من ساعات التعليم أسبوعياً. حيث تم تدريسهن اللغة الفرنسية، ولغات أخرى (تحبذها الفتيات)، والفنون الترفيهية، وبعض المعلومات الجغرافية والتاريخية وشيئاً يسيراً من العلوم الطبيعية. وهذا ما يعرف بالحد الأدنى من التعليم. إلى جانب هذه الصفوف الثانوية التي نظمتها الدولة، نجد أيضاً المدارس الداخلية الخاصة الأكثر جديّة، سواء منها الدينية أو العلمانية. وأسرعت عائلات المجتمع الراقي بشكل عام إلى تسجيل بناتهن في هذه المدارس خلال فترة تتراوح بين سنتين إلى ثلاث.

– هل كان الوضع في هذه المدارس الداخلية مختلفاً عما كان عليه داخل الأديرة؟

– هناك تشابه بين المدارس والأديرة مع فارق بسيط بينهما أن الطالبات لا يبقين فيها لمدة طويلة. وصف لنا فلوبير Flaubert في روايته "مدام بوفاري" إحدى هذه المؤسسات. لم يدرِ والد إيما بوفاري بعد أن فقد زوجته كيف يربي ابنته، فبادر إلى إرسالها إلى مدرسة داخلية دينية، حيث كانت سعيدة من جراء تعلمها للقراءة. ولكن هذا العلم كان سبباً في ضياعها، إذ أخذت تلتهم الروايات الغرامية التي غرست أفكاراً جنونية في رأسها... نجح فلوبير بهذه الطريقة إلى خلق ريبة فيما يتعلّق بالفساد السائد داخل أسوار هذه المدارس مما يؤثر سلباً على تعليم الفتيات.

– ويلٌ للفتيات إن هن أطلقن العنان لأحلامهن أو لتفكيرهن! عندما تعود إدارة المدارس الداخلية إلى العلمانيين، من الذي يقوم باختيار المُدرِّسات والمناهج؟

– لم تكن الطبقة البورجوازية الصغيرة قادرة على تأمين رغد العيش في القرن التاسع عشر. كان الأهل يخشون من عدم قدرتهم على توفير المهر لكافة بناتهم وبالتالي عدم تزويجهن، لذلك أرادوا تمكين بناتهم من إعالة أنفسهنّ بأنفسهنّ. طُرحت ضمن هذا الإطار فكرة تأسيس المدارس الداخلية لكي تعمل الفتيات كمترجمات أو معلمات أو مدبرات منزل عند بعض العائلات كون هذا العمل طريقاً شريفاً لكسب العيش. من هنا ولدت الرغبة في تعليم الفتيات ولكنها كانت صادرة عن طبقتي البورجوازية المتوسطة والصغيرة أكثر مما كانت صادرة عن البورجوازية الكبيرة. فقررت نساء شابات متعلمات فتح بعض الصفوف – وكانت هذه بمثابة المدارس الخارجية – وبادرن إلى تعليم بنات مدينتهن. حاولن تعليمهن بشكل جيد.

واعتمد أساس هذه العلوم على "الكم" مع كونها مجرد مبادئ. ثم جاءت الامتحانات لتفرض البرامج.

– هناك أيضاً ما يعرف بالمعلّمات، والفرولاين، مدبرات المنزل اللاتي يتنقلن عبر أوروبا...

– إنهن المعلمات اللاتي قامت العائلات البورجوازية بتوظيفهن حرصاً منها على تعليم بناتها. إنهن يسافرن كثيراً وينتقلن من عائلة إلى أخرى عندما تكبر الفتيات. إنهن على درجة من الثقافة لذلك لا يمكن النيل منهن مثل "الخادمات الصغيرات"، غير أنهن يحصلن دوماً على النصائح نفسها: لا تغادري مكانك، احذري من رب البيت، لا تستسلمي للإغواء. مع ذلك لم يخلُ الأمر من قصص الغرام.

– إذاً بدأت الشابات يسافرن وحدهن من دون مرافقة...

– إذا اطلعنا على مذكرات النساء في تلك الحقبة، نلاحظ انفتاحاً لخيال المرأة نحو السفر والتنقل وكأنه مجال شرعي. ها هي "صحيفة الفتيات" التي حررتها مجموعة من النساء من الطبقة الراقية لصالح قارئات من المجتمع ذاته، والتي ذاع صيتها في القرن التاسع عشر، قد كرّست جزءاً هاماً من صفحاتها لمجالات تقليدية تهم النساء، منها الفنون الترفيهية والرسم والخياطة والعناية بالجسم والأزياء. ولكننا نفاجأ أيضاً بالإرادة الجامحة وبالرغبة الجادة في التعليم التي تضمنتها الصحيفة، وبشكل خاص فيما يخص اللغات الأجنبية والسفر. وكأن الخوف قد ساد من انقياد خيال الفتيات نحو العلاقات الغرامية العابرة، لذلك كان من الأفضل جذب خيالهن إلى إيطاليا أو سيبيريا أو حتى الغابات الاستوائية. نلاحظ نمو هذا الاهتمام في إنكلترا حيث تطالعنا مستكشِفات جريئات. بينما بقيت الأخريات في مجال الترجمة، وهو عمل تحبذه النساء، فيا لها من رسالة جميلة أن تصبح ناقلاً لفكر شخص آخر! بإمكان المرأة التي تتقن لغة أجنبية أن تعمل انطلاقاً من إحدى زوايا بيتها على ترجمة المؤلفات، وتملي بذلك الساعات "الضائعة"! لا تزال مهنة الترجمة إلى يومنا هذا مهنة خاصة بالنساء، لذلك لا يزال أجرها زهيداً في معظم الأحيان.

ثورة المعلمات

– يبقى الطريق الأسهل بالنسبة للنساء في فرنسا هو طريق التدريس؟

– نعم، يبقى هدف كل الطموحات كما أنه هدف كافة الموافقات. تشمل مهنة التدريس المعرفة والاحترام والحنان والحماية... لعب الصراع الذي نشأ بين الكنيسة والدولة دوراً هاماً في هذه القضية. فإذا تأملنا العبارة التي قالها صاحب السيادة دوبانلو Dupanloup خلال الإمبراطورية الثانية: "يجب تربية الفتيات في حضن الكنيسة"، يتبين لنا أن الخطة التي وضعتها الكنيسة تنم عن فكر ثاقب، فهي من خلال المجمع الديني لا تعمل فقط على تنشئة الفتيات على الإيمان إلى جانب التربية بل وتقدم لهنّ العلوم الحقيقية التي تفوق بكثير تلك التي تقدمها الصفوف العلمانية. منذ ذلك الحين، عمل الحزب الجمهوري على تطوير برنامج تعليمي خاص بالفتيات وكان ذلك ضد إرادة الإمبراطور. وبيّن ميشليه Michelet في كتابه بعنوان "المرأة والقس" La Femme et le Prêtre الذي ذاع صيته، الخطر الناجم عن سيطرة الكنيسة على النساء، حيث تعترف النساء أمام المعرّف الذي يستغل الوضع ويتجسّس على الرجال من خلال النساء... أرادت الجمهورية الثالثة تخليص النساء من سطوة القساوسة بإعطائهن الثقافة العلمانية والجمهورية.

– تميّزت الجمهورية الثالثة بانتشار التعليم الإلزامي في المدارس لكافة الأولاد، ذكوراً وإناثاً.

– فرض جول فيري Jules Ferry التعليم العلماني المجاني والإلزامي، وكان ذلك في عام 1881. لم تكن المدارس مختلطة كما اتهمت الكنيسة الجمهورية، وخاصة المدرسة العلمانية، بأنها لا أخلاقية، ولم يرد الجمهوريون أن يجعلوا من أنفسهم عرضة للنقد فلجؤوا إلى فصل الذكور عن الإناث. غير أن البرامج التي تدرَّس للذكور وللإناث غالباً ما تكون متشابهة، فوسائل التعليم والكتب واحدة، والشهادة في نهاية المرحلة هي نفسها، إلّا أن الامتحان يتم في صفوف مختلفة. وتتعلم الفتيات منهاجاً خاصاً بالأمور المنزلية، ولكنه لا يشغل حيزاً كبيراً – شهد هذا المنهاج تطوراً في عهد فيشي Vichy. من ناحية أخرى، تمّ تنظيم دروسٍ في الرياضة البدنية بدءاً من العام 1885 من أجل تهيئة الصبية ليصبحوا جنود المستقبل؛ أما الفتيات فتم إعطاؤهن دروساً في الرقص الإيقاعي، الأكثر رشاقة. واستمر التمييز بين الذكور والإناث من خلال الجسد والحركات وليس من خلال العلوم الفكرية.

– وهذا شيء هام بالتأكيد. من يقول مدارس للإناث يقول أيضاً معلّمات؟

– بالفعل، ساهمت القوانين التي وضعها فيري في تطوير مهنة التعليم. كان المعلم أو المعلمة في الريف يفصل أحياناً بين الإناث والذكور في قاعة التدريس. ولكن عندما تكبر القرية وتزداد أهميتها كانوا يفضلون تعيين زوجين للتعليم، الزوج للاهتمام بمدرسة الذكور والزوجة للعناية بمدرسة الإناث. ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان الطبقة البورجوازية المتوسطة والطبقة البورجوازية الصغيرة، اللتين ضاقت بهما الأحوال خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، توفير المهور لبناتهم، وأصبح التعليم بالنسبة لهم مستقبلاً مشرّفاً. وفي الطبقات الشعبية أصبح التعليم نموذجاً للهوية، وأقبل الفلّاحون والعمال على تعليم أبنائهم. ولكن الأمر كان صعباً، حتى مع وجود المنح، إذ لا بد من توفير مصروف خاص للبنات لمتابعة دراستهن، وتعذّر ذلك على الفلاح بسبب فقره، وكذلك الأمر بالنسبة للعمال من ذوي الدخل المحدود الذين كانوا يتوقون إلى رؤية بناتهم قد تخلصّن من العمل في المصنع، حيث كنّ يتعرّضن للإهانات. وأُجري استبيان في مدينة بيلفيل Belleville عام 1880 سئلت فيه الفتيات الصغيرات من عدة مدارس ابتدائية:"ما هو طموحك للمستقبل؟" فأجاب الثلث منهن:" أريد أن أصبح معلّمة" بينما أضافت كثيرات: "لكن والدي يرفض ذلك". "لماذا؟" "لأنه مكلفٌ للغاية".

– كما أن للتعليم ضريبة أخرى، ألا تعتقدين أن المعلمات حُكم عليهن بالبقاء عانسات؟

– في البداية بقيت الكثيرات منهن من دون زواج. اعتُبرت المعلمات النموذج الأصلي للثقافة، حيث إنهن تفوّقن على الذكور في هذا المضمار. وفي الفترة التي سبقت عام 1914، كنا نجدهن في الحركة الأمريكية المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل، كما كنا نجدهن في كل الحركات السياسية، والنقابية، والداعية إلى السلم، والحركة المالتوسية[1] الحديثة. فقد عملت الكثيرات منهن من أجل الحد من الولادات، كما نادت بعضهن بحق المرأة في الإجهاض، مما زرع الرعب في قلوب الشبان الذين يفكرون بالارتباط. ومع ذلك لم يتردد هؤلاء في إكمال المشوار وإتمام الزواج، خاصة وأن الجمهورية شجّعت الأزواج الذين يعملون في حقل التعليم بإهدائهم الشقق السكنية.

(1) نسبة إلى توماس مالتوس (1766 - 1834)، رجل الاقتصاد البريطاني. يقول مذهب "مالتوس" إن تزايد عدد السكان يفوق نسبياً زيادة الموارد الغذائية لذا يجب الحد من النسل - المترجم.

لقد مثّل كل من المدرّس والمدرّسة نموذجاً جمهورياً: كلاهما كانا متعلمَين، علمانيين، متساويين، ويدرّسان الذكور والإناث بنفس الشروط. لكن المدرسات لم يحصلن على أجر مساوٍ للذي يتقاضاه المدرسون إلّا في عشرينيات القرن الماضي...

أوائل الفتيات اللاتي حُزنَ على شهادة البكالوريا

– لا يمكن للمعلمات اللاتي حصلن على التعليم في المدارس العادية، إجراء امتحانات الشهادة الثانوية مما يحول بينهن وبين دخول الجامعات. متى حصلت أول فتاة على هذه الشهادة؟

– تُدعى أولى الفتيات جولي دوبييه Julie Daubié وحصلت على هذه الشهادة عام 1861 في عهد الإمبراطورية الثانية. عرف عنها أنها عصامية، وكانت أمها معلمة، وثابرت في نضالها لتحصل على حق التقدم للامتحان، وكانت آنذاك في الخامسة والعشرين من عمرها! وببساطة شديدة، كان الأمر بعيداً عن العقل بالنسبة للفتاة. بحثت جولي دوبييه وأهلها عن دعم لدى الشخصيات المرموقة كالصناعي فرانسوا آرليس دوفور François Arlès-Dufour، وكان من حزب سان سيمون الاشتراكي الذي كان يطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة، ويعتبر أن المجتمع يحتوي على صنفين من المقهورين: الطبقة الكادحة والنساء. لذا توسط آرليس دوفور لدى رئيس جامعة ليون محاولاً إقناعه لكن دون إحراز أي نجاح. استنجد بفيكتور دوروي Victor Duruy الذي كان في حينها وزيراً للتعليم العام. من ناحية المبدأ بدا لهذا الأخير الأمر طبيعياً ولكن هناك صعوبة في إقناع الآخرين. فكان لا بد من مناشدة الإمبراطورة أوجيني Eugénie، وكانت جد تقيّة، ولم تكن علمانية مع أنها كانت من نصيرات الحركة الأمريكية المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل. فتدخلت لدى فيكتور دوروي وطلبت منه إعطاء الأوامر لرئيس الجامعة... كان رهاناً سياسياً عظيماً، لم تمانع الإمبراطورة الموالية للكنيسة من أن تتقدم فتاة لامتحان الشهادة الثانوية. ولكن وبعد أن اجتازت الامتحان بنجاح، اضطرت جولي دوبييه للانتظار طويلاً قبل أن يمنّ عليها الوزير بتوقيعه على شهادتها...

– كيف أُدخلت الشهادة الثانوية للفتيات ضمن الأعراف والتقاليد؟

– ببطء وصعوبة. في العام 1880 فتح كاميل سي Camille Sée[1] أولى الثانويات الرسمية الخاصة بالفتيات حيث حضرن تعليماً علمانياً على يد معلماتٍ من ذوات الكفاءات العالية. غير أنه لم يتم تقديم هذه الفتيات لامتحانات البكالوريا، بل خضعن "لشهادة الدراسة الثانوية" التي تختلف امتحاناتها عن البكالوريا المخصصة للفتيان. فلا يحق للفتيات تعلم اللغة اللاتينية أو اليونانية، فهذه اللغات القديمة تمثل عالماً من الأفكار، والحقوق، والفلسفة، أي بتعبير آخر إنها تمثّل قمة المعرفة آنذاك. أما باقي العلوم والتقنيات فإنها لا تحظى بنفس التقدير، ولا ينظر إلى المهندس كما ينظر إلى المثقّف. حتى العلمانيون يحفظون قدسية اللغة اللاتينية التي هي لغة رجال الدين. قدم الاشتراكي جان جوريس Jean Jaurés[2] أطروحته باللغة اللاتينية. فدراسة الفتيات للغة اللاتينية أمر غير مقبول بل ويسبب صدمة للجميع. صاح جول فاليس Jules Vallés[3] – الموالي لمجلس العموم – مستنكراً:" يا لهذا عالم! أن تتعلم الفتيات اللغة اللاتينية!" كان يجب انتظار عام 1905 لتتمكن الفتيات من متابعة دراستهن حتى صف البكالوريا وعام 1924 كي يُسمح لهن بالتقدم إلى امتحانات مشتركة مع الفتيان. لكن لم يصبح التعليم مختلطاً في المدارس إلّا عام 1970.

– ولكن بحصولهن على شهادة البكالوريا تستطيع الفتيات الدخول إلى الجامعة.

– لقد تمّ هذا الأمر أيضاً ببطء شديد. قُدِّر عدد الطالبات في فرنسا بـ 7% عام 1914. بدأ ذلك في مجال الطب مع قدوم اللاجئين اليهود من روسيا. كانت روسيا القيصرية قد فتحت كليات الطب للبنات، ودخلت فيها فتيات يهوديات تميّزن بمستواهنّ التعليمي الرفيع. لكن مع إغلاق الجامعات ثم مع الحركة الشعبية التي قامت ضد اليهود في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، لاذ الكثير من اليهود بالفرار وشهدت كل من زوريخ ولندن وباريس قدوم الفتيات اليهوديات ومطالبتهن بإتمام دراستهن. كما هربت فتيات بولونيات غير يهوديات من الاحتلال الروسي الذي كان يحرّم دخول الفتيات إلى جامعات بولونيا، وكانت ماري كوري من

(1) كاميل سي (1847-1919)، رجل سياسة فرنسي اصدر قانوناً يقضي بإنشاء مدرسة للفتيات عام 1880، كما أسس دار المعلمين العليا في سيفر عام 1881 – المترجم.

(2) جوريس (1859-1914)، سياسيّ فرنسي، لمع في دراسته الجامعية، عمل كصحفي ونائب جمهوري، ثم اصبح نائباً اشتراكياً. كان القائد الحقيقي للحزب الاشتراكي الفرنسي مما تسبب له بعداء القوميين. مات مقتولاً- المترجم.

(3) فاليس (1832-1885) اديب فرنسي وصحافي ملتزم - المترجم.

ضمنهن. فما كان من حكومة الجمهورية الفرنسية إلّا تشجيع طموح هؤلاء الفتيات بل وفرضت وجودهن على الجامعات.

– إذاً كان يجب فرضهن على الآخرين...

– لم يكن هذا الأمر يخلق مشكلة لدى الأساتذة بقدر ما خلق لدى الطلاب أنفسهم. إذ نظّم هؤلاء احتجاجات وأحدثوا الجلبة تعبيراً منهم عن رفضهم دخول الفتيات أروقة الجامعات. لم يحسم هذا الصخب إلّا بعد تدخّل الأساتذة لصالح الفتيات. وتمّ إضافة عدد من الحجّاب الجدد للكلية من أجل استتباب النظام. وأخيراً رضخ الطلاب واستسلموا. تمكنت بعض الفتيات قبل عام 1914 من إتمام دراستهن في مجالي الطب والحقوق. وبشكل عام شكلت الفتيات الأجنبيات من اللاتي نجحن في فحص الدخول لكلية الطب الغالبية العظمى ولكن لم يكنّ الوحيدات. كانت مادلين بليتييه Madeleine Pelletier على سبيل المثال السبّاقة لإجراء امتحان الدخول في قسم الطب النفسي الذي كان يعتبر خاصاً بالطلبة الذكور، وقد تصدّى لاكتساح الإناث أكثر من أي فرع آخر.

"الطالبة تعني صاحبة الطالب"

– ها نحن أخيراً في زمن الطالبات...

– حتى إن الكلمة بحد ذاتها تطرح مشكلة. عندما نفتح قاموس القرن التاسع عشر بحثاً عن شرح لكلمة "طالبة"، نجد أنها "صاحبة الطالب"، إنها تلك الفتاة المنحلّة الأخلاق، القادمة من بيئة شعبية، التي تعيش مع الطالب، وتضاجعه، وتهتم بشؤون بيته وهي على يقين أنه لن يتخذها زوجة له. أُدخل تعبير "الطالبات الفتيات" في الإحصائيات بدءاً من العام 1900، وكأن كلمة الإناث لم تعد تكفي. لم تتخذ الكلمة مضمونها الحديث إلّا بعد عام 1918. أصبحت الفترة الواقعة ما بين الحربين تمثّل حقبة الطالبات بحق، وبلغت نسبة الطالبات 27% في عام 1939. مع ذلك لم نتوصل للتعادل ولكننا في تطور مستمر. بدأنا نشهد الحائزات على درجة الأستاذية الأوائل، مثل سيمون دو بوفوار[1] التي تقدمت لامتحان درجة الأستاذية

(1) سيمون دو بوفوار (1908-1986)، أديبة فرنسية. كانت تلميذة جان بول سارتر وصاحبته. من المناصرات والمتحمسات لحركة المساواة بين الرجال والنساء- المترجم.

في علوم الفلسفة عام 1929؛ أو سيمون ويل[1] عام 1931، في حين نجحت كوليت أودري في امتحان درجة الأستاذية في الآداب، وحازت على جائزة ميديسيس[2] Prix Médicis. أما جيرمين تييون Germaine Tillion فقد نجحت في امتحان علم الأجناس عام 1939، وحالت الحرب بينها وبين إتمام مهمتها كباحثة في علم الأجناس في الجزائر. مع ذلك، بقيت قطاعات العلوم التقليدية منحصرة في الذكور (كالفلسفة والآداب والعلوم). ثم برزت مجالات جديدة أمام الفتيات أقل انتشاراً من سابقاتها: كعلم الاجتماع والتحليل النفسي وعلم الأجناس. يجدر بنا أن نبيّن هنا الانفتاح الذي أتاحه هذا العلم الأخير على جغرافية البلاد وعلى التنقل فيما بينها مع الفكر التبشيري الذي يحظى بتشجيع الكنيسة.

– مجمل القول إن النساء غالباً ما يُدفع بهن إلى التضحية بالذات. وفي مطلع عام 1940، حاول نظام فيشي مجدداً "إعادتهن إلى المنزل".

– جاء خطاب فيشي تقليدياً للغاية، وهو من المناهضين الشرسين لحركة المساواة بين الرجل والمرأة، بل ويرى في المساواة بينهما أحد عوامل الخسارة لفرنسا. لم تمانع حكومة فيشي من تردد الفتيات على المدرسة أو الثانوية الرسمية ولكنها أدخلت بعض التعديلات على البرامج بتطوير التعليم المنزلي وتربية الأطفال مع فرض "الثقافة الوطنية والأخلاقية" بطريقة تقليدية للغاية، كما تمّ التأكيد على التمييز بين الذكور والإناث. يتعلق الموضوع باختصار بإعادة تربية الفتيات. لا ينحصر الاهتمام بتأهيلهن لدورهن كزوجات وأمهات ولكن يُثقل كاهلهن بجرم دفين: فالمرأة هي السبب بهزيمة فرنسا.

– هل حقاً كان لهذا أي أثر؟

– من الصعب الجزم في هذا الموضوع. لقد تأثرت المراهقات في ذلك الوقت من جراء هذا الخطاب، مما أثنى البعض منهن عن عزمهن على متابعة الدراسة. ولكن لم يدم الوضع على ما هو عليه سوى أربع سنوات كما أنه لم يؤخر دخول الفتيات إلى الجامعة بقدر ما اضطرهن إلى كسب عيشهن نتيجة تدهور الوضع

(1) سيمون ويل (1909-1943)، اختصاصية في علوم الفلسفة، تنم حياتها عن تصوف مسيحي. عاشت حياتها تبحث عن العدالة الاجتماعية - المترجم.

(2) جائزة الآداب الفرنسية، انشئت عام 1958 وتعطى لمؤلف روايات أو قصص غير مشهور- المترجم.

المالي للطبقة البورجوازية في عهد التحرر. ومع ذلك لم تأتِ عواقب الحرب في صالح الحركة النسائية، وأُرغمت الأمهات الشابات على ملازمة منازلهن بسبب قدوم الطفل المفاجئ. وأخذ عدد الطالبات يزداد يوماً بعد يوم، ولكن عند الزواج، تتخلّى هؤلاء الشابات اللاتي يحملن الشهادات عن العمل. وحتى في عصرنا الحالي، هناك العديد من النساء الجامعيات اللاتي يقعن فريسة رغبات متناقضة بين حياتهن المهنية وحياتهن الخاصة، أو يتركن حق الصدارة والتقدم للزوج ويضعن مهنتهن في حالة سبات عند ولادة أول طفل. يمكننا أن نقول إنه لم تتحقق المساواة في هذا المجال حتى الآن.

الفصل السابع

تَصَدُّر الكلام

الوصيّة على العرش المثيرة للقلق

– **نيكول باشاران**: لما كانت المرأة تعمل منذ زمن بعيد داخل منزلها وخارجه – في الحقل، والورشة، والمتجر، والمصنع، والمكتب – سواء كانت سعيدة من جراء ذلك أم لم تكن، فإنها بالمقابل، لم تجد لها مكاناً في المجال العام، في "المواطنة" حيث تؤخذ القرارات التي تحكم الجماعة.

– **ميشيل بيرو**: لم تتح الفرصة خلال القرون المنصرمة أمام الكثيرين، رجالاً أو نساءً، للإدلاء بآرائهم فيما يتعلّق بالقضايا العامة! الإغريق هم أول من أثار موضوع "حق المواطنة"، غير أن هذا التطور الديمقراطي كان يمثّل حالة استثنائية. تتألّف الوحدة السياسية والاقتصادية اليونانية التي تبت في أمور الخير العام والحرب والسلم والضرائب والتموين والألعاب من الرجال الأحرار... أما البربر والعبيد والنساء، فيستثنون. ومما لا شك فيه أن زوجات المواطنين هنّ من الحرائر، ولكنهنّ لا يتمتعن بالمواطنة، فالحكومة والقرارات أو حق الانتخاب أو التمثيل، هذه القضايا هي من حق الرجل دون المرأة. كذلك الأمر في روما: حيث تتمتع زوجات المواطنين بالحرية لكنهن لا يملكن "حق المواطنة". فهنّ مستبعدات من الدائرة العامة.

– لقد شاهدنا مع ذلك في النظامين الإقطاعي والملكي اللذين سادا في أوروبا، نساءً يتخذن القرارات فيما يتعلّق بالقضايا العامة: كالملكات والوصيّات على العرش وسيدات القصور...

– لقد مارست النساء بالفعل السلطة الملكية بشكل كامل في بلد كبريطانيا العظمى التي لم تكن تعرف شريعة الإفرنج[1]. كان هذا حال إليزابيث الأولى[2] (وإذا كانت الملكة إليزابث الثانية اليوم مجردة من السلطة فذلك يعود إلى القوانين الأساسية السائدة في البلاد وليس لكونها من الجنس اللطيف، حتى إن الملك ذاته لا يملك السلطة). اختلف الأمر في فرنسا، حيث إن الفرنجة[3] الذين جلبوا شريعة الإفرنج، كانوا يحرمون النساء من الميراث بوجود الذَكَر. طُبق هذا المبدأ في القرون الأولى بشكل خاص على تركة الميراث العقاري ولكنه لم يراعَ كثيراً في ارتقاء العرش، فمارست الملكات الميروفنجيات Mérovingiennes[4] الحكم الحقيقي مثل كلوتيلد Clotilde وبرونهو Brunehaut أو فريديغوند Frédégonde. ومع بدايات القرن الرابع عشر، طُبقتْ شريعة الإفرنج كقانون عام للمملكة بهدف إقصاء سلالة البلانتاجنيه les Plantagenêts الإنكليز (وهم من سلالة الكابسيان– Capétiens – من ناحية النساء) عن الحكم لصالح الفالوا les Valois. ومنذ ذلك التاريخ، أُقصيت الملكات عن الحكم ليقتصر دورهن على زوجات الملك. ثم تبع ذلك سياسة المصاهرة، وكانت الزوجات أجنبيات في معظم الأحيان، لذلك لم يُمنحن الثقة إلى درجة كان يخصص لهن مبلغ من المال كإرث من الملك في حال وفاته كي لا يكن لهن ذريعة في الوصول إلى الأموال العامة. أما إذا كان الابن الأكبر قاصراً عند وفاة والده الملك، عندئذٍ فقط تصبح الملكة الأم وصية على العرش. وكانت فترات الوصاية هذه مصدر رعب لدى الشعب.

– تحصل الملكة على السلطة في غياب البديل وبانتظار أن يكبر الابن ويحمل الراية...

– هذا فعلاً ما كان يحصل. كان الكل يحذّر من وصول الوصية على العرش

(1) شريعة الإفرنج: قانون فرنسي تم تفسيره في القرن الرابع عشر وينص على حرمان النساء من الميراث العقاري وارتقاء عرش فرنسا - المترجم.

(2) إليزابيث الأولى (1558-1603) امتد حكمها على إنكلترا وإيرلندا، عرفت بقوة الشكيمة والتسلط.، وهي المؤسِّسة الأولى للكنيسة الانغليكانية (كنيسة وسطية بين الكاثوليك والبروتستانت)- المترجم.

(3) الفرنجة: الشعب الالماني الذي أعطى اسمه لفرنسا، اتحدوا تحت لواء كلوفيس وسيطروا على بلاد الغال وحكموها خلال القرنين الخامس والسادس وكان منهم الميروفنجيان ثم الكارولانجيان، وإليهم يرجع تأسيس شريعة الإفرنج - المترجم.

(4) الميروفنجيان هم سلالة ملوك الفرنك الذين سيطروا على بلاد الغال الفرنسية ما بين 481 و751، يدعى مؤسِّس هذه السلالة كلوفيس، حفيد القائد فرنك - المترجم.

إلى الحكم، لذلك غالباً ما كان يتعذّر عليها فرض سيطرتها. كان هنري الرابع قد أعدّ مجلس وصاية، مكلف بمراقبة ماري دو ميديسيس Marie de Médicis. واعتمدت آن النمساوية Anne d'Autriche[1]، على مساعدة مازاران Mazarin[2]. أما لويس الرابع عشر فقد رفض بإصرار أن تنتقل السلطة إلى زوجته الثانية، مدام دو مانتونون Mme de Maintenon رغم تأثيرها القوي عليه. وبموت الملك، كان مجلس الوصاية على استعداد لتعيين فيليب دورليان Philippe d'Orléans. في الحقيقة، الوصية الوحيدة التي حازت على رضى من معاصريها هي بلانش دو كاستيل[3] Blanche de Castille، والدة سان لويس Saint Louis... مع ذلك، وصفها محررو الأخبار بأنها امرأة سليطة، ومتحكمة للغاية.

– ولكن أليس هذا هو حال النساء اللاتي يستلمن السلطة حتى لو كنّ ملكات بقوة القانون، مثل كريستين Christine[4] ملكة السويد أو كاثرين الكبرى Catherine[5] إمبراطورة روسيا؟

– بلى، بل يعتبرهما الناس "مسترجلتان"، وكانوا ينسبون إليهما نشاطاً جنسياً رجولياً مفرطاً. يُرجح أنهما كانتا من الجنس الثالث. بالنسبة لإليزابيث الأولى ملكة إنكلترا فهي لم تتزوج ولم تنجب أطفالاً لذلك سميت بالملكة العذراء. وكأن الأنوثة والسلطة لا تجتمعان... على كل حال، وسواء كنّ ملكات أو وصيات على العرش، كانت سمعة هؤلاء النساء تتسم بالشراسة والفظاظة. كانت كاثرين دو ميديسيس تمثل المرأة ذات الأخلاق الفاسدة في قمتها: كانت أجنبية من أصل إيطالي، وكانت أماً تعسفية، وكان لدى أبنائها شذوذ جنسي، وقعت تحت تأثير

(1) آن (1601-1666)، هي ملكة فرنسا وابنة ملك إسبانيا وزوجة لويس الثالث عشر، اعتلت العرش كوصية على ملك المستقبل لويس الرابع عشر الذي كان قاصراً (1643-1661)، حكمت البلاد بمساعدة مازاران- المترجم.

(2) مازاران: (1602-1661)، كان حَبْراً ورجل دولة فرنسي من اصل إيطالي، اعتمدت عليه الملكة آن كوزير لها - المترجم.

(3) بلانش دو كاستيل (1188-1252) ملكة فرنسا وزوجة لويس الثامن ووالدة سان لويس الذي كانت وصية عليه ما بين 1226-1234 – المترجم.

(4) كريستين (1626-1689) ملكة السويد، جعلت من بلاطها الملكي مركزاً للفلسفة الإنسانية واستقبلت فيه الفيلسوف ديكارت- المترجم.

(5) كاثرين الثانية (1729-1796)، أبعدت زوجها بيير الثالث عن السلطة واستولت على الحكم ما بين 1762-1796، كانت تتبادل الرسائل مع فولتير وتستقبل ديدرو Diderot في مجلسها، توسعت روسيا في عهدها على حساب الإمبراطورية العثمانية- المترجم.

السحرة والمشعوذين، واشتهرت بنزعتها لدس السمّ للآخرين... أسندت إليها مسؤولية السان بارتيليمي la Saint-Barthélemy لفترة طويلة. كان ميشليه Michelet[1] يردد قائلاً:" هذا ما يحصل عندما تسيطر النساء على دفة الحكم." إلّا أن المؤرخين المعاصرين أعادوا لها اعتبارها.

– حتى لو بقيت النساء في الظل، يعتبر تأثيرهن على رجال السلطة هدّاماً.

– الكل يحذر من التأثير الخفي للنساء، علماً أنهم يبالغون أحياناً في ذلك. ووصل الأمر ببعضهم لأن يقول: "ولكن مَمّ تشتكي هؤلاء النساء؟ لقد بدأن ببسط نفوذهنّ!" وهذا صحيح، عندما حصلت النساء على هذا التأثير الخفي، حاولن الاستفادة منه، لكن سلطتهن لم تكن شرعية، إنها منوطة بنزعات الأمير. بقيت مدام دو مانتونون إلى جانب لويس الرابع عشر، لكنها عاشت في الظل: فهو لم يعترف أمام الشعب بأنه تزوج للمرة الثانية. طوّعت سلطتها في خدمة الكنيسة، فحصدت كره الناس لها. ولعبت مدام دو بومبادور Mme de Pompadour المقرّبة من لويس الخامس عشر دوراً ثقافياً حقيقياً واستخدمت ذكاءها، وكانت راعية للفنانين والفلاسفة، وكانت تتوسط لدى الملك لإعطائهم بعض الحريات، والخلاص من الرقابة. لكن الحظوة التي تمتعت بها أولئك النساء كانت تنتهي بانتهاء اهتمام الحاكم بشخصهن، فعندما كان يمل من وجودهن كان يقصيهن.

– بعيداً عن الحكم أو الحظوة، ألم تمارس أولئك النسوة شيئاً من السلطة عن طريق "فن الحوار" وحياة الصالونات التي كانت الفرنسيات تبرع فيها؟

– كان انتشار فن الحوار في المدينة أكثر من انتشاره في البلاط الملكي. هذا الفن يجعل من المرأة الحَكَم المطلق للعادات والتقاليد واللباقة مع استخدام تعابير مماثلة لتلك التي يستخدمها الرجال. كان هذا حال مركيزة دو رامبوييه marquise de Rambouillet بغرفتها الزرقاء، فكانت رائدة الصالونات. ولكن كان عليهن مراعاة الحدود: يمكنهن التحدث إلى الفلاسفة ولكنهن لم يكنّ في يوم من الأيام فلاسفة. إنهن يجلسن في الصالونات لنشر أفكار الآخرين ويتصرفن كسيدات منزل رائعات. وفضّلت بعضهن لعب دور الوساطة ولم يسعين للحصول على السلطة بشكل

(1) ميشليه (1798-1874) أحد المؤرخين الفرنسيين، عرف بأفكاره المتحررة والمعارضة لتدخل الإكليروس في الشؤون العامة - المترجم.

مباشر. كان القرن الثامن عشر للنخبة البورجوازية والأرستقراطية بمثابة زمن مميّز للعلاقات بين الرجال والنساء، تساوى فيه الرجال والنساء بتبادل الغزل. مع ذلك، كانت هذه الكياسة الرقيقة وسيلة لإقصاء النساء عن المطالبة بالمساواة فيما يتعلق بالحقوق، حيث كانت تُقدَّم إليهن الورود والمجوهرات ثم يتم إبعادهن.

هؤلاء النساء الشرسات المثيرات للفتن

– قد يشهد التاريخ أيضاً اقتحام النساء للدائرة العامة وإثارة الجلبة من دون دعوة من أحد.

– قد يحملنَ السلاح ويقدنَ الفتن! أثناء الاضطرابات التي عرفت باسم لافروند[1] la Fronde امتطت كل من الآنسة الكبيرة أو الدوقة آن ماري لويز دورليان والسيدة لونغفيل Mme de Longueville أو الدوقة آن دو بوربون[2] Anne de Bourbon جواديهما بعد أن تنكّرتا بزي الرجال وأطلقتا النار. وخلال الحروب الدينية، تمركزت نساء من البروتستانت على أسوار المدن مشاركة منهن في المعركة ودفاعاً عن المدن المحاصرة من قبل الكاثوليك. أما بالنسبة لنساء الطبقات الشعبية، فقد شاركن في عمل مميّز بإثارتهن للاضطرابات مطالبةً منهن بالمواد التموينية، وذلك عندما ساد الشحّ في الحبوب والدقيق والخبز في العهد القديم. واتسعت رقعة الاضطرابات في القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما لم يعد بالإمكان مقارنة الإنتاجية ووسائل المواصلات بما سيؤول إليه الحال في المستقبل. بل ودفع الرجال بالنساء إلى المقدِّمة، فكان عليهن تأمين القوت اليومي، سيما وأنهن كنّ على علم بالأسعار بحكم كونهن ربات بيوت وأمهات. وساد الحديث في تلك الحقبة الزمنية عن "الاقتصاد الخُلُقي" وعُيّنت النساء كحارسات. تمّ وضع سعرٍ شرعيٍ للمواد أي "السعر الحقيقي" إذا تجاوزه التاجر يُحكم عليه بأنه لاأخلاقي، ويصبح من حق النساء الاحتجاج. ولم يعترض الأزواج على خروج نسائهم في الاضطرابات وإثارة

(1) اضطرابات لافروند (1648-1653) انطلعت عندما كان الملك لويس الرابع عشر تحت الوصاية بسبب سياسة الضرائب التي اتبعها الكاردينال مازاران، وانتهت بإخفاق الثورة وانتصار مازاران- المترجم

(2) الدوقة آن دو بوربون (1619-1679) ناصبت مازاران العداء ولعبت دوراً هاماً في اضطرابات لافروند - المترجم

أهل الحيّ، والصراخ بالصوت العالي حتى تُصبح وجوههن حمراء من الغضب، ولا بأس إذا قلبت النساء بسطة البضائع، وأسأن معاملة الطحان والخباز، أي كل من يسمى "محتكراً". ولكن الخطر كان يحدق بأولئك النساء، إذ كنّ يتعرّضن للاعتقال والإدانة وأحياناً للموت شنقاً.

– لقد شاهدنا إبان الثورة نساءً يتوجّهن إلى قصر فرساي للمطالبة بالخبز...

– والعودة بالخبّاز والخبازة وأجيرهما الصغير إلى باريس. ترى هل يرجع هؤلاء إلى باريس لو كانت الثورة بقيادة الرجال؟ لست واثقة من ذلك. كانت أولئك النسوة اللاتي طالبن بالخبز يمثلن الشعب بكافة أطيافه لذلك جاء طلبهنّ شرعياً. لقد سطّر ميشليه رواية مفصّلة عن الأيام التي اقتحمت فيها أولئك النسوة مبنى الجمعية الوطنية ومراكز السلطة، في الوقت الذي كان يرغب في إقصائهنّ إلى المجال الخاص بهنّ، وها هو الآن يدعم موقفهنّ: إنهن يتصرفن كأمهات.

– هل تكررت مع الأيام تلك الاضطرابات التي قادتها النساء ضد ظاهرة الجوع؟

– نعم، شهد تاريخ فرنسا في الأعوام 1846 و1847 مظاهرات مماثلة، وكانت سنوات قحط، حيث اختفت سلع من الأسواق مثل البطاطا والقمح، وارتفعت الأسعار بشكل خيالي، تبع ذلك أزمة صناعية حقيقية... وشيئاً فشيئاً اندثر الجدب خلال الإمبراطورية الثانية، وكثرت المحاصيل الزراعية وتنوعت، وعادت السفن البخارية لتبحر باتجاه فرنسا معبأة بالحبوب من أمريكا الشمالية وباللحم من أمريكا الجنوبية، وسُيِّرت القطارات في فرنسا وفي أوروبا مزودة بالمواد التموينية... بيد أننا كنا نشاهد عودة النساء إلى الشوارع في كل مرة تتعرض فيها البلاد إلى ارتفاع في الأسعار. ففي عام 1910 على سبيل المثال، اندلعت ثورة عارمة في كل أوروبا احتجاجاً على ارتفاع أسعار الزبدة والحليب (مما يشير إلى تحسّن في مستوى المعيشة وإلى توفر مادة الخبز على الأقل). لكن المتظاهرات – اللاتي كنّ يقلبن بسطات البضائع في الماضي– أصبحن في هذه المرة أكثر تنظيماً، لقد انتسبن إلى الجمعيات، وأصبحن يلوحن باليافطات مما أثار قلق النقابات، التي حاولت إحكام سيطرتها على أولئك المطالبات مع أخذ الحيطة والحذر من عنف النساء. وما إن انتهت الأزمة حتى عادت أولئك المتظاهرات ليقبعن في بيوتهن من غير أن يحصلن على أية سلطة، بل تم إبعادهن مرة أخرى عن الدائرة العامة... وبعد عدة سنوات،

أي في عام 1942 بالتحديد، شهدت باريس مظاهرات تتقدمها النساء. على كل حال، سطّرت إحدى المتظاهرات – التي تم اعتقالها ونفيها إلى رافنسبروك[1] – وتدعى ليز لندن Lise London مذكراتها تحت الاسم المستعار الذي ألبستها إياه حكومة فيشي: المرأة الشرسة في شارع داغير. يجب أن ننوّه هنا إلى أن تلك المظاهرات التي قامت للمطالبة بالمواد الغذائية لم تأتِ بالصدفة، بل اهتم الحزب الشيوعي بتنظيمها في مثل تلك الظروف، ولكنها مع ذلك كانت شكلاً من أشكال المقاومة.

الحق في اعتلاء ... المقصلة

– إلى جانب هذه الاضطرابات، ألم تلعب النساء ولأول مرة دوراً سياسياً حقيقياً خلال الثورة؟

– حاولن ذلك ولكن سرعان ما أُبعدن عن الفصائل، ثم عن النوادي كاليعاقبة[2] و"الكوردلييه"[3] عندما انتظم فيهما العمل السياسي. كان النواب جميعهم من الرجال. عندما نظّم سييس[4] قانون الانتخابات، عمل على الفور على إقصاء النساء منه، وميّز بين المواطنين الفعّالين الذين يشاركون في الدائرة العامة والمواطنين السلبيين أي الفقراء (وكان هؤلاء في غالبيتهم من الأميين واعتبر سييس أنهم لا يعيشون قضايا الأمة) والأطفال وذوي العاهات العقلية والأجانب و... النساء؛ كل النساء بلا استثناء. من الجدير بالذكر أن الكثير من المواطنين السلبيين الذين أقحمهم سييس في هذا الاستثناء قادرون على تغيير حالهم، فالأطفال سيبلغون سن الرشد لا محالة، وقد يقتني الفقراء الأملاك ويتعلمون القراءة والكتابة،

(1) Ravensbrück اسم لمعتقل ألماني خاص بالنساء (1939-1945) في مدينة بألمانيا تدعى براندبورغ - المترجم.

(2) اليعاقبة (1789-1799) ناد سياسي ثوري أسس في عهد الثورة الفرنسية. أسسه في فرساي نواب من منطقة بريتانيه الفرنسية، استقبل فيما بعد ممثلين من باقي المناطق ليستقر أخيراً في باريس في دير اليعاقبة - المترجم.

(3) Cordeliers ناد ثوري أنشئ في باريس عام 1790، وكان من رؤسائه دانتون ومارا وغيرهما وانتهى تأثيره عام 1794 – المترجم.

(4) Emmanuel Joseph Sieyés (1748-1836) رجل سياسة فرنسي، لاقى شعبية كبيرة عندما نشر كتيباً بعنوان "من هم العوام" عام 1989 – المترجم.

وقد يتعافى المرضى، وقد يحصل الأجانب على الجنسية... ولكن ماذا عن النساء؟ إنهن سيبقين نساءً. لذلك تم استبعادهنّ.

– ألم يعترض أحد؟

– احتج بعض الرجال، فيما عدا كوندورسيه[1] الذي كتب عام 1790 بحثاً حول "منح النساء حق المواطنة" يدحض فيه كل الحجج التي تناولت عدم قدرة النساء الفطرية المفترضة، مضيفاً بشيء من روح الفكاهة: "يصعب تقديم الدلائل التي تبرهن على عدم قدرة النساء على ممارسة حق المواطنة. ما الذي يمنع كائنات يعشن حالات الحمل والإنجاب والدورات الشهرية العابرة من ممارسة حقوقٍ لم يخطر على بالنا منعها عن أناس تسيل أنوفهم باستمرار في مواسم الشتاء ويتعرضون بسهولة للزكام والرشح؟"

– ألم يلجأ بعض الثوار إلى استخدام وجه الملكة ماري أنطوانيت[2] لإبراز تأثير النساء المخرّب للسلطة حالما يقتربن منها؟

– وهذه حجة إضافية! كانت ماري أنطوانيت موضع كراهية الجميع، وكان يقال عنها إنها إنسانة تافهة، ومبذّرة، ولعوب، وأمّ سيئة، وزوجة طالحة، والأكثر من ذلك كانت خائنة لوطنها: إذ إنها تجسّد المرأة التي يجب ألا تمارس السلطة. تميّزت نهاية القرن الثامن عشر بالفسق والفجور والتهتك، مع ذلك كان الكثير من الثوار يطالبون بفرض الأخلاق... وفي الواقع، ما إن تمكّن الرجال من ممارسة دور سياسي حقيقي، حيث تَحَقَّقَ لهم ذلك مع سقوط الحكم الملكي، حتى مارسوا هذا الدور بعيداً عن النساء وعن منتدياتهن الأدبية التي كانوا يرتادونها سابقاً. اعتمد الثوار في ثورتهم على الجمهورية الرومانية. وكانوا يعتقدون أن السياسة وفن الخطابة يدخلان في مجال الرجال وحدهم. ويرتبط مفهوما المساواة والحرية بمفهوم الأخوّة، الذي هو تعبير خاص بالرجال، ليدل كل ذلك على تضامن الرجال فيما بينهم. صحيح أن

---

(1) Marie Jean Antoine, Marquis de Condorcet (1743-1794) عالم ورجل سياسة فرنسي، كتب العديد من المقالات العلمية والفلسفية، وضع حداً لحياته بتجرع السم- المترجم

(2) ماري أنطوانيت (1755-1793)، ملكة فرنسا وابنة الإمبراطور الالماني فرانسوا الاول، وزوجة لويس السادس عشر، نسبت إليها كل الفضائح وكانت تحارب الإصلاحات. دفعت بالملك إلى قمع الثورة فمقتها الشعب، ونفذ فيها حكم الإعدام بالمقصلة في شهر تشرين الأول/أكتوبر بعد إعدام الملك في كانون الثاني من العام ذاته، وكانت قد اعتقلت عام 1792 – المترجم.

النساء كنّ موضع احترام الرجال، وكانت تطلق عليهن كلمة "مواطنات"، لكن الاعتقاد السائد كان يقضي بعدم تجاوز النساء حدود عائلاتهن فيما يخص ممارستهن للسلطة، وأنهن مسؤولات عن تربية مواطني المستقبل وتنشئتهم. أما باقي الأمور فيجب ألّا تدخل في مجالهن.

– ألم تعترض النساء على هذه النقطة؟

– حاولت العديدات من النساء اتخاذ موقف مناوئ في محاولة منهن لفرض وجودهن في المجال السياسي. دخلت "حائكات الصنّارة" منابر المؤتمر لزجر المنتَخبين، مما روّع ميشليه. تشكلت بعد ذلك نواد خاصة بالنساء في باريس وريفها. ونظراً لعدم وجود الصحف قامت بنشر "الورق" وبثت ما عرف بالعريضة. كتبت أولمب دو غوج Olympe de Gouges[1] الفنّانة والأديبة في عام 1791 نصاً رائعاً يتعلّق بـ "إعلان حقوق المرأة والمواطنة"، وجاء في سبعة عشر مقالاً بوضوح تام. لم تكتفِ باستخدام أهم ما جاء في إعلان حقوق الرجل لعام 1789 بل طالبت أيضاً بتطبيق المساواة بين كل المواطنين.

– لقد وعينا جملتها الشهيرة التي قالت فيها:" يحق للمرأة أن تعتلي المقصلة، كما يحق لها اعتلاء المنبر... "

– فكان أن اعتلت أولمب دو غوج المقصلة عام 1793 لأنها دافعت عن الملك لويس السادس عشر ولكن من دون أن تحصل النساء على أدنى حق سياسي. بعد تنفيذ حكم الإعدام بها، كتب شوميت Chaumette[2] النائب العام في مجلس العموم في باريس في صحيفة المونيتور le Moniteur[3]:" تذكروا جيداً تلك الوقحة أولمب دو غوج التي كانت أول من أسس مجتمعات النساء وهجرت واجباتها كربة أسرة لتتدخل في أمور الجمهورية، ها هي قد سقط رأسها بحد سيف القانون المنتقِم... "

(1) وهي ماري غوز الملقبة بالأولمب (1748 أو 1755-1793)، أديبة ومن الثوار الفرنسيات. طالبت بتحرر النساء ونفذ فيها حكم الإعدام بالمقصلة بسبب دفاعها عن الملك لويس السادس عشر- المترجم.

(2) بيار غاسبار شوميت (1763-1794) من الثوار الفرنسيين، كان عضواً في مجلس العموم في باريس، تم توقيفه في عهد روبسبيير مع الصحافي ورجل السياسة هيبير ونفذ فيه حكم الإعدام بالمقصلة - المترجم.

(3) صحيفة الحكومة الرسمية آنذاك حتى عام 1869 – المترجم.

– يا له من رثاء حزين! هل نعتبر رغم كل ذلك أن المطالب التي نادت بها أولئك الرائدات قد دخلتْ المجتمع؟

– يجب ألا ندع الأوهام تسيطر علينا: كانت فرنسا في عهد الثورة بلداً ريفياً، وكانت الغالبية العظمى من نسائه يعشن في الأرياف ولم يسمعن قط بأولمب دو غوج. أما في المدن فكان الأمر مختلفاً، كنا نجد نساءً مثقفات، وصحفاً تتداولها الأيدي. كانت شارلوت كوردي Charlotte Corday[1] على علم بأحداث الثورة إلى درجة حاولت ثني الجيروندبين عن عزمهم فقَتلتْ مارا Marat[2]. ومن ناحية أخرى لعبت النساء دوراً مضاداً للثورة، بسبب إيمانهن بدينهن، فعندما قامت الثورة بتأميم أملاك رجال الدين، وطلبت منهم الإدلاء بقسم الولاء للدولة واضطهدت منهم من لم يثبت ولاؤه، عندئذٍ شعرت النساء بارتباطهن القوي بالكنيسة فعملن على حماية هؤلاء. فكانت تلك حجة للجمهوريين لرفض منح النساء الحق في التصويت لمدة طويلة.

– بعد حرمانهن من حقوقهن السياسية، هل حصلن على حقوقهن المدنية والفردية؟

– بادرت الثورة الفرنسية إلى فتح ثغرة تخرج منها الحريات الفردية لتقيم العدالة في الميراث والزواج المدني والحق في الطلاق. لكن سرعان ما تراجع نابليون عن جزء من هذه التنازلات فأعاد القانون المدني للهيمنة الذكورية لتمارس دورها الكامل. فتمت إعادة هيكلة العلاقات بين المحيط العام والمحيط الخاص، واعتمد المجتمع المدني على العائلة التي أصبحت مسؤولة عن أمور عدة، منها الصحة والتربية والملكية والدعم. العائلة هي المتحدث لدى الدولة، بينما يمارس الرجل سيطرته عليها من دون رادع. فهو من يدير شؤون العائلة ويمثلها. اعتمدت الفلسفة السياسية آنذاك على تلك الرؤية لوحدة العائلة، إلى درجة جعلت إيمانويل كانط يعارض معاقبة المرأة لقتلها طفلها الذي ولد من الزنا بحجة أن هذا الطفل لا يستحق العيش. تعتمد هذه الرحمة بالنساء على منطق خاص بعلم العائلة لذلك لا

(1) شارلوت كوردي (1768-1793) شاركت في الثورة الفرنسية، وطعنت مارا بخنجرها في حوض الحمام ثأراً للجيروندبين وأُعدمت بالمقصلة - المترجم.

(2) مارا (1743-1793) رجل سياسة فرنسي، وطبيب، أنشأ صحيفة "صديق الشعب" المفضلة لدى الثوار، نصّب نفسه محامياً ليدافع عن مصالح الشعب. صوّت لمقتل الملك لويس السادس عشر، ودخل في صراع مع الجيروندبين مما ساهم في نهايتهم. مات مقتولاً في حوض حمامه على يد شارلوت كوردي- المترجم.

يُعترف بالنساء كأفراد. وفي مطلع العام 1816، جاء عهد النهضة الكاثوليكي والمحافِظ ليمنع الطلاق من جديد واستمر هذا الشأن حتى 1884. لكن لا ننسى الآثار التي خلّفتها الثورة: لقد ولدتْ الحركة المطالِبة بالمساواة بين المرأة والرجل في خضم الاضطرابات التي شهدتها فرنسا، ولن تنطفئ شعلتها بعد الآن. جاء في بنودها المطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية والمدنيّة على السواء. كما تم تسجيل مطالب هذه الحركة في منطق "حقوق الرجل" التي لا تعترف مع ذلك بفردية المرأة.

إنها حمقاء لكي تدلي بصوتها

– كان الجو خانقاً في القرن التاسع عشر، فكيف تمكنت النساء من التصريح بمطالبهنّ؟

– تميّزت الرائدات الأوائل بالبطولة، فلقد كنّ يمشين في الاتجاه المعاكس وكنّ يعرّضن أنفسهن للمخاطر. خلال حكم الملكية في تموز/يوليو 1830، كانت نصيرات سان سيمون يدافعن عن المجتمع الذي تسود فيه المساواة والحرية. كتبت إحداهن وتدعى كلير ديمار Claire Démar في عام 1832 كتاباً بعنوان "القانون الذي أريده للمستقبل"، عبرت فيه عن مناهضتها للقانون المدني السائد وطالبت بمساواة النساء فيما يتعلّق بشؤون الزواج والحق في الطلاق والحرية في اختيار الحبيب (يجب أن نذكر هنا أنها كانت هي نفسها تعيش تحت سقف واحد مع رجل من دون زواج). ولكنها لم تصمد أمام ضغط العصر فانتهى بها المطاف إلى الانتحار.

– لا ننسى أيضاً جورج ساند التي تحدثنا عنها آنفاً.

– إنها نموذج آخر لحركة المطالبة بالمساواة، بكل تأكيد. عاشت قصص غرامياتها بحرية مطلقة، وأرادت أن تكتب بهدف الإبداع والتأكيد على استقلاليتها. لم تستطع الحصول على الطلاق، ولكنها انفصلت عن زوجها، وكانت ترتدي زي الرجال، وتسافر وحدها، وتتشاجر مع الناشرين عند اللزوم. كان لها نشاطها السياسي، وكانت من أنصار الجمهوريين والاشتراكيين، وكتبت عام 1848 بيانات لحكومة الجمهورية المؤقتة ولم تذيلها بتوقيعها، وأصدرت صحفاً مثل "قضية

الشعب" ولكن لم يُنشر منها سوى ثلاثة أعداد (كانت غالبية هذه الصحف سريعة الزوال). لم تكن جورج ساند تشجع على التصويت للانتخابات، إذ كانت تؤمن بحصول المرأة على حقوقها المدنية أولاً قبل أن تطالب بحقوقها السياسية، فما معنى أن تحصل المرأة على حقها في التصويت عندما تُلزم بالحصول على إذن من الأب أو الزوج قبل الإقدام على أي عمل؟ من ناحية أخرى كانت هناك نساء من أنصار الحركة المطالِبة بالمساواة، وكانت ميولهن اشتراكية، وكن من حزب سان سيمون (مثل أوجيني نيبوابيه Eugénie Niboyet التي أثارت "صوت النساء"؛ وجان دوروان Jeanne Deroin وديزيريه غي Désirée Gay اللتين بادرتا إلى إنشاء "سياسة النساء" التي أصبحت فيما بعد "رأي النساء"؛ وبولين رولان Pauline Roland المعلمة والصحفية اللامعة، أعطت كل أولئك الأولوية للحق في التصويت، حيث إن المرأة باعتقادهن تستطيع أن تدلي بصوتها وتفوز بالانتخابات ثم بعد ذلك تستطيع أن تجري التعديلات على القانون المدني.

– كيف تقبّلنَ البيان الذي أصدره لامارتين والحكومة المؤقتة للانتخابات العامة في آذار/مارس من عام 1848؟

– لقد أصبن بخيبة أمل عميقة. إذ إن كلمة "عامة" تنحصر بالـ "مذكر" بالنسبة لثوار 1848 من النساء. فالرجال هم من يمثلون العائلة التي تضم النساء اللاتي لم يعتبرهن أحد كأفراد. فبينما كانت الحكومة تهيئ للانتخابات في السادس من نيسان/أبريل 1848، رشّحت "صوت النساء" جورج ساند للمجلس التأسيسي، فتنحت هذه الأخيرة باستخفاف مبالغ.

– مجمل القول إنها لم تكن تحب النساء؟

– كان لها بعض الصديقات، وكنّ نساءً "عصريات" للغاية، على غرارها. ولكن هذا صحيح، كانت تتفق مع الرجال بشكل أفضل وتعتبر عالم النساء عالماً تافهاً، مثيراً للضجر بل ومعاقاً. تسببت لها ابنتها سولانج بخيبة أمل كبيرة حيث إنها عاشت التحرر من خلال حياتها الجنسية ولكنها لم تكن تمارس أي عمل (أرادت أن تحذو حذو أمها في الكتابة فجاءت باكورة تآليفها مفجعة).

امرأة واحدة، صوتٌ واحد!

– في الفترة التي تلت ذلك، أي بعد الانقلاب الذي نُفِّذَ في 2 كانون الأول/ديسمبر 1851، ثم في عهد الإمبراطورية الثانية، لا بد أن النضال من أجل حقوق النساء كان أمراً صعباً للغاية.

– شهدت تلك الفترة كبحاً لجماح كل الحريات، ولم يكن بمقدور الحركة المطالبة بالمساواة إبداء رأيها. أما المناضلات من الاشتراكيات اللاتي اقترحن ترشيح جورج ساند للمجلس التأسيسي، فقد دفعن ثمن التزامهنّ غالياً، حيث تمّ نفي كل من جان دوروان وأوجيني نيبوابيه خارج البلاد، وتمّ الحكم على بولين رولان بالسجن للموقف الشجاع الذي اتخذته ضد لويس نابليون بونابرت. وتمّ نقلها إلى سجن في الجزائر وماتت فور عودتها إلى فرنسا عام 1852. لكن انطلاقاً من الجمهورية الثالثة، أحرزت الحركات النسائية انطلاقة بارزة. وكثر عدد الجمعيات المطالِبة بمنح المرأة الحق في الانتخاب وفق النموذج الأنكلوسكسوني. كانت أوبرتين أوكلير Hubertine Auclert من الفرنسيات الأوائل في الاقتراع. أنشأت صحيفة تحت اسم "المواطنة" وأكدت أنه طالما حُرمت النساء من حقهن في الاقتراع فلن يتمتعن بالمواطنة مهما قيل في هذا الشأن. ونُظِّمت مظاهرات في الرابع عشر من تموز/يوليو، كانت تحمل رايات كتب عليها:"يجب على النساء الاستيلاء على سجن الباستيل"، كانت تذهب إلى دور البلديات عقب حفلات الزفاف وتزجر رئيس البلدية عندما يتفوه بكلماته قائلاً "الزوج مدين بحماية المرأة والزوجة مدينة له بالطاعة"، فكان ينتهي المشهد بطردها من البلدية بالقوة وكان الأمر خرقاً للعادة. مع ذلك كانت أوبرتين ذات مظهر أنيق لامرأة في عصرها، وكانت تلبس قبعة كبيرة مزينة بالريش...

– شهدت هذه الحقبة من الزمن ظهور عدد كبير من الصحف النسائية.

– صدرت ما بين الأعوام 1880 و1914 أكثر من مئة صحيفة نسائية، كان من أشهرها "لافروند" La Fronde حيث نُشرت أعدادها طيلة ثلاث سنوات. كانت مأثرة حقيقية لصحيفة نسائية يومية. ويعود الفضل في تأسيس هذه الصحيفة للممثلة القديمة مارغريت دوران Marguerite Durand التي كانت ذات جمال أخّاذ، فقد سخّرت إغراءها في خدمة قضيتها ولم تتردد بقولها: "لا أحد يعلم الدَين الذي

ترتب على الحركة النسائية لشعري الأشقر." تزوجت عدة مرات، وعاشرت العديد من العشاق والأصدقاء وكانت تطلب من الجميع تزويدها بالمال من أجل مكتبتها. هذه هي قصة إنشاء المكتبة النسائية الأولى في فرنسا التي تحمل اسم مؤسستها ولا تزال حتى يومنا هذا ومركزها في شارع ناسيونال. كانت مارغريت دوران ترغب في أن تقوم الصحيفة حصراً بجهود نسائية مما أثار حركات احتجاجية في وسط عاملي الطباعة والمنضدين، وكانت الطباعة والتنضيد من المهن الخاصة بالرجال، إضافة إلى كرههن للنساء. كانت توظف صحفيات ذات مواهب فذة مثل سيفرين (كارولين ريمي Caroline Rémy) التي غطت أحداث قضية رين Rennes التي جرت فيها المراجعة الأولى لملف دريفوس. وكانت صحيفة لافروند مؤيدة لدريفوس، حيث إن مارغريت دوران لم تكن تفصل بين القضايا الديمقراطية والحركة النسائية.

– هل نقول بأن الدفاع عن حقوق المرأة يتوافق باطراد مع الدفاع عن الديمقراطية؟

– نعم ولكن مع شيء من التباين. فمنذ اللحظة التي أدرك فيها الجميع تزايد سُلطة النساء الاجتماعية في عهد الجمهورية الثالثة، ومنذ اللحظة التي أقرّ فيها الرجال ولو كرهاً أن النساء سيذهبن إلى صناديق الاقتراع إما عاجلاً أو آجلاً، تزايد عدد الحركات النسائية لتتخذ أنواعاً متعددة، فظهرت الحركة النسائية المسيحية التي عرف عنها بأنها محافظة وبادرت إلى دعم حق النساء في الاقتراع – في تلك الفترة أعلن الكاثوليك انضمامهم إلى الجمهورية – ولكن هذه الحركة لم تكن من مؤيدي دريفوس وبالتالي لم تكن تشجع على منع الحمل.

– إذاً فالنضال من أجل الحصول على حق التصويت هو النقطة المشتركة لالتقاء الحركات النسائية سواء في فرنسا أو على صعيد العالم أجمع.

– تماماً. أسست نساء أمريكيات عام 1888 ما يعرف بالمجلس الوطني للنساء. شارك موفدون من بلاد عدة في حضور هذا اللقاء الحاسم، كان من بينها فرنسا وكندا وبريطانيا العظمى والهند والدانمارك والنرويج وفنلندا، ونتج عن هذا اللقاء إنشاء فروع وطنية. ففي فرنسا تم تأسيس المجلس الوطني للنساء الفرنسيات عام 1901 ولا يزال موجوداً حتى يومنا هذا. شاركت في هذا المجلس نساءٌ من المذهب البروتستانتي نذكر منهن سارة مونود Sarah Monod وجولي سيغفريد Julie Siegfried، وكانتا من أنصار الحزب الجمهوري وناضلتا من أجل إقامة

المساواة بين الرجل والمرأة (يجدر بالذكر أن الجمهورية الثالثة اعتمدت على البروتستانت لإقامة العلمانية). ونَظَّمتْ الجمعيات مؤتمرات عالمية على قدر من الأهمية في لندن وباريس وفيينا وبرلين... بحضور المخبرين الصحفيين الذين كانوا يدونون أهم الأفكار ليتم عرضها في الصحف. كان الأمر مثيراً للقلق بالنسبة لهؤلاء النسوة اللاتي كان يُحظر عليهن حتى عهد قريب التكلم في حضور العامة، أما الآن فإنهن يعتلين المنابر ويلقين الخطب، فلقد تعلمن درساً رائعاً مخالفاً للتربية التي حصلن عليها!

الراتب إلى جيب الزوج

– تميّزت تلك الحقبة أيضاً بظهور المحاميات الأوائل، وهي مهنة تعتمد على الفن الخطابي الذي طالما اعتبر غريباً عن الأنثى.

– كان يجب انتظار مجلس الشعب الفرنسي حتى عام 1900 ليصدر قانوناً يتيح ذلك، إذ كان المقعد المخصص للمحامين في المحكمة محظوراً على النساء. كانت جان شوفان Jeanne Chauvin أول محامية فرنسية، ثم ما لبثت هذه المهنة أن جذبت العديدات من النساء وخاصة من نصيرات الحركة النسائية من أمثال ماريا فيرون Maria Vérone أو إيفون نيتر Yvonne Netter...

– بإمكان هؤلاء النسوة أن يرافعن أمام المحاكم ولكنهن حتى تلك اللحظة لم يحصلن على حق التصويت!

– ليس بعد... فكل ما أنجزته هذه المؤتمرات، والصحف والجمعيات والمظاهرات هو استمالة الرأي العام. حصلت النساء في أستراليا على حق التصويت عام 1902، تبعتها فنلندا عام 1906، ثم النرويج عام 1913، وبلجيكا وهولندا عام 1919. أما في بريطانيا فلم تحصل النساء على هذا الحق إلّا في عام 1918، وتأخر ذلك في أمريكا حتى عام 1920. وبالنسبة لفرنسا تمّ اعتماد قانونٍ بهذا الشأن في آذار/مارس من عام 1914 في مجلس النوّاب قوبل برفض مجلس الشيوخ. وتكرر هذا السيناريو مرات عديدة في فترة ما بين الحربين رغم تظاهرات نصيرات الحركة النسائية التي كانت لويز ويس Louise Weiss من بينهن. استمر الوضع على هذه

الحال حتى عام 1944 حيث قامت الجمعية العامة في الجزائر المكلفة بإعداد مؤسسات فرنسا المستقبلية بمنح النساء حق الإدلاء بأصواتهن. وانفرد الحزب الراديكالي بموقفه الرافض للقضية التي دخلت حيز الأمور البديهية. كان هؤلاء من الحزب اليساري ولكنهم مع ذلك كانوا يتمتعون بحرية التفكير، ولم يكتموا موقفهم المشوب بالحذر من تأثير الكنيسة على النساء. نستطيع أن نعلن أن فرنسا التي قادت الثورة ودافعت عن حقوق الإنسان لم تكن من السبّاقين في هذا المجال.

– بعد الانتصار الأول الذي حققته النساء من خلال حصولهن على "حق المواطنة"، هل تغيّر حالهن داخل بيوتهن وأقلع الجميع عن اعتبارهن قاصرات أزليات؟

– هنا أيضاً، تأخرت القوانين عن الصدور... حصلت النساء عام 1907 على حقهن في تحصيل أجورهنّ. إذ إنه حتى ذلك التاريخ، كان رب الأسرة هو الذي يستلم مرتّب زوجته، كما كان المسيطر الأوحد على إدارة أملاك العائلة. إلّا أنه كان هناك تباين بين الناحيتين النظرية والعملية. فالمرتّب لم يكن في ذلك الحين شيكاً أو حوالة، بل كان سيولة نقدية يقوم المرء بقبضها. تستطيع المرأة العاملة، إذا كانت على وفاق تام مع زوجها، أن تحصل على مرتبها وتجلبه إلى المنزل. في عام 1907، بادر نواب من حزب اليسار – وكانوا من الاشتراكيين والراديكاليين– كما كان بعضهم من المسيحيين الاجتماعيين كأمثال ألبير دو مون Albert de Mun، إلى الدفاع عن القانون القاضي بمنح المرأة مرتبها. ومهما يكن، فإن اهتمامهم كان ينصبّ على مسؤولية المرأة كربة عائلة أكثر من فرديتها، فكان يحصل أحياناً أن يتصرّف الزوج بأجره وأجر زوجته ولا يبقي شيئاً للأطفال.

– وماذا بشأن حق المرأة في العمل من دون حصولها على موافقة زوجها؟

– لم يتم لها ذلك إلّا في عام 1920، إذ لم يسمح لها قبل هذا التاريخ أن تعمل من دون موافقة زوجها إلّا إذا كانت غير متزوجة وكان عليها الاعتماد على نفسها في تأمين مستلزمات الحياة اليومية، وفي هذه الحال كانت تعطى حقوقاً مساوية لحقوق الرجل. أما المرأة المتزوجة فكانت تخضع لقوانين العائلة وسلطة الزوج. وفي الحقيقة، لم تشعر الفرنسيات بأنهن يعاملن على قدم المساواة مع الرجال في مضمار الحق في العمل وإدارة الأملاك إلّا في العقد التاسع من القرن العشرين (أي في الثمانينيات)! أما المقولة القاضية بـ "تساوي الأجور عند تساوي

العمل" فقد بدأ تطبيقها في الوظائف التابعة للقطاع العام (وزارة التربية، ومصانع الدولة، ومصنع التبغ والتنباك، ومصنع الأسلحة)، لكنها لم تطبق في القطاع الخاص.

"ما يترتب على كل فتاة أن تعلمه"

– التحكم في الولادات، وتحديد عدد الأولاد الذين سيتم إنجابهم، قد نعتقد أن هذه القضايا لها صلة حميمة بالحياة الخاصة، ومع ذلك، لا يوجد ما يؤثّر على مكانة المرأة في المواطنة كمنع الحمل.

– لقد شكّل موضوع التحكم في جسد المرأة منذ الأزل رهاناً جوهرياً لحياة المواطنة. وبناءً على ذلك، كان موضوع منع الحمل من أهم الأحداث التي عاشها القرن العشرون، حيث تتساوي أهميته بظاهرة اكتشاف دوران الأرض قديماً. إن عملية الفصل بين النشاط الجنسي والإنجاب من جهة وحرية المرأة بالتصرف بجسدها من جهة أخرى يؤثران جذرياً على النظام الجنسي والاجتماعي. مع ذلك لاقت رائدات الحركة النسائية صعوبة في المضي قدماً في هذا الاتجاه، إذ فضّلت كثيرات منهن التركيز على الحقوق السياسية وبلوغ درجات المعرفة والعلوم. ولا يجب التطرّق إلى الجسد فهذا موضوع منهي عنه... يستثنى من هذا الحظر الحركة المالتوسية الجديدة التي نشأت في انكلترا قبل 1914. وكانت إليانور Eleanor ابنة كارل ماركس مناضلة ناشطة فيها. لقد استلهم أنصار الحركة المالتوسية الجديدة من العمل الأدبي الذي قدمه القسيس الإنكليزي مالتوس عندما أطلق صيحة إنذار من جراء نمو عدد السكان الذي يفوق وفرة الموارد الغذائية لذا نصح بالحد من النسل. قالها عام 1798 في رسالته "حول مبدأ علم السكان". وفي نهاية القرن الثامن عشر أوصى مالتوس بالامتناع عن الزواج كما نادى بتأخير سن الزواج. وفي القرن التاسع عشر، حاول أنصار الحركة المالتوسية الجديدة الحد من الولادات كما حاولوا الفصل بين النشاط الجنسي والإنجاب، ونادوا بمنع الحمل باستخدام الواقي الإنكليزي الشهير.

– هل يمكننا القول إن الدول الانكلوسكسونية لم تجد صعوبة في زعزعة موضوع الأمور المحرّمة؟

– كانت نصيرات الحرية المناضلات سبّاقات في هذا الموضوع حيث بادرت الممرضة النيويوركية مارغريت سانغر Margaret Sanger إلى اختراع تعبير "تحديد النسل" عام 1914 بعدما رأت أمها تنهار صحياً وتموت بعد ثمانية عشر ولادة. كانت توصي بتوزيع منظَّم وطبي للمعلومات ولوسائل منع الحمل. التقت مارغريت بماري ستوبس Marie Stopes عالمة النباتات وعالمة في طبقات الأرض خلال اجتماع في لندن ضمّ نساء من حركة المساواة، وبادرت كلتاهما إلى توحيد الخبرات والوسائل. نشرت ماري ستوبس في بريطانيا العظمى كتاباً بعنوان "زواج الحب" وصفته الكنيسة بأنه غير أخلاقي بل وفاحش، لكنه كان أول كتاب من نوعه في عرضه لطرق منع الحمل، وكانت النساء يتخاطفنه فيما بينهنّ. أسست مارغريت سانغر صاحبة كتاب "ما يترتب على كل فتاة أن تعلمه"، عام 1921 ما يعرف بـ "الرابطة الأمريكية لتحديد النسل". وفيما بعد أنشأت كلتاهما العديد من العيادات الطبية الخاصة بالولادات، حيث يتم استقبال النساء والعناية بهن وإعلامهن عن أفضل الطرق للحد من النسل. لم تكن هذه العيادات تُجري عمليات الإجهاض. وكانت المحاميات اللاتي يعملن في هذه الرابطة يبحثن عن الاحترام والتقدير وكنّ يؤكدن– بحق – أن تحديد النسل هو أفضل سبيل لاجتناب عملية الإجهاض.

– لكن هذا لم يمنعهنّ من الوقوع تحت وطأة القوانين الأمريكية التي تدين الفحش كما لم يمنعهن من دخول السجن...

– آه! لن أدّعي بأن الأمر كان بسيطاً! إن نشر أية معلومة أو طرح أية طريقة لمنع الحمل كانت تدخل تحت مسمّى الفحش. تعرّضت مارغريت سانغر للاعتقال عدة مرات، ودخلت السجن، ثم فرّت إلى أوروبا لبعض الوقت. لكن الحملات التي تنادي بمنع الحمل مع كل ما يتضمن ذلك من مراقبة للنفس والمشاريع لتحسين الشروط العائلية لاقت صدى إيجابياً لدى الدول التي تدين بالمذهب البروتستانتي حيث لم يكن لإيعاز "انموا وتكاثروا" القوة نفسها. في حين كان يتعذّر على النساء في فرنسا، أرض النظام الجمهوري والعلماني، إلى جانب المذهب الكاثوليكي، إثارة الموضوع أو حتى التلميح به.

"تعلمي أن لا تكوني أُمّاً إلا برغبتك"

– مع ذلك كانت نصيرات المساواة يخاطرن بأنفسهن.

– مع قلة عددهن، بذلت نصيرات الحركة المالتوسية الجديدة نشاطاً واسعاً في هذا المضمار. كانت الصحفية نيلّي روسيل Nelly Roussel تعدّ المسرحيات وتجول في البلاد في محاولة منها لإقناع النساء. وفي عام 1903، سطّرت بعض الكلمات التي تقول فيها: "لا تبلغ الأمومة درجة النبل إلّا إذا كانت عن وعي وإدراك، ولا تبلغ درجة الرقة إلّا إذا كانت عن رغبة. أما إذا تمتّ نتيجة الغريزة أو الحاجة فإنها لن تتعدّى كونها شهوة حيوانية أو محنة مؤلمة." كانت أولئك الناشطات نساءً على قدر من التربية، وكان من بينهن الكثير من المعلمات. كنّ يدركن أن عملهن يخص أولاً الطبقات الفقيرة. فالطبقة البورجوازية تجيد ضبط عملية الإنجاب في حين كان لدى عائلات العمال حشود من الأولاد. ويصعب طرح الموضوع في مثل هذه البيئة، إذ كانت النساء يشعرن بالحرج، فالموضوع بزعمهن يخص الرجال وحدهم، وعليه أن يبذل "الحيطة والحذر" وعليها أن "تتدبر أمرها"، حتى لو كلفها الموضوع إسقاط الجنين من خلال عملية الإجهاض. أما أن تَطْلب من زوجها استعمال الواقي...

– هل كانت نقابات العمال تتدخل في هذا الموضوع؟

– لم تكن نقابات العمال الماركسية من أنصار هذا الرأي، وعلى الطبقة العاملة أن تكون قوية وذات تعداد كبير، كان يجب إنجاب الكثير من الأولاد. نذكر هنا أن المستوى الاجتماعي لعب دوره بين العمال. بالنسبة لعمال المناجم، تلزم الزوجة منزلها وسط عائلتها الكبيرة. أما عمال التعدين الذين كانوا يعتبرون أنهم يشكلون الطبقة الأرستقراطية، فكانوا من أنصار الحركة المالتوسية الجديدة. كانت النقابات تنظّم المحاضرات وتشرح فيها سبل منع الحمل وكان المنتسبون لهذه النقابات يتعهدون بتحديد النسل. إن نشاط المالتوسية الجديدة منوط بالنقابات الداعية إلى الحركة المطلقة، لا بل إلى الفوضى.

– ولكن كيف تدبر المناضلون في الحركة المالتوسية الجديدة أمرهم للوصول إلى كافة الأزواج الذين لا يترددون إلى المسارح لحضور المسرحيات، ولا يستمعون إلى المحاضرات ولا يقرؤون الصحف؟

– كان عليهم أن يستجمعوا شجاعتهم ويعملوا بإخلاص. كانت المناضلات – إلى جانب بعض المناضلين – ينتظرن العمال في ساعات انصرافهم من المعمل ويوزعن عليهم المواد الخاصة[1]، والواقي الذكري وكتيبات الدعاية. كما كنّ يلجأن إلى إلصاق الوريقات الإعلامية التي كتب عليها:" أيتها المرأة، تعلمي ألّا تكوني أماً إلّا برغبتك" على الجدران وعند مواقف العربات. كانت الرسالة تنم عن روح عصرية. كانت مادلين بلّيتييه Madeleine Pelletier وجهاً مؤثراً خلال هذه السنوات البطولية، نشأت في بيئة شعبية، واستطاعت أن تنجح كطبيبة وأصبح لها اسمها في عالم العلماء. كانت تهوى علم الاناسة أو الأنتروبولوجيا (وعملت مع البروفسور لوتورنو Letourneau) وكانت أول امرأة تتقدم لامتحان الدخول إلى كلية الطب النفسي، وهي من أنصار حركة المساواة. كانت قريبة من الأوساط الفوضوية، وناضلت من أجل حصول المرأة على حقها في التصويت، ومن أجل تحررها من ممارسة الجنس قسراً، ومن أجل حصولها على حقها في استخدام وسائل منع الحمل وفي الإجهاض. كان الأمر غاية في الصعوبة، وبحلول عام 1920 دخل في نطاق المستحيل. لقد تنبهت الجمهورية إلى التدني في نسبة المواليد فبادرت إلى حظر كل حملة دعائية من شأنها التشجيع على منع الحمل والإجهاض. أما نشر المعلومات مهما كان شكلها، ووسائل منع الحمل، فكانت تُعرّض صاحبها للملاحقة والمساءلة القانونية فكثرت الدعاوى في المحاكم. وتعرّضت مادلين بلّيتييه للتشهير ومثلت أمام المحكمة بسبب قيامها كطبيبة بعمليات إجهاض للنساء. لم تتجرأ المحكمة على إدانتها بسبب شهرتها الكبيرة، فاتهمتها بالجنون وأرسلتها إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث قضت بعد عدة شهور، وكان ذلك عام 1939.

– نضال المرأة في سبيل الإجهاض هو أخطر ما تتعرض له في حياتها.

– نعم هذا صحيح! ففي الأمر تحدٍ للدولة والجيش والكنيسة على حد سواء... ولكن رغم كل ذلك النهي، لم يتوقف نشاط الحركة بشكل كامل. فلقد ناضلت المُعَارِضة الشهيرة بيرتي ألبريشت Berty Albrecht من أجل منع الحمل والسماح بالإجهاض، كما شارك بعض الأطباء في هذه الجهود، غير أن كل ذلك كان يتم في الخفاء وفي السر، ليدخل هؤلاء في صمتٍ مطبق في ظل حكومة فيشي.

(1) وهي مواد تقضي على المني عند وصوله إلى المجاري التناسلية لدى المرأة- المترجم.

– هل انقشع هذا الغطاء الثقيل في عهد الحرية؟

– قد نتصور أن الأمور تغيرت في ذلك الوقت. ولكن كلا! كانت الجمهورية الرابعة من أنصار الإكثار من المواليد. كانت كلمة السر المتداولة باسم إعادة البناء هي الأطفال؛ أما النموذج فكان يتمثل بالأمومة. بقيت وسائل منع الحمل وعمليات الإجهاض خاضعة للحظر حتى فترة ما بعد الحرب. وجاء كتاب سيمون دو بوفوار الذي ألفته بعنوان "الجنس الثاني" عام 1949 صرخة قوية تدعو إلى ثورة حقيقية.

"قصة A"

– ذلك أنه في تلك الأثناء، لا تزال عمليات الإجهاض مستمرة في الخفاء بطابعها المأساوي.

– نعم. كان على النساء الانتظار حتى حلول عام 1950 لكي ينظمّن أمرهن وينفردن بالكلام في هذا الموضوع. بعد أن خالجهن الرعب من الشروط التي تتم وفقها عمليات الإجهاض، بادرت كل من عالمة الاجتماع إيفلين سولّوريه Evelyne Sulloret والدكتورة ماري أندريه لاغروا ويل هالي Marie-Andrée Lagroua Weill-Hallé إلى تأسيس جمعية الأمومة السعيدة عام 1956. عملت هاتان الامرأتان على تطوير المعلومات واستيراد وسائل منع الحمل من الخارج بعد أن تولتا بنفسيهما عمليات الإجهاض. وفي عام 1960، بادرتا إلى تأسيس الجمعية الفرنسية للتخطيط الأسري، وبقيت كل هذه الإنجازات في الخفاء، وكنّ يحصلن على دعم من بعض الأطباء من أشهرهم الدكتور سيمون[1] ومن الرأي العام. كان تنظيم المعاينات يتم داخل حركة التخطيط الأسري عند إحدى النساء، بينما تُجرى عمليات الإجهاض في المطبخ... أجريت المعاينة الأولى في مدينة غرينوبل الفرنسية عام 1961 وغضت البلدية، التي كانت من الحزب التقدمي، الطرف. بقي الأمر خارجاً عن نطاق الشرع ولكنه قوبل بشيء من التسامح.

– هل كان الهدف من التخطيط الأسري هو الحصول على الحق في منع الحمل أكثر من الحق في الإجهاض؟

(1) توفي الدكتور سيمون عام 2009.

– هذا صحيح. كان الموضوع بالنسبة لإيفلين سولوريه والدكتورة ماري أندريه لاغروا ويل هالي هو الحد من عمليات الإجهاض والاستعاضة عنها بوسائل منع الحمل. اكتشف عالِم الأحياء الأميركي غريغوري بينكوس Gregory Pincus حبوب منع الحمل في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وسُمح بتناولها في ألمانيا عام 1956، وفي الولايات المتحدة الأمريكية عام 1960، ولم يشع استعمالها في فرنسا إلا في عام 1967 مع صدور قانون نويرث Neuwirth. أصبح انتشار المعلومة أمراً شرعياً تماماً كوسائل منع الحمل. وسَجَّل استئذان القاصرين أهاليهم في تداولها تطوراً كبيراً في هذا المضمار. ولكن بقي هناك الكثيرات من النساء اللاتي لم يتوصلّن إلى الحصول على هذه الوسائل، وانقسمت الحركات النسائية فيما بينها. طالبت حركة تحرير النساء (MLF) التي أنشئت عام 1969 من جهتها بحق المرأة في الإجهاض. وفي عام 1971، بادرت مجموعة من "النساء السافلات" البالغ عددهن 343 امرأة إلى التوقيع على النداء الشهير في صحيفة Le Nouvel Observateur والذي مفاده "في كل عام تُقدِم مليون امرأة في فرنسا على إسقاط أجنّتهنّ في الخفاء مما يعرضهن لكافة أنواع المخاطر. إنني أصرّح أنني واحدة منهن. وأصرّح أنني خضعت شخصياً لعملية إجهاض." وأكّدت أولئك النسوة أنه في حال تمّت ملاحقة إحداهنّ فستتضامن الأخريات معها لينشئن جمعية مهمتها دفاعية. وبهذه الطريقة نشأت حركة "أختار" Choisir. من بين النساء الـ 343 اللاتي وقّعن على تلك العريضة ورد اسم سيمون دو بوفوار، وكاثرين دونوف[1]، وفرانسواز فابيان، وأنطوانيت فوك، وجيزيل هاليمي، وفرانسواز ساغان[2]، وجان مورو[3]، وغيرهن... فكان وقع ذلك عظيماً!

– نستطيع أن نجزم إذاً أن الحركة النسائية المطالِبة بالمساواة تحولت إلى ثورة حقيقية وحركة جماعية ضمن هذه الظروف؟

– نعم. توالت حشود من النساء أمام الجماهير النسائية يتجاوز عددهن الدوائر المحدودة للحركة النسائية التقليدية. وفي عام 1972، سجلت قضية بوبيني

(1) دونوف (ولدت سنة 1943) ممثلة فرنسية - المترجم.
(2) ساغان (1935-2004) كاتبة وأديبة فرنسية - المترجم.
(3) مورو (ولدت سنة 1928) ممثلة مسرحية وسينمائية فرنسية - المترجم.

Bobigny نقطة تحوّل جديدة. دافعت جيزيل هاليمي عن فتاة في السادسة عشر من عمرها تدعى ماري كلير شوفالييه، كانت قد خضعت لعملية إجهاض بمساعدة والدتها. مثُلَت الأم والمرأة التي أجرت العملية في قفص الاتهام، وتوالت الشخصيات أمام حاجز المحكمة للتنديد بهذه القضية التي تنتمي إلى عهد آخر لإثبات أن القانون لا يعاقب سوى الفقراء والنساء الجاهلات اللاتي لا يستطعن اقتناء وسائل منع الحمل ولا يملكن المال للسفر خارج البلاد. انتهت القضية بإخلاء سبيل الفتاة وبالحكم على الامرأتين بالحد الأدنى من العقوبات مع وقف التنفيذ. منذ ذلك الحين، تمّ الإعلان عن وقف العمل بالقانون الصادر عام 1920، لكن مع ذلك بقي الإجهاض قضية غير شرعية. كما تمّ منع عرض الفيلم الذي يمثل القضية عام 1973 بعنوان (قصة A) والذي أخرجه كل من شارل بيلمون Charles Belmont وماريل إسارتيل Marielle Issartel، لكن بقي الناس يتداولون نسخاً منه في السر لمدة تجاوزت العام.

– واستمرت المظاهرات؟

– نعم. نظّمت حركة "أختار" تظاهرة إثر انتهاء قضية بوبيني وتمّ تأسيس حركة من أجل تحرير الإجهاض ووسائل منع الحمل (MLAC)، وكانت حركة راديكالية بحتة. وانضمت حركات أخرى إلى تلك المظاهرات مثل حركة "وقعت الواقعة" أو "جسدنا يخصنا" (تعبير نقل عن الحركة الأمريكية Our Bodies, Ourselves). كانت فترة تبصّر مكثف وألفة انعكست نتائجها على مجالات واسعة وبشكل خاص على العلوم الإنسانية والتاريخ وعلم الاجتماع. اختلفت النظرة والمعايير في كل شيء. وجاءت النتيجة المباشرة بصدور قانون فيل Veil عام 1975 ليضفي صفة الشرعية على عملية الإجهاض.

– في اختتام معركة سياسية رهيبة!

– بل بعد عنفٍ غير مسبوق... تعرّضت سيمون فيل للاعتداء ولفحش الكلام وشُوِّهتْ صورها في الصحف، وأُثيرت مجدداً مواضيع قديمة كانت قد دُفنت منذ زمن قابلتها سيمون بالصمود والثبات. يمثّل صدور هذا القانون جزءاً من طموح الرئيس جيسكار ديستان[1] في التحديث. شغلت سيمون فيل منصب قاضية،

(1) ديستان (ولد سنة 1926) رجل سياسي فرنسي، مؤسس حركة الجمهوريين الأحرار، شغل منصب وزير مالية، ثم منصب رئيس الجمهورية ما بين 1974-1981 – المترجم.

وكانت تهتم بقضايا النساء منذ زمن بعيد، كما كانت على اطلاع بحقيقة عمليات الإجهاض التي كانت تتم في الخفاء، وحاولت تعطيل الاحتجاجات باقتراح فترة اختبار لمدة خمسة أعوام. لكن كان واضحاً من طريقة تفكيرها أنها لن تعود إلى الوراء. اتخذ القانون في عهد فرانسوا ميتران صفته النهائية، وكانت تسدد تكاليف عمليات الإجهاض من صندوق الضمان الاجتماعي بفضل إيفيت رودي Yvette Roudy. وحتى اليوم، لا تزال النساء اللاتي يرغبن في إجراء عملية الإجهاض يلقين صعوبات جمّة في قسم خدمات التمريض رغم "بند الضمير" المعروف من قبل الأطباء.

وتستمر المسيرة...

– وهكذا يُختتم جانب مأساوي من تاريخ النساء في السبعينيات من القرن العشرين في معظم الدول الغربية بالمصادقة على عملية كانت تتم ولفترة طويلة جداً في ظلام دامس يلفحه الخجل – الا وهي عملية الإجهاض – (علماً أن هذه الشرعية لم تنتشر بعد في كل أنحاء المعمورة ولا ننسى أبداً أن مصير النساء على مستوى العالم أجمع مختلفٌ عما هو عليه في الغرب). وبالعودة إلى نصيرات حركة المساواة، كم من المعارك بقي عليهن خوضها؟

– بينما كانت أولئك النساء يناضلن في السبعينيات من القرن العشرين لإضفاء صفة الشرعية على عملية الإجهاض، كنّ يقاتلن في الوقت ذاته ضد كل صور الأذى التي كانت تلحق بجسد المرأة. وحصلن أخيراً على اعتبار عملية الاغتصاب التي يتعرّضن لها جريمة بحقهن – يدخل في ذلك اغتصاب الزوج لزوجته، حيث إن الفكرة لم تكن واردة قبل هذا التاريخ – كما أصبح التحرّش الجنسي الذي يحصل في أماكن العمل موضوع ملاحقة قضائية. لقد أوضحن للعيان العنف الزوجي والضربات والجرائم التي تصيب النساء داخل بيوتهن. وهكذا أجريت التحقيقات حول هذا العنف وأنشئت بيوت لإيواء النساء اللاتي يتعرضن للضرب.

– في نهاية هذه الرحلة الشاقة عبر القرون والأجيال، استعادت النساء حقهن في السيطرة على أجسادهن، هذا الحق الذي سُلب منهن طويلاً. هل يمكننا القول إنهن حصلن على "حق المواطنة" اليوم؟

– إن النساء هن من يصنعن التاريخ، وتدين لهن مجتمعاتنا بالكثير. فإذا ازدادت قيمة الفرد اليوم، فيعود جزء من الفضل فيه للحركات النسائية، نصيرات المساواة والديمقراطية، نصيرات المساواة والفردية، إنها قيم متلازمة. لقد سجلنا تقدماً ملحوظاً لكن لا يزال هناك فرق شاسع بين القانون بشكله النظري والتطبيق العملي. سيثبت لدينا مع سيلفيان آغاسينسكي Sylviane Agacinski أن مبدأ المساواة لم يطبق بحذافيره. أصبح بإمكان النساء العمل في كافة المهن، هذا صحيح من الناحية النظرية، لكن تبقى نسبة خمس وسبعين بالمئة منهن يشغلن ثلث هذه المهن المتاحة. وحتى الآن لا يزال الطريق غير ممهد أمامهن لاعتلاء المناصب التي يُتخذ فيها القرار سواء في وظائف الدولة أو في المؤسسات الخاصة. ولا يزال توزيع الأعباء المنزلية سيئاً للغاية. بقي أمامهن مجال للفوز من النوع الرمزي والإبداعي: لكن عدد النساء اللاتي يعملن فيه قليل للغاية. لقد أعادت فرانسواز إيريتييه إلى أذهاننا: إننا مهما أمعنّا النظر في الزمان أو في المكان، لم تختلف نظرة الأجيال على مدى الأيام حول اختلاف الأجناس عن كونه تراتبياً. الرجل هو الأفضل والمرأة تأتي دونه في الترتيب. هل انتهينا من هذه النظرة؟ يبدو أننا لم ننتهِ بعد! ولا يزال الطريق طويلاً أمامنا. لا بل إن تاريخ النساء لم ينتهِ بعد!

القسم الثالث

نحو عالم مختلط

الفصل الثامن

إعادة غزو الفكر

الفلسفة بالمذكّر

– **نيكول باشاران:** لقد قادتنا مسيرة النساء الطويلة في طريق إثبات وجودنا كبشر، نتمتع بكافة الحقوق وندلي بآرائنا في المواطنة، إلى القرن الواحد والعشرين. أين هو المجتمع من مكانة المرأة اليوم؟ وأين سيكون غداً؟ ما هي الأدوار التي تستطيع النساء – أو تريد – تولّيها؟ هل بإمكاننا إنشاء ما يسمى "بهوية الأنثى" مع مطالبتنا الحثيثة بتحقيق المساواة؟ نتوجه الآن نحو الفلسفة في محاولة للتفكير بموضوع اختلاف الجنسين.

– **سيلفيان آغاسينسكي Sylviane Agacinski:** هناك شيء مؤكّد: لا نجد في علم الفلسفة الكلاسيكية قواعد لحرية المرأة أو للمساواة بين الجنسين. إذ إن مركزية الذكر – أي إقحام الرجل المذكر في مركز التفكير – تفرض نفسها بكل قوتها. فرجل العلوم، ورجل المعارف، والرجل المفكر... هو رجل في النهاية، بدءاً من الإغريق وصولاً إلى فترات ليست بالبعيدة عنّا. إنها حقيقة جليّة تفرض نفسها، ولا تخضع لأي نقاش، لذا لم يرد ذكرها في أي نص. لقد كنتُ طالبة فلسفة واندمجتُ بغير شعور في موضوع فلسفي تم عرضه على أنه موضوع عالمي، ولكنني مع ذلك كنت أفكر بمنطق الرجل!

– كيف نحكم على الخطاب الفلسفي بأنه مذكّر بشكل نوعي؟ .

– بدأ الأمر مع أفلاطون نفسه والعهد الإغريقي القديم. حيث كتب أفلاطون

كتاباً أسماه "الوليمة" Le Banquet، وضع أفلاطون في نص هذا الكتاب قواعد تأسيسية للفلسفة والمركزية الذكورية الفلسفية. فمن خلال وقفته على موضوع الحب، عرض أفلاطون كيف يمكن للكائنات الحية التي انتهت وفنيت أن تتوق للحياة الأبدية وذلك من خلال مادة الحب. يعتقد أن لهذه الكائنات حرية الاختيار بين طريقين، تجسدهما آلهتين: أفروديت الشعبية وأفروديت السماوية. فالذي يتعلّق بأفروديت الشعبية يبحث عن الخلود في الأرض من خلال إنجاب الأطفال، فهذا الكائن متعلق إذاً بالنساء. إن عملية الإنجاب التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان لا تلقى التقدير عند أفلاطون. أما الخلود الأزلي الحقيقي بالنسبة له فيتمثل في اختيار أفروديت السماوية التي تعكس تأمل الحقيقة والأفكار. في هذه الحالة، تتمركز العلاقة البشرية الرئيسية بين الأستاذ والتلميذ وليس بين الرجل والمرأة. لا تتعلّق القضية بالدفاع عن الجنسية المثلية كما نفسرها اليوم، إنما تتعلّق بالالتفات نحو الفتيان، الذين يملكون سمواً في الروح، لذا فهم أقدر على تلقي الفلسفة من الفتيات.

– كيف تستطيع الفيلسوفة الشابة الاختيار بين أفروديت الشعبية، التي هي طريق "غير شريفة" للإنجاب، وأفروديت "السماوية"، الأكثر رقيّاً ولكنها مكرسة للفتيان؟

– هذا سؤال جدير بالاهتمام. لا تجد المرأة مكاناً لها بين الحكماء بل إن مكانها يعانق جسدها لتمارس دورها كأم. وهناك حل آخر، إن هي أرادت أن تصبح فيلسوفة فعليها التخلي عن أنوثتها. ذلك كان الاعتقاد السائد حتى عهد قريب. أن يفكر الفيلسوف الذكر كرجل هذا أمر طبيعي، نحن لا نثير هنا موقف الرجل العدائي للمرأة. لكن النصوص الكلاسيكية لا تولي خصوصية للذكر، بل إنه لأمر طبيعي أن يتمثّل الرجل بالإنسان. هذا ما سيطلق عليه تسمية "المذكر العام". تحمّل إيمانويل لوفيناس Emmanuel Levinas[1] مسؤولية توقيعه كذكر. ولكنها تبقى حالة استثنائية. هناك بصورة عامة، خيال ذكري يسيطر على الفلسفة بطريقة ضمنية. من هنا نتساءل عن كنه الفكر الذي يأخذ بعين الاعتبار البشرية بأكملها، رجالاً ونساءً، فكر اللاتجانس، فكر المختلط. لم تعد المرأة مضطرة للاختيار بين المعرفة والإنجاب

(1) لوفيناس (1905-1995) فيلسوف فرنسي من أصل ليتواني، أسس فلسفة الوجود المتمركزة حول التفكير بالآخر كما ساهم في تجديد الفكر اليهودي المعاصر - المترجم.

كما أنه ليس عليها أن تختار بين الكتاب والطفل، تلك هي إحدى المجازفات التي تتعرّض لها المرأة.

– هل توصلتِ إلى هذا المستوى من التفكير من خلال مطالعتك لكتاب "الوليمة"؟

– كلا. لقد قرأت كتاب "الوليمة" بعد أن ألغيتُ تفكيري وتناسيتُ تماماً أنني امرأة. لقد بلغ احتقار أفلاطون لعملية التناسل أبعد من هذه الحدود في كتابه عن "الجمهورية" La République، لقد فكر في تنظيم عمليات الزواج من خلال اختياره للرجال والنساء لكي ينجبوا أطفالاً موهوبين وأصحاء – وهذا نوع من التدريب البشري الذي يرسم بدايات لوجهات نظر تتعلّق بعلم تحسين النسل الشامل. إنه بهذا يفجّر العائلة ويضحي بكل رابط بنوي، ويفصل الأبناء عن آبائهم، حيث تتكفّل المواطَنة بتربيتهم. وتصبح "مجموعة النساء" امتلاكاً جماعياً للنساء من قبل الرجال، ليزول رابط الزواج، وتندثر العلاقات الخاصة بين الرجال والنساء وتلك التي بين الآباء والأبناء. مع ذلك قرأتُ هذه النصوص الكلاسيكية كما نقرأ دائماً، أي تمثّلتُ وجهة نظر المؤلّف. لا يبدو الأمر مقلقاً في الأدب أن يضع المرء نفسه مكان الكاتب، بل على العكس إننا نتعلّم الكثير عن النساء من وجهة نظر الكاتب أو أي شخصية ذَكَرية أخرى. أما في الفلسفة فالأمر مختلف... شعرتُ بالخلل يتسلل إلى حياتي وإلى وضعي الطبيعي والاجتماعي كامرأة ووضعي المفترض "كمفكّر" (وهذا التعبير لا وجود له إلّا في المذكّر) وأنا على مقاعد الدراسة في الكليّة. أدركت شيئاً فشيئاً أن الفلسفة كتبت بالمذكر. نجح بعض المؤلفين من ذوي وجهات النظر الذكورية المشهورة من أمثال نيتشه Nietzsche أو شوبنهاور Schopenhauer. وكان هذا الأخير عدواً حقيقياً للمرأة، نجحوا في فتح عينيّ على الواقع. أما معرفتي للحقيقة فإني أدين بها إلى مطالعتي لكتابات النساء، وخاصة فيرجينيا وولف وسيمون دو بوفوار. لقد انقلبت الموازين لديّ من خلال نظرتهن. فقررتُ حينها العودة إلى النصوص الكلاسيكية وقراءتها مجدداً – نصوص أفلاطون وأرسطو وكانط وكيركغارد وهايدغر... بعين مختلفة عن قراءتي الأولى، آخذة بالاعتبار أن المؤلف لا يزال يبصر الأمور ليس فقط من وجهة نظر ذكورية بل من خلال المركزية الذكورية. إن المركزية الذكورية التي ترى في الرجل الذكر النموذج الأولي للكائن البشري هي أقدم وأعمق من مركزية الإنسان التي تضع الإنسان في مركز الخليقة بعيداً عن كافة الكائنات الحية الأخرى. ويأتي الفكر المسيحي ليوحّد

المركزيتين مخلفاً آثاراً عميقة في الفلسفة الغربية والفكر الغربي. يظهر عدم التناسق بين الجنسين وترتيبهما التسلسلي بوضوح بدءاً من سان بول Saint-Paul ليتم تأكيدهما بترجمات القديس أوغسطين حيث يقول: خُلِق الإنسان "تمجيداً للخالق" ولروحه، وخلقت المرأة "تمجيداً للرجل" ولجسده. هنا أيضاً تلعب الأساطير حول خلق آدم وحواء دوراً حاسماً. فالكائن البشري هو مخلوق روحي ونكي ويتجسد في شخص آدم ثم في شخص السيد المسيح. أما المرأة فهي الجسد المكمّل للبشر الذكر.

متّهمات بالجنون لمجرد كونهن نساء؟

– ما هو الدور الذي لعبته سيمون دو بوفوار في تجلّي الشعور لديك؟

– تملكني الاضطراب لدى قراءتي لكتابها "الجنس الثاني". لقد شرحَتْ بوضوح، من خلال تحليل طويل للتاريخ، السبب الذي من خلاله تولّد الشعور لدى الرجل بأنه محقّ لمجرد كونه رجلاً، والسبب الذي من خلاله أحست المرأة بالذنب لمجرد كونها امرأة. أدركتُ بشكل خاص أهمية العمل الذي يؤمّن للمرأة استقلالها الاقتصادي. فقلتُ في قرارة نفسي:" لا داعي لأن نثير موضوع الحرية طالما أنه ليس بإمكاننا دفع بدل الإيجار للبيت الذي نقطنه." لقد أعادت سيمون دو بوفوار طرح كافة الخطابات التي تناولت دور المرأة وسعادتها وسرورها: إذا لم نتمكن من تامين حاجاتنا الخاصة فنحن في قفص – وسواء علا الصدأ هذا القفص أو رُصِّع بالذهب، فإنه يبقى قفصاً في كل أحواله. وتساءلتُ في الوقت ذاته عن اللهجة التي سيطر عليها الشموخ عندما نددتْ بالخلل العقلي الذي يصيب النساء عندما يقبعن في منازلهن. لا سيما وأنها هي نفسها تتحدر من الطبقة البورجوازية الثرية حيث تعيش النساء حياة البطالة. أما في الأوساط الأكثر تواضعاً، فكانت النساء يمارسن أعمالاً شاقّة إلى جانب عنايتهن بأطفالهن، وكان ذلك قبل اختراع الغسالات وقبل اختراع حِفاظات الأطفال التي تُلقى في القمامة بعد الاستعمال. كنتُ على علم بالأعمال التي قامتْ بها أمي، ولم أستطع مشاركة دو بوفوار ازدراءها لتلك النسوة المصابات بـ"الخلل العقلي". كانت تعتبر أن العمل المجاني الذي يقدمنه هو جريمة بحد ذاتها. لكنها لم تُدن النظام الاقتصادي الذي كان يفرض على المرأة في كل

مكان من العالم أن ترمي بنفسها في كل المهن المتاحة لقاء أجر زهيد، كالعمل في المطابخ، وتنظيف البيوت، والكي، والخياطة، والتمريض... وغيرها من المهن. لذا كان عندي بعض التحفظ على الزاوية التي كانت تهاجم من خلالها المرأة. بالمقابل، كان واضحاً أن المرأة لم تكن لتقدر على العيش من دون أن تكسب قوت يومها، وكان هذا الأمر جوهرياً لنساء ما بعد الحرب.

– مع ذلك لم تكن دو بوفوار قد انضمت إلى صفوف المناضلات عندما صدر كتابها "الجنس الثاني" عام 1949.

– بالفعل. حتى نهاية الستينيات من القرن العشرين لم تكن تعرّف نفسها بأنها من نصيرات حركة المساواة. عندما صدر كتابها، كانت تعتبر أن النساء "ربحن المعركة". فالتوصّل إلى حق التصويت، وبعض التغيرات القضائية وبداية التحرر على الصعيد الأخلاقي كل ذلك جعلها تعتقد أن نضال هذه الحركة قد انتهى إلى غير رجعة. لم تدلِ بصوتها في الانتخابات، أما موقفها السياسي الذي يشبه العديد من المفكرين والمثقفين من حزب اليسار، فهو كونها لا تنتمي إلى أنصار الحزب الديمقراطي. وتعتقد أن النساء المختلات عقلياً والقابعات في منازلهن لن يستطعن التحرر إلّا في ظل تغيرات اقتصادية جذرية وثورية، وتعتمد على الاشتراكية لتغيير الوضع الاجتماعي للمرأة ولا تتصور حدوث نضال نسائي بحت. غير أنها تبنّت موقفاً مغايراً في عام 1970 حين وقّعت على بيان "النساء السافلات" اللاتي يبلغ عددهن الـ 343 من أجل الحصول على حق الإجهاض.

– كانت حياتها الخاصة تصلح لأن تكون نموذجاً يُحتذى، فهل استلهمتِ منها؟

– لقد استوحيتُ من حريتها على الصعيد الشخصي، وجسارة أفكارها واختيارها لمجال الفلسفة. أضيفُ كل ذلك في رصيدها من دون أي تحفّظ. لقد قدّمتْ على غرار حنة آرانت نموذجاً للمرأة التي أنتجت عملاً نافعاً ليس فقط في مجال الأدب بل أيضاً في مجال الفلسفة. في الماضي كان هناك الكثيرات من الأديبات (استخدمت كوليت الكبيرة التعبير المؤنّث للدلالة على المؤلِّفات) أما مجال الفلسفة فبقي مغلقاً في وجه النساء حتى مجيء دو بوفوار لتفتح الباب على مصراعيه. كنتُ معجبة جداً بالثنائي الذي كانت تؤلفه مع جان بول سارتر

Jean-Paul Sartre[1] مع جهلي بحقيقة سير هذا الثنائي. لم أكن أحبّذ الزواج في حينها، كما لم أحبّذ الروابط الملزِمة، ودعيني أعترف، لم أكن من أنصار تأسيس عائلة وإنجاب الأطفال. لكنني تغيرتُ!

– أما سيمون دو بوفوار فكانت ترفض كل ذلك.

– كانت تنبذ وراء ظهرها – باحتقار كلّي – النساء اللاتي يُقِمن وزناً للأمومة والعائلة. كانت تردد باستمرار:" لقد جمعتُ ميزات كل من الجنسين." وهذا صحيح إذا اعتبرنا أنها لم تتخلَّ يوماً عن إغواء من حولها وأنها كانت ناجحة في مجال عملها. لكنها كانت ترمي بعيداً بالطاقات الأنثوية الكمونية. كانت أنوثتها مشوبة بالخجل من جسدها الأنثوي ومن خصوبتها. تراءى لها نموذج الحرية في شخص الذكر الذي كان يستلهم بنظرية سارتر الخاصة بالذات وبشيء من الاشمئزاز من كل ما هو "لحم". كانت ترى في الرجل إنساناً عملياً: بيده آلة الحرب والتصنيع والإنتاج. وعلى المرأة أن تتوصّل إلى هذا العالم من التأثير والحيوية (من دون أن تسأل عن مفهوم الذات في مجال الفلسفة). أكّدت سيمون دو بوفوار من دون شك على عجز المرأة عن طمس معالم اختلافها كما أنها لا تستطيع أن تضع نفسها من الناحية الأخرى لجنسها. بيد أنها كانت توجه الانتقاد للوضع الاجتماعي والفلسفي للأنوثة مع احترام الذكورة.

– إلى أي مدى تتبعتِ خطاها؟

– من جهة، اتبعتُ الطريق الذي مهَّدتْ له مع منح الامتياز للحرية الفردية: إذ يتحتم على كل فرد، ذكراً كان أو أنثى، "أن يجد لنفسه طريقاً يسلكه"، كما قال سارتر، من دون أن يكون هناك نموذج ملزِم. ومن جهة أخرى، كان يشغلني موضوع هدم الحياد الجنسي الخاطئ للفرد أو للذات إذ إن الجنسية تسيء إلى كل هوية مغلقة، هوية الرجال أو هوية النساء على حدٍ سواء. فالغَيريّة الجنسية تخدشنا جميعاً، والرجل هو ذلك الآخر (كل فرد فينا هو لغيره الفرد الآخر). إن الوصمة العمياء للخطاب الكلاسيكي، كما هي للخطاب الأنثوي، تتجسد في شخص الرجل، وكأننا اتخذنا كسيولة نقدية الاكتفاء الذاتي الذكوري، والحياد الذكوري، والهوية

(1) سارتر (1905-1980) فيلسوف ومؤلف فرنسي. تأثر بالظواهرية كما تأثر بهايدغر. أسس النظرية الوجودية. جسدت رواياته العديدة من أفكاره التي يؤمن بها. عام 1964 رفض تسلم جائزة نوبل للأدب - المترجم.

الذكورية، بهدف إدراكهم جميعاً. لكن الأمر الذي يجب أن نستفسر عنه هو تلك العلاقة بين الجنس والنسل، أي بين حالات الولادة والوفاة. لقد أرادت الذات الذكورية لما وراء الطبيعة أن تُحمّل المرأة تبعة الجنسية والولادة والموت وكأنها ستنكر جنسيتها "الخاصة" وموتها، أي جسدها. بادرت عالمة نفسية إلى تحليل احتجاب الجسد في التركيبة الذكورية، وكأن الأب لا جسد له. لا بد لنا من إجراء تعديلات على منهجية تفكيرنا قبل أن نغير من مكانة المرأة في المجتمع.

السيدة "البروفسور"

– دعينا نبدأ إذاً. ولكن من أية نقطة؟ كيف يمكننا إدخال التعديل على العالم وتأنيثه؟

– أعتقد أننا نستطيع المباشرة بأداتنا في العمل، ألا وهي اللسان، فنسأل عن جنس الكلمة. هذا سؤال قاطع في اللغة الفرنسية، تلك اللغة التي لا تقبل بالحياد. عندما لا نذكر نوع الكلمة (كما هو الحال في علامة الجمع)، فإن قواعد اللغة صريحة بهذا الصدد:"يتغلّب المذكر على المؤنّث."

– وكأنني بالأمس القريب على مقاعد الدراسة في المرحلة الابتدائية، أمام هذه القاعدة اللغوية في كتاب القواعد، أشاهد مجموعة من الفتيان في مقابل مجموعة من الفتيات وقد أمسكوا بطرف الحبل كل من ناحيته، وكأن الفتيات يَنْهَرْنَ أمام غلبة الفتيان!

– سبق وذكرتُ "يتغلّب المذكر على المؤنّث"، هذه الجملة لها دلالتها على سمع المرأة. قد نتقبل الأمر في حال الجمع، لكن الوضع يختلف عندما ندعو الأشخاص بأسمائهم. إني أقرّ بعدم انتمائي لتلك الرائدات كأمثال بونوات غرولت Benoîte Groult اللاتي أعدن طرح هذه العادات مجدداً. كنت أعتقد أن مسألة الجنس في القواعد هي قضية ثانوية. لم تعتد أذني على قول كلمة "البروفيسورة" كما أن الابتعاد عن تطبيق القواعد على أنها قانون جامد، قد يبدو لي أمراً مثيراً للسخرية. لذا كنت أطلب من طلابي ألا يقولوا: "البروفسور" بل يقولون "السيدة البروفسور"، فكلمة "السيدة" تكفي لتحديد الجنس. في كل الأحوال، لم أكن أجد في شبابي أي ضرر أن أسمعهم ينادونني "بروفسور" بالمذكر.

– هل كنتِ تجدين بعض الرضا في هذا؟

– كنت أعيش المتعة التي يلقاها طلاب الصفوف الدنيا عندما يحصلون على شعار الصفوف العليا! إنّ لقب المذكر بالنسبة للمرأة ما هو إلّا دليل على نجاحها. من هنا نشأ ازدواج المعنى فيما يخص تأنيث الألقاب (السيدة الوزيرة). قد تشترك بعض النساء أحياناً في مناصبة العداء إلى نساء من محيطهن. ترفض بعضهن أن يناديها أحدهم "بالمحامية"، فهي كانت تحلم منذ نعومة أظفارها أن تصبح... محامياً!

– في أية مرحلة تغيّر موقفك؟

– حين أدركتُ أن النساء لسن بحاجة لاستلام إشارة الذكورية للتعريف عن موهبتهن وكفاءاتهن. لقد تقدمتِ النساء للامتحانات، وحضّرن للدبلوم ومارسن أعمالاً شاقّة، كان هذا كافياً. عندما أحرزتِ النساء في الثلاثينيات من القرن العشرين نجاحاً باهراً في ميدان الطيران، لم يمانع المجمع العلمي الفرنسي، الذي لم يكن متشدداً كما هو عليه اليوم، من إدخال كلمة "طيّارة" (aviatrice) إلى القاموس. وفي الخمسينيات من القرن نفسه لم يتردد فرانسوا مورياك François Mauriac بالقول: "عُينتِ السيدة لوس سفيرة للولايات المتحدة في روما." ننوه هنا أن كلمة سفيرة كانت موجودة في ذلك الزمان ولكنها كانت تعني زوجة السفير تماماً كما نقول إن المحافظة la mairesse هي زوجة المحافظ le maire.

– هل أصبح المجمع العلمي منذ ذلك الحين اكثر التزاماً بحزب المحافظين؟

– ربما، في الوقت الذي بدأ المؤنث يكثف انتشاره (من دون أن يقتحم اللغة) للدلالة على الوظائف الجديدة التي شغلتها النساء. بدأت التسميات تنتشر كأن يقال "الوزيرة، وأمينة السر، والنائبة". في حين تشبث البعض بالحفاظ على اللغة كما هي من دون إدخال أي تغيير عليها، وكأنها سقطت، ذات يوم، من السماء. أكد التصريح الصادر عن المجمع العلمي المدوّن عام 1984 من قبل جورج دوميزيل Georges Dumézil وكلود ليفي – شتراوس Claude Lvi-Strauss: "لا وجود لأي تعادل بين الجنس في القواعد والجنس المشار إليه، في اللغة الفرنسية كما في غيرها من اللغات الهندية الأوروبية." فالقضية ليست بالبساطة التي تبدو عليها عندما يتعلّق الموضوع بجنس الأشخاص أو حتى الحيوانات الأليفة. لكن هذا لم يكن

رأي النحويين، وخاصة غريفيس Grévisse الشهير في كتابه "الاستخدام الأمثل للغة الفرنسية". لا ننكر أن تحديد الجنس في قواعد اللغة بالنسبة للأشياء أو الأفكار ليس له أية علاقة بجنس معين. لكن عندما يتعلق الأمر بالأشخاص وبعملهم عندئذ تدخل قواعد اللغة لتحدد الجنس!

– فنقول إذاً "الخبازة وبائعة اللحم والبقّالة"...

– بكل تأكيد! كما في اللغة الألمانية. يطلق المؤنث على أسماء المهن عندما تمارسها النساء. شاع استعمال كلمة "سكرتيرة أو أمينة السر" بسبب إشغال هذه الوظيفة من قبل النساء. أما إذا لم نقل "سكرتيرة الدولة أو أمينة سر الدولة" فذلك بسبب ندرة ارتقاء المرأة لهذا المنصب. فالمهن التي كانت تمارسها النساء كانت تؤنّث كأن نقول: ممرضة، قابلة، مضيفة طيران، غسّالة، وغيرها من المهن... ونقول حسب الشخص الذي يمارس هذه المهن: "مغنّياً أو مغنية، راقصاً أو راقصة"...

– وما هو موقف موظفي المجمع العلمي الموقرين عندما أُلزِموا بقبول النساء في صفوفهم: "أكاديمي وأكاديمية"؟

– لا تقولي أكاديمية! ذكرتْ بونوات غرولت شهادة الوفاة التي أصدرها عام 1987 أعضاء المجمع العلمي لـ"زميلهم المأسوف عليه" مارغريت يورسنار. كان ذلك مطابقاً لروح العصر. مع ذلك لم يكن المذكر حيادياً إلى هذه الدرجة أو أنه "لم يكن يفصح عن الهوية" كما أراد ليفي – شتراوس، لقد سُجِّل استخدامه في منطق المركزية الذكورية. لا يكتفي المذكر بالتغلّب على المؤنث، بل يبتلعه. وهذا ينطبق على الجنس البشري برمته. فاللغة ليست حيادية، إنها تعكس قيم المجتمع. أجدُ متعةً حين أورد هذه المقولة لشتراوس في كتابه بعنوان "المداران الحزينان": "ذهب أهل القرية كلهم في اليوم التالي وقد ركبوا نحو ثلاثين قارباً خفيفاً، وتركونا وحدنا مع النساء والأطفال في البيوت التي بدت مهجورة". علّقتْ كلودين بودو Claudine Baudoux فيما بعد في كتابها بعنوان "الوضعية المميزة التي تعتمد على الجنس والعلوم الطبيعية" قائلة: "كيف يمكن لأهل القرية جميعاً أن يغادروها إذا بقي فيها النساء والأطفال؟ كيف يمكن للاختصاصيين في علم الإنسان أن يجلسوا وحدهم إذا كانوا برفقة النساء والأطفال؟ كيف يمكن للبيوت أن تبدو مهجورة إذا كانت تعجّ بالنساء والأطفال؟ لا يتم ذلك إلّا في حال دمج طبقة الرجال مع كل ما

هو بشري من حولهم؟ "مع ذلك، هذا لا يقلل بنظري من شأن كتاب شتراوس والإعجاب الذي أحس به.

جنس السلطة

– حين يكون المرء رجلاً فإننا نقرّ له بالثقافة الشاملة، أما حين يكون امرأة فهل هذا يعني تنحيتها عن هذه المرتبة؟

– صحيح. الرجل يمثل الإنسان عموماً أما المرأة فهي تمثّل الحالة الخاصّة. ليس فقط الحالة الخاصّة والدخيلة، إنها ذلك الكائن القليل الشأن والمُكره على الاهتمام بجسده. كما لا ننسى أيضاً أن تسميات المهن هي موضوع رهان السلطة. لم يتردد مارك فوماروليMarc Fumaroli، المسؤول في المجمع العلمي الفرنسي والذي يتمتع بدقّة لامتناهية، في التمييز بين المذكر والمؤنّث، ولكنه ميّز أيضاً بين المجال العام والمجال الخاص. إنه يعتقد أنه من الشرعية بمكان الإشارة إلى الجنس في المجال الخاص دون العام. علماً أننا إذا دخلنا إلى المجال العام، وجدنا أن النساء حصلن على الكفاءات إلى جانب أمور أخرى منها "النفوذ والمسؤوليات والسلطة، وكل هذا يشار إليه بالمذكر من الناحية النحوية". هذا ما أصابني بالذهول.

– فالمطلوب إثباته الآن هو بقاء المؤنث "داخل المنزل"!

– مما لا شك فيه أن فوماروليقبل من دون تردد استخدام كلمة "معلمة" أو "أمينة صندوق"، لكن عندما كان الأمر يتعلّق بالسلطة فكان يرجّح التذكير، حيث إن أعضاء السلطة هي كيانات لا تشير إلى شخص معيّن، أو بتعبير آخر، لا تنتمي إلى جنسية محددة، نذكر على سبيل المثال وزارة الخارجية، أو منصب رئاسة الجامعة في باريس، أو مجلس الدولة... ثم أضاف قائلاً:"لا نقيم علاقة غرامية مع هذه الهيئات ولا مع الألقاب التي تشير إلى أننا نشغل منصب رئيس أو عضو. فلا يوجد عامل مشترك بين النوع المذكر والجنس الذي اعتقد نفسه قوياً. إننا عندما نؤنث هذه الهيئات التي يكون فيها حامل اللقب من الجنس المؤنث نكون قد نزعنا من حامل اللقب المؤنث سلطته اللاجنسية والمتجردة والمنيعة عن كل ما يتعلق

"بالجنس المنهِك". لنغادر الدائرة العامة ونبحر في الدائرة الخاصّة أو نصف الخاصّة، أي على بعد عدة أميال بحرية من مسرحية البولفار[1]!

– هناك عنف في الأمر!

– إنها طريقة لرد النوع إلى الجنس ثم إلى السرير. فنظرية فومارولي صحيحة عندما يقول إن السلطة "لا تشير إلى شخص معيّن". نعم فالسلطة المهنية أو السياسية لا تنتمي إلى جنس، وأنا أشاطره الرأي. لكن الشخص الذي يمارس هذه السلطة ليس حيادياً لهذا السبب. فإذا أطلقنا عليه تسمية المذكر وهذا يتم في حال عدم وجود الحياد في اللغة الفرنسية، نتوقع أن يكون هذا الشخص رجلاً، الأمر يشبه غرفة الانتظار عندما يقال لك:" الوزير جاهز لاستقبالك". على كلٍ، عندما نوافق على لقب "معلمة" فإننا لا نسيء إلى سلطة هذه المهنة كما أننا لا نثير موضوع الدائرة الخاصة أو الحياة الجنسية. فالمشكلة تكمن في غياب الحياد. إننا حين نستخدم كلمة "القارئ" أو "الممولّ" أو "الشاري"... فإننا نجنّب أنفسنا الوقوع في ثقل التمييز غير المجدي باستخدام المذكر العالمي أو الحياد. هناك أيضاً المذكر الحيادي الحقيقي، كما لو استعملنا بعض التعابير التي يقال إنها "مشتركة الجنس" والتي يشترك فيها الرجال والنساء على حد سواء، كأن نقول: "القاتل، والشاهد، وعارض الأزياء..."، كما يوجد أيضاً المؤنث الحيادي المشار إليه في تعابير يقال إنها "مشتركة الجنس"، مهما كان جنس الفرد الذي نتكلم عنه، كأن نقول: "الخفير والضحية والشخص"[2]. ولا يوجد أي سبب للطعن في صلاحية هذه التعابير، خصوصاً عندما يتعذر تأنيثها (مثال كلمة طبيب mdecin). لكن بعيداً عن هذه الحالات الاستثنائية يجب إجراء المطابقة بين النوع من ناحية القواعد اللغوية مع الأشخاص من دون تحميل اللغة على غير محملها. ولا بأس من استخدام الكلمات التي تنضوي تحت تسمية "المختلطة" التي تغيّر النوع من الناحية النحوية دون إجراء تغيير على الشكل، (التلميذ والتلميذة، الطفل والطفلة، المراهق والمراهقة). نشهد اليوم امتداداً لثنائية التكافؤ التي تغطي كلمات كانت تعتبر

(1) مارك فومارولي، "وجّه إلى السيد رئيس الجمهورية بصفته راعي المجمع العلمي الفرنسي"، صحيفة لوفيغارو، 9 كانون الثاني/يناير 1998.

(2) كلمة خفير بالفرنسية مؤنث، وكذلك الشخص (sentinelle, la personne) – المترجم.

في القديم من الجنس المذكر (مثل "عالِم الجغرافيا، وطبيب الأسنان، والعالم النفساني، والفيلسوف) فنجدها الآن تستخدم أحياناً للمذكر وأحياناً للمؤنث. إن دل هذا على شيء فإنه يدل على أنها لغة حيّة قادرة على التطور مع المجتمع.

– لكن إذا تتبعنا الدليل النحوي "التقليدي" فإن المرأة تبقى امرأة وتحافظ على أنوثتها الكاملة في أدوارها كزوجة وعشيقة وأمّ فقط. أما إذا دخلنا الدائرة العامة، فيترتب عليها أن تتحلى بصفات الذكر أو على الأقل أن تحافظ على الحياد.

– في الحقيقة لم تكن الدائرة العامة تخضع للحياد في الماضي إنما كانت للمذكر. وخير مثال على ذلك العالم السياسي، لم يُطلب فيه من الرجال في وقت من الأوقات طمس معالم ذكوريتهم. كان الأمر بديهياً، السمات الاجتماعية والجمالية وتلك الخاصة بالثياب، وطريقة الكلام المعتادة الخاصة بالذكور كانت لها شرعيتها. لقد اختلط ما يسميه علماء الاجتماع بـ "مجموع المواقف النوعية الذكورية لأعضاء ينتمون إلى مجتمع واحد" بالأوساط التي تشهد غالبية ذكورية. من هذه النقطة يجب أن تتدخل عملية الهدم. خذي مثلاً أسلوب الخطباء وبلاغتهم، لقد ترافقَ كلامهم في عهد الجمهورية الثالثة بالإشارات واللهجات التي تنم عن حب القتال والبطولات، ضربات على الطاولة، أصوات رنّانة... لكن عندما تظهر النساء في مثل هذا العالم، يتبين لنا أن وجودهن في غير موضعه، لذا عليهن إيجاد طريقة خاصة بهن للظهور أمام الجمهور. الموضوع لا يهدف إلى تأنيث الساحة السياسية باللجوء إلى نماذج أنثوية قديمة – حيث إن تلك النماذج لم يكنّ نساءً ينتمين إلى عالم السياسة، لكننا نشهد ابتكاراً لنماذج جديدة في الجمعيات والمؤسسات وفي كل مكان.

على المرأة أن تبتكر تميّزها

– لقد أدركنا أن اللغة هي أبعد ما تكون عن الحياد. لكن إذا وضعنا اللغة جانباً وتتبعنا المظاهر الخارجية – أي تلك المرتبطة بالجسد والملابس والحركات – فهل علينا "تدميرها" هي أيضاً؟ هل نقول إن النماذج القديمة بليت وانتهت إلى غير رجعة؟ أصبحنا نشاهد المرأة الغربية بعضلات مفتولة، لقد باتت أكثر اهتماماً بالرياضة البدنية، وغالباً ما نراها بالبنطال...

– لمسنا بالفعل تطوراً جلياً حين تراجع الاختلاف بين جسد الرجل وجسد المرأة من حيث الملابس كما اختلف منظور علم التشكل الذي يبحث في هيئة الأجسام الحيّة. شاهدنا في الأربعينيات من القرن الماضي، فيلماً عن الغرب الأمريكي تعرّضت فيه الممثلة للتأنيب إذ إنها ظهرت "بزي الرجال"، ببنطالٍ من القطن يعصر الجسم، وقميصٍ ذي مربعات! من ناحية أخرى، لا يسعنا إلّا التعبير عن دهشتنا أمام التباين الواضح بين جسد الأنثى في الغرب من حيث سيطرة النساء على الخصوبة، وبين جسد الأنثى في بلاد العالم الأخرى حيث لا تُعطى المرأة الخيار في قبول الأمومة أو رفضها. أتذكر عندما سافرت إلى جنوب المغرب حيث التقيت بنساء ذوات أجساد مليئة، يتحركن ببطء داخل جلابيبهن، وقد حملن أطفالهن. إلى جانب هؤلاء النسوة ظهرت نساءٌ غربيات نحيلات، يلبسن البنطال ويقدن عرباتهن ذات القاطرة. يخيل إلينا أحياناً أننا أمام تغيير مفاجئ! مع ذلك لم نبلغ مرحلة توحيد الجنس، كما أن الجسد لا يتطور بالطريقة نفسها في كل أرجاء العالم. وهذا دليل آخر أن للأجسام الأنثوية والذكورية تاريخها أيضاً. لقد لعبت الرياضة التي انكبت النساء على ممارستها، سواء بهدف ملء الفراغ أو للمشاركة في المباريات، دوراً جوهرياً في تغيير جسدها، تبعها تغيير في ملابسها اليومية وفي حركاتها.

– رغم كل ذلك بقي الاختلاف بين الجنسين موجوداً ولم يتلاشَ، هل يمكننا تعريف هذا الاختلاف كما نراه اليوم؟

– إن الاختلاف الجنسي في الحالة المجردة لا معنى له إن لم يتم قياسه نسبياً بالتناسل. فالاختلاف في تركيبة الأجساد عند الذكر والأنثى أمر قائم لا يمكن دحضه أو إنكاره. هذا الاختلاف تفرضه عملية الإنجاب التي تحتاج إلى مساعدة كل من الجنسين – إلى أن يثبت العكس – حتى في حال اقتصر ذلك على اقتران الخلايا. إن وجود الوالدين – الأب والأم، أو الرجل والمرأة – أمرٌ ضروريٌ لمنح الحياة. لكن لا توجد أية صلة مباشرة لهذا الأمر مع المظاهر، أو الأدوار الاجتماعية، أو القانون، أو الأخلاق، كما أن لا علاقة لذلك بالحب أو بالميل إلى الشهوة الجنسية. إذا كان الاختلاف بين الجنسين قضية جوهرية في الإنجاب، فإنه ليس ضرورياً لإنشاء علاقات غرامية. إننا ما إن نبتعد عن المجال النوعي للإنجاب حتى ندخل في عالم عظيم يختص بترجمة الاختلاف بين الجنسين وسط المجتمع.

– هل يعود الفضل إلى الثقافة إذاً في إضفاء معنى للمذكر والمؤنث؟

– نعم بالتأكيد. إلى جانب ذلك هناك بعض العوامل الملموسة التي يتنبه إليها الأطفال في وقت مبكّر، وتتجلّى في نبرة الصوت. حتى لو ساهمت الثقافة في تغيير الأصوات، فإن صوت الفتى يصبح أجشَّ في سن البلوغ. كما يلاحظ الأطفال أيضاً ظهور النهدين عند الفتيات، أو يتنبهون إلى تغير في حجم بطن المرأة الحامل. تساهم الطبيعة – أي ما لم يخترعه الإنسان – في دعم الفروق الاجتماعية بين الجنسين. يأتي الأطفال إلى هذا العالم إما ذكوراً أو إناثاً باستثناء حالات نادرة لأطفال ثنائيّي الجنس (خنثى). فيعمل المجتمع فيما بعد على تنمية هذا الاختلاف. إننا نذكر جيداً الفيلم الذي يحمل عنوان: "البعض يحبونه ساخناً"، تلك اللحظة التي هرولت فيها مارلين على رصيف المحطة وهي تنتعل حذاءً ذا كعب رفيع، بمشيتها العجيبة المترنحة. صاح جاك ليمون Jack Lemon قائلاً: "هذا جنس مختلف تماماً!"

– هل تساهم الملابس والحركات والفنون في تنظيم التمثيل الاجتماعي للجنسين؟

– بالفعل. إذ ولحسن الحظ لا نولد منتعلين حذاء بكعب رفيع، كما أننا لا نولد بقدمين مضمدتين! يتوجب على النساء أن يعرفن كيف يجسّدن دور الأنثى في التمثيليات. كانت المرأة في الثمانينيات من القرن المنصرم ترتدي السترة ذات الشكل المربع والأكتاف العريضة في حال عُينتْ بمنصب رفيع في إحدى الشركات، وكأنها تريد أن تبرهن على مدى سطوتها. أما اليوم فإنها لا تتردد في لبس كنزة من الصوف أو القطن تكاد تعرّي جسدها والفساتين التي تظهر مفاتنها. وبشكل عام، نجد في الحياة العملية أزياءً أنثوية تم اقتباسها من بزة الرجل. إنه شكل من أشكال "توحيد الجنس" الذي يفرض نفسه في مجالات عدة، وخاصة في مجال الرياضة، حيث لا يمكن التمييز بين المتزلجين على الثلج والمتزلجات، كلاهما بحاجة إلى التقنيات ذاتها وحرية الحركة. أما فيما يتعلق بملابس السهرة، فتعود المرأة إلى العلامات التي تظهر أنوثتها فيما يخص الزينة والمجوهرات والثياب التي تكشف مفاتن الجسد. ويبقى لأشكال المباهاة عند الرجال والنساء وظيفتها في الغواية الجنسية. يترتب على النساء إذاً أن يبتكرن النموذج الذي يُلقي الضوء على أنوثتهن وفقاً للمناسبات.

– ألا يشكل الاختلاف بين الجنسين هوية ثابتة؟

– كلا لا يشكل هوية ثابتة ولا حتى نموذجاً مغلقاً سواء للرجال أو للنساء. إنها تركيبة تفاضلية يجب أن تبقى بعيدة عن التركيبة التسلسلية. لن تكشف لنا الحضارات عن حقيقة نهائية أو طبيعية تجعلنا نقول: هذا هو الاختلاف بين الجنسين بشكله الأخير والثابت! فخلف كل تمثيلٍ جديد للاختلاف نجد تمثيلاً أحدث منه. يتجدد الاختلاف ولكنه يبقى قائماً إلى ما لا نهاية.

الرجل ليس حيواناً، أما المرأة فهي كذلك بعض الشيء

– بصورة عامة، أليس الجسد، وخاصة جسد المرأة، هو الغائب الكبير في الفلسفة؟

– القضية أشد تعقيداً. تتباين النظرة بين الجسدين. يبدو جسد الذكر غازياً ومحارباً: إنه الجسد الذي يمتلك العالم ويسيطر عليه بالقوة أو بالوسائل التقنية. إنه ليس لحماً. كما أننا يمكن أن نضحي بهذا الجسد: فالمجازفة بالحياة هي شكل من أشكال البطولة الذكورية التي تقدِّر قيمتها. بينما تُظهر لنا الفلسفة الكلاسيكية أن لا قيمة لجسد المرأة حيث تقتصر هذه القيمة على الإنجاب، والغذاء، وحماية الحياة. يظهر هنا المجال الشهواني، شبه الحيواني. فالرجل من زاوية هذا العُرف ليس حيواناً، لكن المرأة تبدو كذلك بعض الشيء. وإذا حاولنا أن نكون أكثر دقة، نجد أن الفلسفة اليونانية تليها الديانة المسيحية، كلاهما بنى ازدواجية الأجناس على التناقض الميتافيزيقي للأمور التي تُدرَك بالفعل وتلك التي تُدرِك بالحس، سواء للروح والجسد، أو العقل واللحم. هذا ما أطلقتُ عليه تسمية "ميتافيزيقية للجنسين": الرجل يمثل العقل بينما تمثل المرأة الجسد وتورّثه. لا يمكننا أن نكتفي بإعطاء الجسد للرجال والعقل للنساء– حتى لو ساهم هذا في حجب التراتب. يجب علينا أصلاً إعادة النظر في مسألة التناقض الخاص بما وراء الطبيعة بين ما هو جسدي أو شهواني وبين ما هو روحي. إضافة إلى ذلك يجب أن تبقى الولادة مصدر قوة لا مجرد واجب ملزِم.

– وكيف نتوصل إلى هذه المرحلة من دون أن نعيد المرأة إلى سجن الأمومة، ذلك الدور الوحيد الذي بموجبه نالت التقدير؟

– لقد آن الأوان لأن تهتم الفلسفة بقضيتي الخصوبة والأمومة وتعيد النظر فيهما بطريقة مغايرة. صحيحٌ أن النظرة التي كانت توليها كافة الثقافات للمرأة كانت تقلل من شأنها كامرأة بينما كانت تبجلها كأم. كان هذا التقييم النسبي الذي تلقاه المرأة يترافق بالعبودية والمحظورات مما حرّض نصيرات الحرية على الثورة الشرعية. مع ذلك – ويجب أن نقرّ بذلك – لا يجدر بنا إلقاء الطفل مع الماء الذي نتخلّص منه في الحمام. يمكننا اليوم اعتبار موضوع الخصوبة من وجهة نظر المرأة على أنه سلطة استحوذت عليها النساء بعد أن تعرّفن على وسائل منع الحمل وحصلن على حقهن في الإجهاض. فالتحرر لا يتأتى من رفض الأمومة إنما من السيطرة عليها.

– هل يعتبر البحث عن فلسفة روحيّة متحررة من حاجات الجسد صفة ذكورية بحتة تفسِّر جزئياً غياب التفكير بالأمومة؟

– يمكن أن نقول ذلك بعبارة أخرى: هل يوجد في الاختلاف بين الجنسين ما يوجّه طريقة التفكير؟ إنه سؤال صعب للغاية. نستطيع أن نطرحه بمراقبتنا للظواهر الدينية: لقد كانت الديانات، بمحاولاتها إنكار الجسد أو تبجيله، من اختصاص الرجال. أما اليوم، ومع تزايد عدد النساء اللاتي يترددن على الكنائس، لا يزال الرجال يستأثرون بالفضل في التفكير بالدين والقيام على خدمته. كانت المرأة ولا تزال في كل الديانات التوحيدية – اليهودية والمسيحية والإسلامية – بعيدة عن السلطة الدينية (كالاحتفال الديني، وشرح النصوص...). تمخّض تاريخ النساء حتى يومنا هذا عن احتكار الذكر للسلطة العقلية والفكرية والسياسية. أما تأمين الذرية بعيداً عن تربية الصبية وتنشئتهم، فكان يدخل ضمن دائرة اختصاص المرأة.

– أيمكننا الشروع بالتفكير في المواقف التي تمّ تبنيها تجاه النوعيات الفيزيولوجية الأنثوية الأخرى، كالاضطرابات التي تصاحب الدورة؟

– لقد شهدت هذه المشكلة تطوراً ملحوظاً بتدخل الطب الذي استطاع التخفيف من حدة هذه الاضطرابات التي تلازم المرأة طيلة أيام دورتها الشهرية وخلال مراحل سني عمرها وتختلف من امرأة إلى أخرى. لذا يفترض تحرير المرأة من شعورها بالخجل من جسدها. يجب اعتبار هذه النوعيات الخاصّة بالمرأة على أنها أمر طبيعي كما يجب على المجتمع بأكمله أن يأخذ بها. أذكر على سبيل المثال

العلاقة التي لاحظتُ وجودها عندما كنتُ أعمل كمدرّسة، بين دورة الفتاة وصوتها، إذ يطرأ تغيير على الحبال الصوتية في بعض الأحيان مما يُضعف الصوت. وهذا ما يفسر اعتذار المغنيات عن إقامة الحفلات في هذا التاريخ أو ذاك. فبدل أن ندّعي "لا، لا، هذا الأمر غير موجود" بشيء من الخجل، علينا مواجهته. ليس على المرأة أن تنتقص من قيمتها لأمر جُبلت عليه. بالمقابل، لماذا لا نلجأ إلى فرض قاعدة توحيدية مخالفة؟ على كل حال، الرجال ليسوا نساءً كباقي النساء!

– هذه المحاولات "للتوحيد المعاكس" حديثة العهد... إذ لم يمضِ وقت طويل على تجرؤ النساء على الجهر بأمورهن الخاصّة.

– لقد بدأ ذلك في السبعينيات من القرن الماضي. كان لزاماً على النساء أن يتفحصن علاقتهن بجسدهنّ باطلاعهن على خصوصيتهن ويقلعن عن شعورهن بالخجل. أن تحيض المرأة أمرٌ لا يمنحها مجداً كما لا يمنحها امتيازاً. إنه حدث عادي. إذ لا مصلحة للمرأة على الإطلاق أن تروّج لتبرز مثاليتها أو طهرها. أعتقد أنها تجاوزت هذه المرحلة إلى غير رجعة. انظري إلى تلك الصور التي تبرز المرأة في فترة حملها، بما فيهن الفنانات اللاتي كنّ يخفين وضعهن في الماضي، فالحمل لا يتطابق مع معايير الجمال أو الجنس في عصرهن. يمكن أن نعتبره اليوم تطوراً إيجابياً.

– إذاً علينا إعادة التفكير في العلاقة بين العقل والمادة، والروح والجسد، ولكن من وجهة نظر مختلطة هذه المرة.

– نعم كما هو الحال في العلاقة ما بين النشاط والخمول. هناك موازاة بين تراتب هذه المفاهيم وتراتب الجنسين. وأمام هذه الدعاية المنطقية "الرجل حالة عامة بينما المرأة حالة خاصّة" لن تستطيع النساء التخلّص من هذه العلاقة إلّا إذا بادرن إلى هدم مركزية الذكورية شيئاً فشيئاً. ويبدأ هذا حين نبقي في أذهاننا قبول الشمولية المجردة بالتعريف الذكوري للإنسانية، هذه الشمولية التي تتحدّث باسم البشرية وترفض أخذ الجنسين بعين الاعتبار. قد تستطيع النساء التصرّف بالمثل. إننا إذا أنشأنا ما يسمى "بمركزية الأنثى"، نقول: "إن البشر كلهم إناث في الأصل، انظروا إلى تلك الكائنات العجيبة التي ليس لها أثداء ولا تستطيع الإنجاب، كم هي مشوّهة بالنسبة لنا!" فالحالة العامة هي الاختلاط، أي التباين بين المنكر والمؤنّث،

ونحن كبشر ننتمي لأحد هذين الجنسين بالضرورة، كما أننا نتشابه في كل الأمور سوى تلك المتعلقة بالجنس.

– هل نستخلص من هذا أن النساء لسن أقلية يجب الدفاع عنهن أو حمايتهن، كما طالب بذلك عدد من نصيرات الحركة الأمريكية المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل؟ عندما رأين أنهن أقليات في مناطق النفوذ والسلطة، لجأت هذه النصيرات إلى تمثّل النضال الذي تقوده الأقليات العرقية والمتمثلة بجماعة الزنوج...

– لقد ناقشتُ هذا الموضوع مرات عديدة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تندد الأمريكيات بأوهام الشمولية المجردة على الطريقة الفرنسية، ففي هذه الشمولية ينحل الجنسان في بوتقة حياد "الفرد" أو الذات. إذ لا يسمح هذا الحياد بتحليل التمييز العنصري ومكافحته، فتركيبته لا تختلف عن التركيبة المنطقية للعرقية المركزية (الاستواء الحيادي للرجل الذكر، والاستواء الحيادي للأبيض... إلخ). وإذا كانت تبعية النساء قد اتخذت أشكالاً تاريخية وثقافية خاصة فإنها تجتاز كل الفئات. فالنساء يشتركن مع بعض الأقليات العنصرية التي اغتُصبَتْ حقوقها في الحاجة إلى إثبات وجودهن وفرض كرامتهن. لكنهن لا يشكلن الفئة الأقلية في المجتمع، بل إنهنّ الوجه الشمولي للإنسان، لذا لا مصلحة لهن في إقحام أنفسهن في حركات التمييز أو التنظيم العام. نحن ككائنات حيّة ننتمي إلى جنس معين. يجب إذاً أخذ هذا التباين الشمولي بعين الاعتبار دون إخضاعه للتراتب.

شهوة ثنائيي الجنس

– هل تعتبر الفلسفة، في مجال الفكر، هي الوحيدة التي تحتاج إلى عملية هدم للمركزية الذكورية؟

– ينطبق هذا على كثير من الأنظمة. فالنساء اللاتي يضعن النظريات يولين الأمور اهتماماً مثمراً. جاءت أعمال فرانسواز إيريتييه Françoise Héritier في فرنسا أساسية جداً في علم الإناسة (الأنتروبولوجيا). أذكر في العلوم السياسية بلاندين كريجيل Blandine Kriegel، وفي مجال التاريخ ميشيل بيرو Michelle Perrot من دون شك، ونيكول لورو Nicole Loraux اللتين أثارتا مكانة المرأة عند

قدماء الإغريق، وأخيراً أذكر آرليت فارج Arlette Farge التي تحدثت عن العلاقات العائلية في القرن الثامن عشر... وعلى صعيد التحليل النفسي، تزاحمت النساء في مؤلفاتهن. كان لفرويد ولاكان Lacan الفضل في فتح آفاقٍ جديدة لإدراك الجنس، لكنهما وقعا في مركزية قضيب الرجل: الجهاز التناسلي من وجهة نظرهما هو ذكر الرجل. لقد فسّر فرويد الاختلاف في علم التشريح ضمن منطقية النقص: "الآخر" هو (في الحالة الراهنة هي) الذي "لا يملكه". لكن مهما بلغ به التفكير، فأثداء المرأة تبدو للعيان أكثر من قضيب الفتى الصغير. بدا لي الأمر غريباً أن تقول فتاة صغيرة في قرارة نفسها، كما تخيّل هو:"هذا شيء لا أجده عندي، وهو ينقصني". كانت كارين هورني Karen Horney المحللة النفسية السباقة في إثارة الشك في عقيدة فرويد حول موضوع شهوة القضيب، والذي يعتبر وجوده جوهرياً في النشاط الجنسي الأنثوي. كما كان لميلاني كلاين Mélanie Klein وآنا فرويد Anna Freud وجوليا كريستيفا Julia Kristeva دوراً في تحويل نظرية التحليل النفسي وتطبيقاته.

– هل تميلين أنتِ أيضاً إلى الوقوف طويلاً عند عملية الهدم هذه في تاريخ الفن؟

– لقد عملتُ في مواضيع تتعلّق بالرسم والتصوير والسينما مما قادني إلى نظرية الصورة والشبه والبنوة. يُترجم الشبه بين الأب والابن بارتباطه الوثيق بالعلاقة بينهما. نلاحظ هنا أيضاً في مجال تاريخ الفن أنه سلب المرأة قيمتها. فمثلاً طالما اعتبر الرسم جوهر اللوحة الفنية كان يقال: "الرسم ذكر والألوان مؤنث." وعندما كان اللون هو المسيطر في اللوحة، كتب ماتيس Matiss: اللون هو الطابع الذكوري للوحة؛ والرسم هو الطابع الأنثوي."

– وماذا عن الأدب؟ هل هناك أدب خاص بالرجل وآخر خاص بالنساء؟

– أعتقد أن هناك أدباً رفيعاً وآخر أدنى درجة، كما أن هناك كتباً قيّمة وأخرى أدنى درجة. كانت الأديبات الشهيرات أمثال كوليت Colette وفيرجينيا وولف Virginia Woolf وناتالي ساروت Nathalie Sarraute يوقّعن بطريقة أنثوية يُفهم من خلالها أن المؤلف امرأة. الأمر لا يختلف عند مونترلان Montherlant أو جينيه Genet أو سارتر Sartre أو كامو Camus، كانت شخصيتهم الذكورية تظهر بوضوح من خلال تواقيعهم. في حالات عديدة، يبيّن أسلوب الكاتب بشكل محسوس

جنس المؤلف من دون أن ينتقص من انتشار العمل. "فالأدب العظيم" الذي سطّره الرجال لا يبدو لي أنه من نتاج كائنات لاجنسية! كذلك الأمر بالنسبة للعمق والشفافية وجمال اللغة عند كوليت، كل ذلك يعكس أنوثتها ولا يقلل من شأن نتاجها الأدبي الذي انتشر عالمياً. في الحقيقة تنم المواهب الأخّاذة عن ثنائية الجنس. لقد تحدثتُ آنفاً عن كوليت، إذا لا توجد امرأة تضاهيها بأنوثتها لكننا نجد عندها شكلاً من أشكال الرجولة بالمعنى السائد في عصرها. الخيال والوهم والرغبة هي صفات ثنائية الجنس. لقد أحبت كوليت النساء كما أحبت الرجال...

الفصل التاسع

بناء التكافؤ

الحق في سمو الهمّة

– **نيكول باشاران:** تشكل المدرسة الخط الأول لدخول الأولاد ذكوراً وإناثاً إلى الدائرة العامة. أصبحت مدارس اليوم في فرنسا مختلطة حيث التدريب والتأهيل متاح أمام الفتيات بكافة أنواعه. مع ذلك يبقى عدد الفتيات نادراً في الاختصاصات الانتقائية، هل هذا ناتج عن عدم رغبة الفتيات في المواد العلمية، أم إنه خوف من المنافسة؟

– **سيلفيان آغاسينسكي Sylviane Agacinski**: لقد أحرزت الفتيات نجاحاً باهراً في دراستهن. في فرنسا مثلاً، نجد في الفصل الواحد نسبة 51% من الفتيات اللاتي يتابعن تحصيلهن العلمي ويحصلن على شهادات عليا مقابل 37% من الذكور. لكنهن عندما يحصلن على شهادة البكالوريا فإن عدداً قليلاً منهن فقط يخترن المجالات العلمية، إذ تعتبر هذه الاختصاصات طريقاً ملكياً. لكننا نلاحظ في ألمانيا أن عدد الفتيات اللاتي يلتحقن بدراسة القانون قليل علماً بأن هذا الاختصاص يشغل مكانة مميزة في البلاد. مما يدعونا إلى الوقوف قليلاً عند المعايير التي توجّه طالبات البكالوريا عند اختيارهن للتحصيل العلمي. تختار بعضهن أن تختص في مادة تعليمية كانت موضع شغفها في المدرسة كمادة التاريخ أو اللغات. لكن هناك العديد من المواد التي لا تُدرّس في المدرسة – كالقانون والطب – وعليه، يتم اختيار الاختصاص تبعاً لمهنة المستقبل. بذلك

تراعي الفتاة الصورة التي رسمتها في ذهنها عن الدور الذي ستلعبه عند بلوغها سن الرشد وبالتالي فإن مراكز السلطة والمسؤوليات لا تزال تزرع الرعب في قلوب الفتيات.

– هل بإمكاننا أن نقول إن اختيار التحصيل العلمي منوط بالبيئة الاجتماعية؟

– نعم، تلعب البيئة دوراً حاسماً تماماً كالجنس. يبدأ الموضوع بالتعرّف إلى الاختصاصات والمهن المختلفة. أما في الأوساط الأكثر تواضعاً فتبقى المعلومات محدودة أمام الأولاد. يلعب الأهل وبخاصة الآباء دوراً هاماً في الآفاق التي ترسمها الفتاة لنفسها وفي إيمانها بإمكاناتها. صرّحت بعض النساء اللاتي حقّقن نجاحاً باهراً في حياتهن العملية أن الفضل في ذلك يعود إلى سعة أفق آبائهنّ. وهذا هو حال رائدة الفضاء كلودي هينوريه Claudie Haigneré التي تروي لنا أن عائلتها كانت موافقة على موضوع انشغالها في الدراسة والتدريب: لذلك شعرت أن أمورها تسير بشرعية تامة. في المقابل، إذا توجب على الفتاة أن تناضل لفرض هذه الشرعية فإنها ستكتم في أعماقها المنصب الذي تصبو إليه مستقبلاً. أذكر عندما كنت مدرّسة في المرحلة الإعدادية، أنه كان عليّ شحذ همّة التلميذات المتفوقات، بسبب تقليلهن من شأن أهدافهن. طالما لا تشعر المرأة بضرورة إثبات وجودها من خلال مهنتها، وطالما تعتقد الفتاة أن نجاحها المهني سوف يتناقض مع ما تصبو إليه على صعيد حياتها الخاصّة، فإنها تميل إلى الحد من طموحها.

– أما بالنسبة للفتيان فإنهم لا يتساءلون عن انعكاس تأثير المهنة التي سيختارونها على دورهم كآباء المستقبل.

– هذا صحيح. ولكن برأيي يجب ألا نوصم الفتيات بالإعاقة عندما يبادرن إلى التخطيط لحياتهن الخاصّة. أما المرأة فهي محقّة عندما توازن بين مختلف مظاهر الحياة التي تعيشها، سواء العامة منها أو الخاصّة، وتراعي علاقاتها العاطفية. بُني المجتمع من كائنات بشرية من لحم ودم، يتم التعرّف عليها من خلال انفعالاتها ومنطقها المهني. لا مانع أن نجوب بنظرنا ناحية الفتيان بدلاً من توجيه اللوم إلى الفتيات لكي يأخذن بالاعتبار مناحي الحياة المختلفة.

– ولكن كيف السبيل بهذه الطريقة، إلى حثهن على المضي قدماً في تحقيق مواهبهن؟

– من الضروري جداً تأمين تأهيل متين للجميع، منذ الطفولة الأولى، ليس

فقط على صعيد المعارف والعلوم بل أيضاً للتعرّف على أنفسهم. يجب أن يشمل هذا التأهيل الذكور والإناث على حد سواء ويجب أن يدرك الأولاد أن كل الطرق متاحة أمامهم مهما كان جنسهم. يفترض تهيئة كافة السبل أمام الفتيات لكي يطرقن باب كل الاختصاصات العلمية. ومن حقهن أن يكون لهن طموحهن الخاص بهنّ. فأشكال الطموح متعددة وليس عليهن سوى الاختيار.

الدُمى والسيارات

– التربية المختلطة... هل تعني أيضاً تعليم الخياطة والتطريز للأولاد الصغار؟ إنني جادة في الموضوع... لقد ذهب بعضهم إلى طرح مثل هذه الفكرة!

– على كل حال، اندثرت هذه المادة من المدارس! لكن إذا فكرنا بطريقة أكثر جديّة، عندما ندّدت المرأة بتبعيتها للرجل هل كانت ترغب حقاً في جعل الرجل صورة عنها؟ أو أنها كانت تريد أن تتشبّه بالرجل. لست على يقين من هذا. كلا الجنسين غامض بالنسبة للآخر، وأفضل طريقة تتمثّل في قبول الجنس الآخر كما هو. فالفرد أيضاً لا يخلو من الغموض.

– ألا تعتقدين أن أنواق الأولاد والفتيات مرهونة بشكل كامل بطريقة التربية؟

– تلك كانت الرسالة التي دار حولها موضوع الكتاب الذي ألفته إيلينا جياني بيلوتي Elena Gianni Belotti بعنوان "من جانب الفتيات الصغار" والذي قرأناه في السبعينيات من القرن العشرين... كنت أعتقد شخصياً أن السلوكيات والأنواق ما هي إلّا ثمرة التكييف في مرحلة الطفولة، وأنها مرتبطة بتوقعات الأهل، وباللعَب التي تُقدم إلى الطفل وبنماذج من أدب الطفولة... لم أرزق بالأخ ولا بالولد! لقد برهنت لي خبرتي اللاحقة الشطط الناتج عن هذا التأكيد. علينا أن نعترف بوجود الاختلافات ولكن ليس علينا أن نفرضها أو أن نبالغ فيها. لسنا مضطرين لتقديم الدُمى للبنات أو السيارات للصبيان (لقد حصلنا، أنا وأختي، على قطار كهربائي وكان مصدر سعادة لأمي). مع ذلك، كانت الفتيات يقفزن على الحبل في أوقات الاستراحة، من دون أن يفرض عليهن أحد ذلك. قد يحتج بعضهم ويقول إنه تقليد قديم، ولكنه يتكرر بطريقة غامضة.

– هل تعتقدين أن الاختلاط في المدارس أمر إيجابي بالضرورة؟ لاحظ بعض علماء التربية وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية لجوء الفتيات الفطري إلى الانعزال عن الآخرين في إطار المدرسة المختلطة. بالتالي ينصح هؤلاء بإنشاء مدارس خاصة بالفتيات لكي يتابعن تعليمهن كقائدات للمستقبل من دون عقد نفسية.

– كان للمدارس المختلطة في السبعينيات من القرن العشرين قيمة مطلقة. تساءل الجميع فيما بعد إن لم ينجم عن هذا الاختلاط بعض المساوئ. صدرت عن الأولاد أشكال من العنف في فترات الاستراحة. أما داخل الفصل فكانت ثقة الذكور الذاتية تثير الرعب في قلوب الفتيات اللاتي كن يفكرن في قرارة أنفسهن: "إن ثقتي بنفسي مزعزعة، ولا أملك الحزم في أموري، لا بد أنني لن أتألّق في دراستي." كما لا ننسى العلاقات العاطفية التي تنشأ بين الذكور والإناث والتي قد تؤثر سلباً على دراستهنّ. يجدر بنا الاهتمام بهذه الأمور وعدم إهمالها. لقد تلقيت تعليماً في مدارس أنثوية بحتة – سواء الطالبات أو المعلمات – وأعلم يقيناً أن هذا النموذج من النساء اللاتي كنّ لامعات في اختصاصهن هو الأفضل بالنسبة لنا. كانت المعلمات يمثّلن نموذج تحرر يتعارض مع الصور التي تظهر على صفحات المجلات أو تطالعنا على الشاشة الكبيرة. لقد أثّرت فينا أولئك المعلمات بثقافتهن وسيطرتهن. ومن ناحية أخرى، كان التنافس شديداً بين الفتيات ولم تسجّل أية حالة نفسية.

– لكن في النهاية هل أنتِ من أنصار المدارس المختلطة؟

– نعم بلا شك. إنني أعتقد أن المواجهة المبكرة بين الذكور والإناث أفضل من فصلهم عن بعضهم، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاط الجنس البشري والمجتمع. كذلك الأمر بالنسبة للهيئة التدريسية يُفضل أن تكون مختلطة من أن تنحصر بالمعلمات. ينشأ عن تآلف الصبيان والبنات علاقات قريبة من الطبيعة بعيدة عن الغرابة.

ميول طبيعية

– بالإضافة إلى الاختلاط بين الأساتذة والطلاب، هناك أيضاً موضوع المواد. شاع الكلام عن ميل الذكور بشكل عام إلى الآلات والمحركات، فهل نجد هذه النزعة لدى الفتيات؟

– لستُ الإنسان المناسب ليجيب عن هذا السؤال. إذ إن الأمور التقنية استهوتني منذ طفولتي. حصلتُ على إجازة السوق يوم بلغتُ سن الثامنة عشرة، ثم انكببت على جهاز المينيتيل[1] والحاسوب الذي وجدتُ فيه مصدراً للعب والتسلية إضافة إلى أنه يمتص الطاقة التي تشبع نزوة السلطان المفترض أنها موجودة لدى الذكور دون الإناث. في كل الأحوال يجب التوقف عن افتراض انقسام جنسي للأذواق والمؤهلات: إنها الطريقة الوحيدة للحفاظ على التميّز وترك العنان أمام التميّز الفردي.

– هل يجب التفكير بالطرق التي يتم وفقها اختيار الاختصاصات والمناصب المتميّزة؟ هل تعتبر مزيّة للأولاد؟

– تعتمد المعايير المتميزة في الفحوصات ثم فيما بعد في لقاءات التوظيف على الأعراف المتناقلة في المجموعة أو في المهنة. ففي المجموعة التي تغلب فيها نسبة الذكور يتم تقييم روح المنافسة. أما في المجموعة التي تغلب فيها نسبة الإناث، يؤخذ بالحسبان الانفتاح على الآخر، والقدرة على الاستماع. تبقى هذه الصفات مفيدة في المهن المخصصة حتى اللحظة للرجال. فإذا أردنا أن نلقي الضوء على الفجوة بين النجاح الذي حققته الفتيات على مقاعد الدراسة والنجاح المهني مهما كان ضئيلاً، لا نستطيع استبعاد فكرة شعورهن بالضيق في الأوساط التي تطغى فيها سلوكيات ذكورية. هذا ما يفسّر ميلهن الأولي للعمل في مجالات مختلطة حيث يستطعن إبراز مهاراتهن بسهولة. كل ذلك يدخل تحت راية الفرضيات. ومهما يكن فالعادات والأعراف تدخل في إطار الأمور المكتسبة، فهي تاريخية وآيلة إلى التغيير.

– هناك من يتهم النساء بأنهن يثرنَ الفتنة والتوتر عندما يقتحمن وسطاً كان مقتصراً على الرجال.

– إني أرى ضرورة المبادرة إلى تحليل النتائج ذات التأثير السيئ للمجموعات الذكورية، وبخاصة "الصداقة الرجولية" التي أشار سيباستيان هافنر Sébastein Haffner إلى مخاطرها انطلاقاً من تجربته كطالب. عندما أنهى سيباستيان دراسة

(1) المينيتيل هو جهاز شبيه بالحاسوب مزود بشاشة عرض ولوحة مفاتيح يتم وصله بخط الهاتف للحصول على معلومات - المترجم.

الحقوق، تمّ تجنيده في معسكر تدريب نازي، أخذ يصف النعيم المخيف "لصداقة" خُلقت للقضاء على كل معالم التفرّد والمسؤولية الشخصية. لا تتعدى روح الجماعة بالنسبة إليه عملية تناول المخدر الذي يقتل التفكير والضمير الحي لإنسان ما. فعند المساء تعكف هذه المجموعة في مهجعها على أحاديث يحفها الفحش وتسخر من قصص الحب وتدنس جسد المرأة. وبشكل عام، "الجميع يعتبرون أنفسهم مبرئين طالما يأتي تصرفهم مطابقاً لتصرّف الآخرين". في كتابه "اعترافات" أقدم القديس أوغسطين على نكر حديث مشابه. لا تملك النساء هذا النوع من التجارب، حتى لو تمّ اقتيادهن إلى أشكال من الهمجية الجماعية كالتي عشنها في معسكرات الاعتقال. لا يوجد أي سبب لإسباغ صفة الكمال على النساء، لكنهن كنّ دوماً أقل حباً "للحياة المشتركة"، حتى اعتبرهن هيغل وهو يفكر بأنتيغون "مصدر سخرية للجماعة".

– وفي نص أقل ماساوية، نجد أن نسبة 17% من النساء فقط يشغلن مناصب إدارية في شركات كبرى، بينما يمثلن نسبة 47% من الأفراد العاملين. هل أنت من أنصار نظام الحصص للنساء في مجالس الإدارة؟

– نعم. لقد حقق الرجال حتى الآن فائدة من "التمييز الإيجابي"، آن الأوان لقلب الموازين لصالح النساء، على الأقل حتى يتم القضاء نهائياً على التمييز بين الجنسين!

لسنا أكثر مهارة في غسل الأطباق

– ألا يجدر بنا إدخال التعديلات على توزيع الأعباء المنزلية التي تقع على عاتق المرأة وتثقل كاهلها من دون الرجل، وذلك لحثها على البحث عن مناصب ذات مسؤولية على غرار الذكور؟

– لا نزال بعيدين جداً عن توطيد أسس التكافؤ الخاص بالأعمال المنزلية! عندما كانت سيمون دو بوفوار تدعو النساء ليخرجن من غربتهن، كانت تخطط لإقحامهن في عالم الرجال للعمل إلى جنبهم، فقد سبق لهن إثبات وجودهن في الريف والمعمل. ولحسن الحظ خرجت النساء من منازلهن، لكن عند عودتهن في

المساء كان بانتظارهن يوم عمل آخر، وإلى اليوم تقول المرأة التي وجدت من يساعدها في الأعمال المنزلية:" الإنسانة التي تساعدني في المنزل " ولا تقول "التي تساعدنا".

– من أين نبدأ لتغيير هذا الواقع؟ هل نبدأ من التربية؟ إن متطلبات الأهل من أولادهم تختلف بين الذكور والإناث.

– هنا يتدخل العقل الباطن للأهل الذي يلعب دوراً هاماً في نقل المعلومة إلى جانب الإرادة. تصلنا النماذج فنعمل على نسخها رغماً عنّا متأثرين بطريقة تربيتنا وتكويننا. تعترف الأمهات في كثير من الأحيان بأنهن لا يعاملن أولادهن وبناتهن على قدم المساواة: إذ يطلبن من بناتهن بعفوية تامة أن يغسلن الأطباق ولا يطلبن ذلك من أولادهن. علماً أننا لسنا أكثر مهارة في تنظيف الأطباق! يجب أن نغير ما بأنفسنا قبل أن نصبو إلى تغيير الأجيال الشابّة. أثبتت بعض التحقيقات أن الأعمال التي لا يمانع الرجال في إنجازها تنحصر في إلقاء القمامة وفتح الزجاجات. لماذا القمامة بالتحديد علماً أنها لا تنضوي على أي مظهر من مظاهر النبل؟ على كل حال، هذه المهام التي يقبل بها الرجال لا تأخذ من وقتهم أكثر من دقائق. فالرجال يرفضون القيام بأعمال التنظيف التي يعتبرونها مملة وتستهلك منهم وقتاً طويلاً.

– أظهرت الإحصائيات الأخيرة التي أجريت في فرنسا أن نسبة النساء اللاتي يقمن بكي الملابس تبلغ 80%، واللاتي يقمن بتحضير الطعام 70%...

– تتولى النساء أهم الأعباء التقليدية سواء المنزلية منها أو تلك التي تنجم عنها مسؤولية معقدة، ونذكر على سبيل المثال العناية بالأطفال، وتنشئتهم، ومتابعة الأمور العاطفية والمدرسية والطبية... مطلوب إذاً إعادة هيكلية النظام بأكمله: البيت / العمل، الداخل /الخارج، الخاص /المهني... لذا نجدنا بحاجة ماسّة إلى عالمات متخصصات في الاقتصاد، وذلك لأن النظريات في هذا المجال تحمل بصمة الرؤى الذكورية. وعلى غرار الحقوق السياسية، عملت الهيئة الاقتصادية على تهميش الأعمال المنزلية التي تؤديها النساء، تاركة الشيء القليل للأعمال التي يتقاضين عليها الأجر: لا زلنا نشهد حتى يومنا أن الأجور التي تتقاضاها النساء الفرنسيات أدنى بنسبة 25% من الأجور التي يتقاضاها الفرنسيون للعمل ذاته. وقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن النساء "لا يقمن بأي عمل في البيت". وأن عملهن الذي

يقمن به من دون مقابل مادي هو أمر طبيعي وفرعي ولا يدخل في الهيكلية الاقتصادية من حيث أن المرأة تقوم به في خدمة عائلتها، يجب أن نقر أن التقنيات الحديثة المتطورة دخلت إلى المنزل وأحدثت تراجعاً في كمية الأعباء المنزلية.

– فلتحيا الأدوات الكهربائية!

– ومع ذلك، لا يزال هناك جزء لا بأس به من الاقتصاد المنزلي يعتمد على تفاني الزوجات والأمهات، ومن المحال إدخاله في بوتقة التغيير دون المساس بوضع الرجال الراهن، فهذا يرتبط بذاك. يجب إجراء التعديلات على طريقة عيش الرجال، سواء في الدائرة المهنية أو المنزلية. ويبدو أن علم الاجتماع لم يتوقف عند هذا الجانب من الأمور. يُبدي جيل ليبوفيتسكي Gilles Lipovetsky على سبيل المثال تعجبه من ثقل سلوك النساء الذي يؤثر سلباً على نجاحهن المهني لصالح الرجال، ولم يخطر بباله أن يتعجب من استمرار ممارسة الرجال لعاداتهم القديمة. يعتقد أن "القائد في المذكر لا يتطلّب أي تضحية من قِبل الأب". وهو مخطئ في هذا – فالآباء يضحون بالكثير في بعض الأحيان – كما أنه لا يأخذ بعين الاعتبار احتمال تغيير دور الآباء. فكيف نتطلع إذاً إلى إدخال التغيير على دور الأمهات؟ طرح علماء الاجتماع أثناء المؤتمر الذي عقدوه في النرويج، قضية:" كيف يمكن للرجل أن يقيم توازناً بين دوره كأب ومزاولة عمله؟" هذا السؤال بحد ذاته يحرّض على الثورة!

امرأة في المنزل

– هل يحتاج الرجال والنساء الذين يعملون خارج المنزل إلى امرأة تساعدهم في الداخل؟

– لا أزال أذكر أنني في بداية عملي كأستاذة كنت دوماً أردد في نفسي:"لو كان عندي امرأة في المنزل تساعدني في التسوّق وفي إعداد طعام العشاء، وتعطي الملابس للمصبغة لكيّها... لكان بمقدوري التعمّق في هذا العمل، أو المجاهدة في ذلك الحزب..." حتى في سلك التعليم، الوسط الأكثر ملاءمة للنساء، كنا نلاحظ اختيار الرجال للصفوف الإعدادية أو التعليم الجامعي في حين كانت النساء يفضلن المستويات التي لا تحتاج إلى بذل الجهد في المساء لدى عودتهن إلى المنزل.

– هناك دوماً "امرأة في المنزل" في الطبقات ذات الامتيازات، لكنها ليست ربة العائلة...

– هناك نساء مأجورات في هذه الأوساط يزاولن جزءاً من الأعمال المنزلية: كخادمة البيت والحاضنة التي تعتني بالأطفال في غياب ذويهم... كما أن هناك جزءاً من الأعمال يتم خارج المنزل: كصاحب المصبغة وصاحب المطعم، إلخ. مما يشير إلى أن الأعباء التي كانت المرأة تقوم بها بالمجان على مر العصور تحتاج إلى اختصاصات عدة. اعتقدت سيمون دو بوفوار أن الأعباء المنزلية ليست سوى أعمالٍ غبية ومنفّرة وكأن كل ما يتم عمله في الخارج يدعو إلى الابتهاج. كان جل اهتمامها ينصب على حياة المفكرين والفنانين ولم تكن تهتم بحياة المرأة التي تعمل أمينة صندوق في متجر كبير. هل يُعتبر كي الملابس من الأمور الغبية أو المحقِّرة؟ وهل يجب إعطاء مكافأة مالية لمن تعتني بتربية الأطفال لمجرد أنها تحمل الشهادات اللازمة بينما تفقد المرأة من قيمتها إن هي اعتنت بتربية أطفالها في المنزل؟ علينا التخلص من هذه المفارقات التي تجرد الأعمال التي تتم داخل المنزل من أية قيمة. إنني لا أقول هذا تشجيعاً مني على عودة المرأة إلى المنزل، لكن لأبرز التناقض في التقييم الذي كان سائداً في الماضي "لربة المنزل" والذي كان ينطوي على الرياء وسلب المرأة حقها في نظرة المجتمع إلى عملها. المهم في الأمر هو اعتبار أي عمل تقوم به المرأة على أنه عمل اجتماعي وأن يشارك الأبوان في تربية أطفالهما.

– لكن المشكلة لا تزال قائمة بالنسبة لخادمات البيوت ومربيات الأطفال: فبالإضافة إلى عمل هؤلاء النساء خارج المنزل لا يوجد من يساعدهن في الداخل. وكأن لعبة التنظيف تسلّم لمن هو أدنى درجة: الأزواج يعطونها للزوجات، والنساء من الطبقات الميسورة يعطينها للنساء من الأوساط الأكثر تواضعاً...

– هذا صحيح. لقد تحولت القضية إلى مشكلة طبقات أكثر من كونها مشكلة أجناس. ربما يجدر بنا عدم وصم هذه الأعمال "بالمنزلية" وتحويلها إلى مهن كباقي المهن، فلا نحقرها ولا ننقص من قيمتها.

نحتاج إلى الوقت من أجل التربية

– إضافة إلى الأعباء المنزلية الحصرية، يبقى هناك سؤال ملحّ: من يعتني بالأطفال وبتربيتهم عندما يخرج الآباء والأمهات إلى العمل، وكيف يتم ذلك؟

– ليس لديّ خبرة معيّنة لأجيبك عن هذه المسألة. لكن يجب توجيه هذه الأسئلة إلى المجتمع برمته. إن تربية الأطفال هي قضية جوهرية لمستقبل أمتنا، ويجب إقحامها ضمن متطلباتنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. إننا عندما نعجز عن توفير الوقت اللازم لأطفالنا فإننا نحصل على نتائج وخيمة. علينا إعادة ترتيب أمورنا والاعتراف بأن المجتمع يحتاج إلى الأطفال كما يحتاج إلى الوقت الكافي لتنشئتهم. كما يجب الإقلاع عن اعتبار النساء كائنات معاقة مهنياً لمجرد إنجابهن للأطفال. كيف سيكون شكل مجتمع غاب عنه الأطفال؟ أين سينتهي به الأمر؟ كلا يجب الامتناع عن اعتبار الطفل مشكلة خاصة بالنساء.

– يجب تضافر جهود النساء للتوصّل إلى إعادة تنظيم الهيكلية التي تتوقين إليها.

– علينا توحيد البنى الجماعية والخاصة بإنشاء دور حضانة تابعة للمؤسسات الكبرى، ومنح الإجازات للأهل... ليس لدينا في فرنسا أعداد كافية من دور الحضانة، مع العلم أننا متقدمون على جيراننا. ففي ألمانيا، فُرض النموذج الأمومي الذي يمثّل الصدى البعيد للمثلث المشؤوم (أطفال، كنيسة، مطبخ). وإلى اليوم لا زالوا يفتقرون إلى دور حضانة، أو مدارس حضانة، بل وحتى المطاعم داخل المدارس. ولا ننسى موضوع انصراف الأطفال من المدارس الذي غالباً ما يُحدد بالساعة الثالثة من بعد الظهر. هنا تنقسم النساء إلى فئتين مختلفتين: الفئة التي تعمل خارج المنزل، الناجحة في مهنتها ولذلك نراها على استعداد تام للتخلي عن فكرة الإنجاب، والأم المستعدة للتضحية باستقلاليتها.

– إن تربية الأطفال لا تحتاج إلى شيء آخر غير تحسين الهيكلة الجماعية.

– يحتاج الآباء إلى كل ثقافتهم، إذ لا تقتصر التربية على تقديم الغذاء والعناية بالطفل بل تتعدى ذلك إلى مرحلة نقل القيم الأخلاقية والجمالية، كما تحتاج إلى المشاركة في الخبرة الرياضية والنزهات والمسارح والسفريات: فهل ينوي الآباء العدول عن كل تلك الأمور؟

مثلما للرجال...

– إذا كانت النساء يعانين من بلوغ مراتب السلطة الاقتصادية، فإنهن يجدن صعوبة أكبر

فيما يتعلق بالسلطة السياسية. نعلم جيداً أن لك باعاً طويلاً في الدفاع عن قانون التكافؤ ولا زلتِ حتى الآن. ألا تعتقدين أننا يجب أن نكتفي بوجود مبدأ المساواة في الحقوق بين كل المواطنين؟

– دعينا نتكلم بلغة الأرقام: في عام 1945، عندما استطاعت النساء مزاولة حقهن في التصويت وأصبحن أهلاً للانتخاب، بلغت نسبة المنتخَبات في الجمعية الوطنية 5.6% لترتفع الحصيلة عام 1993 إلى 6.1%... في عام 1997 بلغ عدد المنتخَبات 10.9% وذلك بعد أن شرع الحزب الاشتراكي بتخصيص 28% من الدوائر الانتخابية لصالح النساء. وبعد مضي خمسين عاماً على تحرر المرأة السياسي لا تزال القوانين تصدر عن جمعية تَعُدّ 90% من أعضائها من الرجال. يضعنا هذا الموقف في مؤخرة الدول الأوروبية علماً أن معاناة بعضها يفوق معاناتنا من حيث سيطرة الذكور على الإناث في مجتمعاتها. يجب الإقرار بوجود ثغرة في مكان ما، حتى إن المناوئين للتكافؤ اعترفوا بذلك. في الواقع لم يتوقف الرجال عن احتكار السلطة رغم استتباب المساواة في الحقوق. لذا يتوجب الخوض في أعماق هذا الاحتكار لإدخال التعديلات عليه.

– هل توافقين رأي أولئك الذين يقولون إن على المواطن التخلّي عن جنسه وطائفته ودينه؟

– أود أن أوضح لك استحالة إجراء مقارنة بين الجنس من جهة والطائفة أو الدين من جهة أخرى. فالطوائف ما هي إلّا أساطير، وتركيبة شبه علمية وجدت لحصر الكائنات البشرية ضمن هوية طبيعية غير قابلة للتغيير. بينما وجدت الديانات على أساس الإيمان والعبادات المشتركة، إنها طرق لفهم العالم ولإضفاء معنى على الوضع البشري بما فيه الوضع الجنسي. يعتمد التمييز بين الجنسين على تقسيم إنساني يعتمد على الفكرة القائلة بأننا أناس نولد ونحيا ثم نموت ونتوالد بالجنس. هذا التمييز أمر عالمي أو إذا شئت أمر طبيعي بمعنى أنه إذا اتصل بالأجيال فإنه يعمل على تكييف الثقافات والحضارات التي تتسلط عليه وتترجمه (كالموت، والشيخوخة والطفولة). لكن لنعد إلى المواطن ولنراقبه من خلال تاريخه. فالديمقراطية منذ العصور القديمة وحتى أشكالها الحديثة ليست سوى مؤسسة سياسية، أي مؤسسة الحقوق الذكورية حصراً، وطائفة من "أرباب الأسر". بمعنى أن المساواة الديمقراطية نشأت بين المواطنين على أساس المساواة بين الرجال.

– في العام 1835، عندما ألّف ألكسي دو توكفيل Alexis de Tocqueville كتابه عن "الديمقراطية في أمريكا" لم يخطر على باله ولو لهنيهة أن تحصل النساء على حقوقهن المدنية، وهنّ الخاضعات لرب العائلة في المفهوم الضيق...

– أبدى توكفيل إعجابه بالنساء الأمريكيات اللاتي قمن "برسم خطوط عمل منفصلة بوضوح للجنسين، وأردن أن يمشي كل من الرجل والمرأة بخطىً متساوية لكن في طريقين مستقّلين. إنكِ لن تلتقي بامرأة أمريكية تدير القضايا الخارجية لأسرتها، أو تعقد صفقات تجارية، أو تتدخل في المجال السياسي". لا يمكن أن نعتبر أن توكفيل يناصب العداء للمرأة أكثر من غيره، إنه يكتفي بوصف الديمقراطية كما هي. واستمر الوضع في فرنسا برفض منح النساء الحق في التصويت بحجة أن للمواطنين الذكور وحدهم الحق في اختيار ممثلين عن البلد. لكن غياب النساء عن الدائرة الديمقراطية نتج عن تبعيتهم في الوسط العائلي الخاص: فعندما نجعل من النساء مواطنات متساويات في الحقوق مع المواطنين فإن هذا الأمر يتعارض مع سلطة الزوج. من هنا ظهرت الفكرة التي أُعلن عنها عام 1846 وتم تبنيها مرة أخرى عام 1901 القاضية بعدم منح حق التصويت إلّا للنساء اللاتي لم يسبق لهن الزواج أو للنساء الأرامل! لقد كان لتبعية المرأة ضمن عائلتها، التي أكدها قانون نابليون المدني، الشرارة الأولى لإقصاء المرأة عن الدائرة العامة والدائرة السياسية الديمقراطية التي تنادي بالمساواة.

– لم يتحسن الوضع بالنسبة للمرأة بعد حصولها على المساواة في الحقوق، إذ إنها لا تزال تجد العراقيل في طريقها لاعتلاء المناصب السياسية. ألا تشكل المساواة مع ذلك خطراً على شمولية الجمهورية؟

– إنها شمولية خدّاعة، فهي تلجأ من حيث الوقائع إلى تمثيل الجنس البشري من خلال جنس واحد ألا وهو الرجل. تمارس هذه الشمولية "تمييزاً عنصرياً إيجابياً" لصالح الرجل. وما يطلق عليه بعضهم تسمية "اللاتمييزية" التي تتمثّل بالمواطن الحيادي إنما هي فكرة تعمل على تخليد مفارقة الحياد الرجولي وتغطي استئثار الرجل بالسلطة. عندما نتوقف عن اعتبار الشمولية خاصة بالإنسان الذكر ونقرّ بأنها تتضمن أيضاً المرأة كأنثى، يجدر بنا حينئذٍ أن نعيد التفكير بالديمقراطية على أساس إقحام المرأة فيها؛ بتعبير آخر يجب إجراء تعديل على احتكار السلطة من قبل "الفئة" الذكورية، لكن بشرط ألا يتم ذلك على اعتبار أن النساء يشكلن

مجموعة خاصة بهن (دينية، لغوية، ثقافية أو إقليمية على غرار سكان جزيرة كورسيكا وبريتانيه في فرنسا) بل إنهن مجموعة من البشر تنفرد إلى جانب الرجل بتشكيل ما يعرف بالشعب. وبما أن الرجال والنساء يمارسون السيادة الوطنية جنباً إلى جنب، فإننا لم نعد بحاجة إلى إضافة تعريفات أخرى، فالكل معني بالأمر.

– حسب رأي إليزابيث بادنتر Elizabeth Badinter لم نلجأ إلى الفوارق لكي نقوم "بإقحام" المرأة. إنها تبدي أسفها، إذ بعد أن تمّ إقصاؤهن كنساء، عُمد إلى إدخالهن... كنساء أيضاً وليس كأفراد شموليين.

– تعود فكرة إقحام المرأة في الشمولية الحيادية (التي لا تحمل هوية الذكر ولا الأنثى) إلى تاريخ قديم، عَبّر عنها القديس بولس حيث قال إن جميع المسيحيين متساوون أمام الله (لا يوجد يهود ولا يونان ولا عبيد ولا أحرار ولا رجال ولا نساء). نعود ونذكّر: إننا نتحدث عن المساواة أمام النعمة الإلهية وليس ضمن العائلة أو المجتمع. قمتُ بتحليل هذه اللحظة الجوهرية في تاريخ الشمولية المسيحية في كتاب حمل عنوان "ما وراء طبيعة الجنسين". فمنذ تلك اللحظة نستطيع أن نبيّن أن الحياد الجنسي بهيئته المجردة يُطَبَّق لصالح أحد اللفظين من دون الآخر. لماذا؟ لأن الاختلاف بين الجنسين سواء في الفكر القديم أو الفكر المسيحي لم يتناول سوى اختلاف المرأة بالنسبة للنموذج الذكوري، ولم ينتج وجود الجنسين إلّا من جراء الانشقاق عن الرجل الذي تتحدث عنه الأساطير، سواء الأساطير القديمة أو قصة خلق آدم، الرجل الأول الذي خُلقت منه أول امرأة على الأرض. فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار رواية الأصل البشري الوحيدة فإننا لن ندرك التركيبة المركزية الذكورية للاختلاف بين الجنسين كما أننا لن ندرك تحوّل المرأة إلى جسدها الذي هي عليه اليوم.

– نستخلص من هذا أن المرأة هي التي تختلف عن الرجل؟

– نعم وليس العكس. يكتفي الرجل بتشبهه للآلهة. ففي إطار تمييز الجنس البشري، وفي إطار العلاقات بين الرجل والمرأة، تبدو لنا الأسطورة الخيالية التي تقدّم خَلْق الإنسان القوي والحيادي "والذي لا يزال غير مبالٍ" على خَلْق المرأة. من هنا تأتي المفارقة في اختلاف المرأة وتميّزها، بينما لا يُنظر إلى الرجل على أنه

إنسان مختلف، فهو لا يختلف عن أحد. إنه فقط ذاك الإنسان (بشكله المتناقض الرجولي والحيادي). هذا الاستواء أو هذا الحياد الذكوري الأصلي يفسر سبب عودتنا إلى النموذج الذكوري عندما نريد أن نزيل الاختلاف بين الجنسين. أما قول النساء اللاتي يؤكّدنَ "أننا لا نختلف" يقودنا إلى القول: "نحن رجال كالآخرين وندخل في بوتقة النموذج البشري الأوحد". لهذا السبب يقودنا هدم هذا الخيال إلى القول بأن البشرية ليست حيادية أو لاجنسية، بل إنها جنسية عموماً، كما ورد ذلك في الرواية الأولى من سِفْر التكوين (التي جاءت متناقضة مع الرواية الثانية):" الله خالق البشر، ذكوراً وإناثاً". عندئذٍ فقط يبدو الاختلاف ثنائي الوجه، أما الرجولة فهي تعريف معادل "للأنوثة"، لا أكثر ولا أقل. تلقيتُ منذ فترة وجيزة دعوة لإجراء مقابلة تدور حول هذه المشكلة: "بماذا تختلف المرأة عن الرجل؟" لكن أحداً لم يسأل: "بماذا يختلف الرجل عن المرأة؟" وبسبب عدم تخلصنا من الأساطير، لا زلنا سجناء لهذا الوهم ولـ"تصفية ما وراء الطبيعة للجنسين"، فالرجل يُعرف بعقله، لأن خالقه هو الله، وتعرف المرأة بجسدها إذ إنها خُلقت لتمنح الرجل أطفالاً. لا يمكننا إدراك اللغة الحديثة من دون تحديد مصدرها.

المساواة والمشاركة

– دعينا نسترجع مراحل الإصلاح الهامة التي تناولت موضوع المساواة. تُعد أوروبا هي الأخيرة في إجراء الإصلاحات، غير أن فرنسا سجلت تقدماً ملحوظاً، في مجال القوانين على أقل تقدير.

– يسير تاريخنا بصورة متقطعة في معظم الأحيان، لكن الفرنسيين أدهشوا العالم هذه المرة. ففي عام 1996 وقّعتْ مجموعة من النساء سلكن طريق السياسة، نذكر من بينهن سيمون فيل وإيفيت رودي وكاترين تاسكا وميشيل برزخ وإيديث كريسون، على "بيان من أجل الحصول على المساواة". فكان عام 1999 شاهداً على إدراج البند التالي على المادة الثالثة من الدستور والذي ورد فيه:" يَسمح القانون للرجال والنساء على حد سواء بدخول الدائرة الانتخابية والمشاركة في المهام الانتخابية." لم يرد في الدستور ما يشير إلى إقامة المساواة (خاصة وأن رئيس الجمهورية شيراك رفض هذا اللفظ) لكنه سمح للمشرّع بتيسيرها. وبالنسبة

للاقتراع على القوائم[1] (الخاصّة بالبلديات والأقاليم ومجالس الشيوخ الأوروبية وانتخابات جمعية كورسيكا) فرض القانون الذي تم التصويت عليه عام 2000 أن تتقدّم الأحزاب السياسية بلوائح تضم أسماء المرشحين وفق مبدأ المساواة المتناوب (أي أن يتعاقب المرشحون رجل لامرأة، وهكذا على التوالي). أما بالنسبة للانتخابات الإقليمية والتقسيمات الإدارية التي يتجاوز تعداد سكانها الثلاثة آلاف وخمسمئة نسمة، يجب أن تكون القوائم متعادلة التمثيل وفق شرائح تضم ستة أسماء، أي يجب أن تحوي القائمة المؤلفة من ستة مرشحين أسماء ثلاثة نساء، تلافياً لورود أسماء النساء في نهاية القائمة فيفقدن بذلك فرصة النجاح في الانتخابات. ويتم ببساطة رفض اللوائح التي لا تلتزم بهذه القواعد. أما على الصعيد المحلّي، فقد ظهرت النتائج بسرعة، ففي عام 2005، بلغت نسبة عدد المستشارات الإقليميات 47.6% من المجموع العام، ليرتفع في عام 2010 إلى 48%.

– لا يبدو الأمر رائعاً عندما يتعلّق بالاقتراع الذي يحوي اسماً واحداً فقط في الجمعية الوطنية أو الجمعيات الخاصّة بالتقسيمات الإدارية.

– بالفعل. تتعرّض الأحزاب التي لا تحترم نظام التكافؤ بصورتها الكاملة في السلطة التشريعية إلى عقوبات تتجسّد بتقليص الدولة لدعمها المالي بما يتوافق والمخالفة القانونية. يُحتسب المبلغ بما يتلاءم مع الترشيح وعدد المنتخبين، إذ من الممكن ترشيح عدد كبير من النساء في دوائر انتخابية خاسرة مسبقاً. غالباً ما تفضّل الأحزاب السياسية دفع الغرامات بدل ترشيح عددٍ كافٍ من النساء! في عام 2007 لم يتجاوز عدد النساء اللاتي انتخبن في الجمعية الوطنية 18.5%. هذا ما يضعنا بالنسبة للترتيب بين نيكاراغوا وغينيا الاستوائية حسب ما ورد في مرصد التكافؤ. أما حزب المعارضة اليميني فكان أقوى من حزب المعارضة اليساري، إذ بلغ عدد النساء الفائزات في الانتخابات من الحزب الاشتراكي 25.6% عام 2007، مقابل 14.5% في اتحاد الحركة الشعبية. وفي الجمعيات الخاصة بالمحافظة (التي تم انتخابهن في الاقتراع الأحادي الاسم)، بلغت نسبة النساء 12% فقط. قد تشهد عملية إصلاح انتخابات المستشارين الإقليميين (الذين يشملون مهام المستشارين العموميين والإقليميين) كما هو الأمر في لعبة الإوزة، تراجعاً في منزلة النساء، بما

(1) اقتراع القوائم: ينص هذا النظام على تقسيم البلاد إلى دوائر انتخابية- المترجم.

أن 80% من المستشارين سيتم انتخابهم في الاقتراع الأحادي الاسم مقابل 20% في التصويت على القوائم.

– يمكننا استخلاص أن الأمور تجري ببطء شديد في هذه الحالة...

– على العموم، لا تتجاوز نسبة النساء في مجلس الشيوخ 22%! وكل الدلائل تشير إلى تبرّم الأحزاب من الانفتاح أمام النساء. علماً أن هؤلاء النسوة أبدين استعدادهن للالتزام، كما أبدى الناخبون جاهزيتهم لمنحهن الأصوات، إذ إن تبوؤَهن للمناصب الرفيعة بات وضعاً طبيعياً. إننا نذكر أنه في عام 2007، كانت هناك مرشحة حاضرة في الجولة الرئاسية الثانية، كما تحصل النساء في الحكومة على حقائب وزارية على قدر من الأهمية (في القضاء، والشؤون الاجتماعية، والداخلية، والخارجية والاقتصاد والمالية...). لكن يجب أن يستمر الضغط على رجال السياسية.

– على العكس من المحامين في النظام الشمولي الجمهوري المجرد، هناك من يتوجه بالملامة لعدم تضمين التمثيل المتعادل للأقليات في الحركة التي تنادي بالتكافؤ.

– مما لا شك فيه أن هناك أقليات تعاني من جراء التمييز العنصري بسبب انتمائهم العرقي أو الديني أو توجهاتهم الجنسية، أو إعاقتهم الجسدية أو العقلية، بل أحياناً بسبب عمرهم أو مظهرهم الخارجي. وهنا يأتي دور الدولة الجمهورية لمكافحة هذا التمييز الخفي. لكن يجدر بنا عدم خلط الأمور بين التمييز العنصري ضد النساء اللاتي يمثلن نصف المجتمع البشري – التمييز العنصري التاريخي الضخم الذي اقتحم كل الحضارات – وحركات المقاومة التي وقعت ضحيتها الأقليات. لكن هذا التمييز العنصري لم يكن عالمياً، كأن تكون هذه الديانة أو ذلك العرق أقلية مقهورة في بلد ما، وأكثرية ظالمة في بلد آخر. إنني لست ضد التنوع لكنه يؤدي إلى عدم الاستقرار في حين أن التشعّب رجل/ امرأة هي قضية ثابتة.

– في حال توصّل الرجال والنساء إلى اقتسام الساحة العامة، فهل سيساعد ذلك على إيجاد مكان للأقليات؟

– نعم، فالاختلاف بين الجنسين يساعد على فهم التعايش بين الناس. إنه لأمر طبيعي أن تسود لغة واحدة ويُعمل بقانون واحد في بلد واحد. لكن هذا لا

يستدعي وجود دين واحد أو أسلوب حياة متطابق. ففكرة الاختلاط والتنوع تُبْعِد خطر الوهم في النقاء والتجانس.

– هل تعتبر القوانين التي تم إصدارها في موضوع التكافؤ خطة مؤقتة؟

– من يدري؟ فالمفاهيم الفلسفية تساعد على إدراك الحقيقة في لحظة ما. إنها أدوات تحليل ووسائل عمل. لقد فُرِضَ مفهوم التكافؤ على أنه مثال ديمقراطي جديد. فالدولة التي يتم فيها إقصاء النساء عن السياسة لا تدخل في مصاف الدول الديمقراطية. قد يأتي يوم لا نحتاج فيه إلى خطة التكافؤ هذه حيث يكون المجتمع قد تحوّل بحق إلى مجتمع مختلط. ولكن كم هي بعيدة تلك المسافات التي تفصلنا عن هذا اليوم!

يحيا الاختلاط!

– وماذا لو فقدت المرأة عاطفتها باعتلائها المناصب السياسية؟ أليس من الممكن أن تبتعد عن الفضائل التي نسبت إليها لفترة طويلة والتي تتمثّل بالحفاظ على الحياة، وحماية الضعفاء؟

– لا أقاسمك هذا الخوف إذ لا حاجة للنساء لأن "يبقين نساءً"، فطاقاتهن الخاصة، إن وجدت، تنمو في هذه الدائرة الجديدة. عندما يُقبِل الفنانون والأدباء ومخرجو السينما على إكمال عمل ما، فإنهم لا يقولون في قرارة أنفسهم: "سأقوم بإنجاز عمل خاص بالرجال". يأتي هذا تلقائياً وتبعاً لخبرة كل واحد ولا ينتج عن نموذج موضّح مسبقاً. إني أفضّل شخصياً عدم التفكير بالموضوع، وليعتمد كل شخص على خبرته الذاتية البسيطة وعلى الجزء المشترك واللاشخصي لهذه التجربة. فالجِنسية ليست أمراً شخصياً.

– يؤخذ على النساء استغلال إغوائهنّ في مجال السياسة.

– ولم لا؟ فالرجال أيضاً يستغلون الإغواء في محاولة منهم للإيقاع بالنساء والرجال من حولهم على حد سواء. في كل الأحوال، لا يلعب الإغواء على وتيرة واحدة في الفعاليات السياسية أو المهنية: كالشجاعة مثلاً، فهي عنصر هام – والنساء لا يعجزن عنها. إني أعتقد أن الجماعات "أحاديات الجنس" تشكّل خطراً،

بينما يبدو الجنس المختلط أكثر تمدناً. تعمل النساء في السياسة على إغاظة زملائهن من الذكور لأنهن يحافظن على فرديتهن وصراحتهن. فإذا استطعن تأمين الحرية والحد من حركات الجسد عندئذ ستعم الفائدة. فالمرأة سريعة التأثّر بالطابع العرضي لبعض القضايا التي تتخطّى انشقاقات اليمين/ اليسار، وعندما تدخل المرأة حقل السياسة فإنها تكون على علم بقواعد اللعبة، وقد تساهم في تغييرها.

– هل يتجه الرجال إلى اتباع القائد في المجموعة "ذات الجنس الأحادي"؟

– إذا حاولنا الإحاطة بالميول الخطيرة لكلا الجنسين، يجدر بنا المبادرة إلى مراقبتهما عندما ينفصلان كل على حدة. تنقسم المجموعات الذكورية فيما بينها إلى سيد وأتباع، قائد وجنود، وجمعيات دينية، ويُطالَب هؤلاء بالطاعة العمياء. ففي البيئة الذكورية – كما في السياسة قديماً وفي الجيش وفي سلك الشرطة والمؤسسات الدينية شاهدنا تطوراً في تصرفات تنم عن خضوع جماعي يدعو إلى القلق بل يصل إلى حد الفاشية. لقد سبق وتعرضّتُ لهذا الموضوع عندما أثرتُ مسألة "الصداقة". يتم تنظيم الهيكلية في المجموعات الذكورية حول القائد وأثناء الحرب (فالمنافسة الرياضية هي الوجه الحضاري: يكفي مراقبة تجاوزات المؤيدين وروح الفريق السائدة). كما لم تنشأ علاقة السيطرة/الخضوع بين الذكر/المؤنث، بل بين الذكر/الذكر، أي بين الرجال. فيما بعد بادر المسيطِر إلى إخضاع الرجال والنساء تحت إمرته، بينما فرض المسيطَر عليه سطوته على النساء تعويضاً منه عن موقفه الخاضع. هناك تضامن واضح وقوي بين الجنسية والفاشية. عندما تبادر ثُلّة من الفتيان إلى إساءة معاملة فتاة ما فتلك وسيلة تنتهجها الثُّلّة لفرض احترامها على باقي الصبية، للدلالة على أنهم هم المسيطرون وليست "المرأة"! لقد تمّ تجسيد هذه الآلية في فيلم حمل عنوان "جزاء الخوف" للمخرج كلوزو.

– وماذا بشأن الأوساط الأنثوية البحتة، كيف تسير الأمور فيها؟

– يتجلّى الدير كأفضل مثال للدلالة على المتاهات التي تضيع فيها المرأة نتيجة عزلتها: الهستيريا الجماعية، وتطرّف الفتيات الصوفي... يحضرني الآن الفيلم الرائع للمخرج آلان كافالييه بعنوان "تيريز" Thérèse. إنني على يقين أن النساء لا يسعين إلى العيش مع بعضهن. لكنني لا أزال مقتنعة بأن نزعة العنف الجماعي والمدمّر غير موجودة عندهن.

– هنا تطالعنا الأمثلة القاتمة في شخص الجندية الأمريكية ليندي إنغلند Lynndie England التي كانت تنتمي إلى فريق الجلّادين في سجن أبو غريب، في العراق، أو الانتحاريات.

– هذا صحيح، ولكنها تدخل في نطاق الحالات الاستثنائية. هناك حالات لفتيات يمارسن الرعب أو يرتكبن جرائم القتل، كما أُدينت بعضهن باللجوء إلى العنف الجنسي. ولكن كم يبلغ عددهن مقابل القتلة من الرجال وأولئك الذين يمارسون الجنس مع الأطفال أو الذين ينتهكون أعراض الفتيات؟ إلا أن الحالات الاستثنائية لا تعيد طرح النزعات الخطيرة. ومن العبث أيضاً محاولة تعريف الاختلاف بين الجنسين وتجميده أو اللجوء إلى إنكاره. في المقابل، إني واثقة أن الحضارة بالتقدّم الذي تحرزه، ستتطرق إلى موضوع الاختلاط. يمكن للخصم الأنثوي الذي يهتم بالحياة أكثر من اهتمامه بالحرب والموت أن يحد من العدوانية الذكورية. كما تستطيع الثقافة أن تدفع بالمرأة إلى التجديد وإلى خوض المجازفات. سنجني الكثير من خلال العيش المشترك.

الفصل العاشر

إعادة هيكلة العلاقة الزوجية

لا نزال ننتمي إلى الثدييات

– **نيكول باشاران:** إنك ترافعين عن الاختلاط الحقيقي في مجال الحياة العامة. لكن ما هي أبعاده في الحياة الخاصة والحميمية؟ ألا يفرض علينا كلٌ من التحكم بمنع الحمل والتقدّم في العلوم في مجال الإخصاب إعادة التفكير في دور الأجسام الذكورية والأنثوية بحد ذاتها؟

– **سيلفيان آغاسينسكي:** عندما نثير موضوع الحضارة في مجال التكافؤ، فإننا نفكر بشكل خاص بالمساواة في تقاسم الأعباء واحتراف المهن واعتلاء المناصب الرفيعة ... لكننا ما إن نتعرّض لقضية الجسد ووظائفه حتى نجد أنفسنا في عالم بعيد عن التجانس. إن اختلاف التكوين الجسدي بين الرجال والنساء حقيقةٌ جليّة. يكمن الرهان في المضي قدماً في اتجاه الحرية والمساواة مع استمرار التفكير في عدم التناسق. يتبلور الاختلاف بين الجنسين بمعناه الحرفي في عملية الإنجاب والحياة الجنسية. قال أفلاطون في كتاباته بأن عدم التجانس "متعلّق بالأجيال". يستطيع كل إنسان أن يغير من جنسه، ويوجّه رغبته نحو هذا الجنس أو ذاك. أما عملية إنجاب الطفل فإنها تحتاج إلى خلية ذكرية وأخرى أنثوية. إننا ننتمي إلى عالم الثدييات حيث تحمل الأنثى صغيرها في أحشائها بينما يطرح الذكر صغيره خارج جسده. مع ذلك، تساهم العلوم والتقنيات في إدخال التعديلات على الأجسام من دون المساس بهذا الاختلاف. فالجسد لا يعيش أبد الدهر، إنه يخضع

لتاريخ محدد. لقد شهد الغرب تقارباً في الأجساد لدى الجنسين منذ أن عملت النساء على التحكم بعمليات الإنجاب وتغير جسد المرأة كما تغير جسد الرجل. وبفضل التقدم التقني والمساواة، تراجعت حدة الانقسام الجنسي على صعيد العمل، وارتاح الجسد من عناء الأعمال الشاقة، كما أنه أصبح أكثر رشاقة.

– نستطيع أن ننوه هنا بشكل عابر أن النساء والرجال لا يتساوون في الرياضة. نعلم جيداً أن الفتيات اللاتي يشاركن في المباريات يواجهن مخاطر نوعية (اختفاء الطمث، وهشاشة مبكرة في العظام).

– لا يستوي النساء والرجال في موضوع الرياضة، لذا لا يشتركون في نفس المباريات. وكذلك الأمر بالنسبة للإصابات التي قد تنتج عن الرياضة فإنها تختلف بين الرجل والمرأة. فالمساواة لا تشترط التطابق في كل الأمور.

– يعمل الطب إلى جانب الجراحة في إحداث تغييرات في الجسم، وأصبح بإمكانهما التلاعب بالاختلافات.

– لقد تقدم الطب حتى أصبح بإمكانه إعادة تنظيم الاختلاف بين الجنسين، ووصل الأمر إلى حد إجراء تبديل في الجنس أي إدخال تعديلات على وضع الجنس. أعتقد مع ذلك أن جوهر وجودنا يحدث باتصال الجنسين كما أن حياتنا فانية. لا أحد ينجو من هذه النهاية الحتمية. ولم يُطرح الموضوع مجدداً في حالات ولادة أطفال مخنثين وهي حالات، كما سبق لنا بيان ذلك، يعاني منها أصحابها ولكنها تبقى حالات نادرة. تبدو لي فكرة تغيير الجنس طعم اصطناعي ابتكره بعض الأطباء وعملوا على رعايته. لا أنكر وجود أشخاص يعانون من جنسهم ومن تكوين جسدهم. هناك آلام جسدية بليغة يصعب استيعابها كما يصعب علاجها. فهل يأتي الحل عن طريق الجراحة؟ تبقى التغييرات التي يَعِد بها أطباء الجراحة سطحية. نعم، قد يشبه المرء، إلى حد ما، رجلاً أو امرأة بعد إخضاعه لعمليات جراحية معيّنة ولمعالجات هرمونية. لكننا ندرك تماماً صعوبة الأمر، وإلى أي مدى تبلغ مقاومة الجنس. إضافة إلى ذلك، تتسبب عمليات تغيير الجنس بالعقم لدى الأشخاص الذين يخضعون لها. قد ينجح الطب الجراحي في تصنيع الأثداء والمهبل، وقد يستطيع أطباء الجراحة تصنيع قضيب الرجل لكنهم يبقون عاجزين أمام عملية الانتصاب (حيث تكون بنية القضيب صلبة فيبقى بوضع مستقيم، أو يلجأ الجراح أحياناً إلى حقنه بالهواء). يظهر الأشخاص الذين عمدوا إلى تغيير جنسهم بصورة جنس وهمي.

– إننا لا نسعى إلى خلق الاضطراب في وضع الجنسين، لكننا نعتقد أن الجراحة التجميلية – وبشكل خاص تلك المتعلّقة بالشكل الخارجي – تسهم في تعديل جسد الرجال بل وجسد النساء أيضاً.

– يعترف الأطباء الشرفاء أن تحليل صلاحية الطلب في هذا المضمار وإمكانية تنفيذه تبقى قضية بالغة التعقيد. فلماذا لا نعالج التشوه الحقيقي عندما يكون الأمر متاحاً، أو في بعض الأحيان لماذا لا نعمل على تحسين مظهره؟ لا تخلو الرغبة في تحويل الجسد من ضغوطات اجتماعية منفّرة، حيث تمارَس هذه الضغوط من خلال فرض قواعد جمالية على الأفراد وبخاصة على النساء. ففي المجتمعات التي يقتصر فيها الجسد على صورته، يُحظّر على صاحب هذا الجسد أن يبدو عجوزاً أو ضخماً. لقد ظهرت نماذج صريحة تمارس سيطرة شبه مستبدة تتجاوز من بعيد قيود الأزياء القديمة. تبدو الصحة والجمال حجتين قويتين لتحقيق الكسب الوفير في التجارة – فهناك تجارة مساحيق التجميل، وتجارة المستحضرات المتممة للجمال كمعاجين الأسنان والشامبو، وتجارة المواد التي تدخل في العناية بالجسد وبالمعالجة من الأمراض والتي تدخل فيها الجراحة التجميلية، إلى جانب هذا هناك الأجهزة التي تحافظ على الرشاقة أو التي تعتني بإذابة الشحوم في بعض المناطق من الجسد. الكلّ مطالبٌ بإبراز جسده ليلبّي المقاييس، وليكون جسداً غير قابل للفناء، لائقاً من الناحية الجمالية بل ولائقاً من الناحية العرقية أيضاً. شهدت باريس وغيرها من الدول تداول مستحضرات خطيرة خاصة بتبييض البشرة السوداء الداكنة على أمل التوصّل إلى مراتب اجتماعية أفضل، في حين يُعدَّل لون البشرة الشاحبة ليصبح برونزياً من خلال جلسات الأشعة فوق البنفسجية التي يتعرّض لها الإنسان المعني ولا تخلو من المخاطر هي أيضاً. فمن جهة هناك العرقية البيضاء المركزية ومن جهة ثانية هناك معايير الجمال لطبقة مميزة، كل ذلك يشكّل ضغطاً على الأفراد.

مجرد مورّدين للخلايا

– بات بمقدور الطب من الآن فصاعداً، توزيع مظاهر الإنجاب المختلفة فيما بين عدد من الأجساد سواء الرجال منها أو النساء. هل من شأن هذا الأمر أن يعيد البحث في هاتين التجربتين المختلفتين: الأبوّة والأمومة؟

– إني أميّز هنا بين الأبوّة والإنجاب، إذ إننا قد نصبح آباءً أو أمهات عن طريق تبنّي الأطفال. كما أن عملية الإنجاب لا تكفي لتحمّل مسؤولية الأبوّة. غير أن تجربة الإنجاب تختلف بين الرجل والمرأة. عند المرأة تطرأ الحياة فجأة في داخلها، بالتصاق المضغة بجسدها مؤلّفة معه جسماً واحداً كالنزيل الذي يحدث تغيراً، فتجد نفسها مسؤولة عنه في الحال. لهذا السبب إذا شعرت المرأة أنها غير قادرة على استقبال هذه الحياة الكمونية وأحست أن هذا النزيل دخيل عليها، يُفضل لها ألا تكمل الطريق وتبادر إلى الإجهاض. على كل حال، هناك نسبة كبيرة من المُضَغ يتم طرحها خارج جسد المرأة بشكل تلقائي في الأيام الأولى من الحمل، وغالباً ما يتم هذا الأمر من دون علمها. وفي المقابل، عندما يكتمل نمو الجنين ويأتي إلى هذا العالم يتكوّن معه شعور بالمسؤولية لدى الأم التي ولدته بفعل الواقع، لا لشيء إنما لكونها السبب في هذه الحياة الجديدة. يرى الفيلسوف هانز جوناس[1] Hans Jonas في المسؤولية تجاه النسل "النموذج الأصلي لكل عمل مسؤول". غير أن الخبرة الذكورية تختلف في هذا المضمار، حيث إن الرجل يقتبس عاطفة الأبوة من الأم بينما تتم كل من عملية الإخصاب والولادة خارج جسده وليس داخله. كانت فكرة الأب القادر على الإنجاب بعيدة عن عقول الرجال ولم يتيقنوا منها حتى ظهور الفحوصات الخاصة بعلم الوراثة. لهذ السبب تولّدت عاطفة الأبوة من خلال الزواج بينما جعلت عملية الوضع من المرأة أماً.

– لقد شهدنا التوتر الذي يخلقه تعاطي موانع الحمل في العلاقات بين الرجل والمرأة بشأن الإنجاب. ها هي الأبحاث الطبية المعاصرة تتمركز على العملية العكسية: المساعدة في حصول الحمل في حال تعذّر ذلك...

– تمّ الفصل بين الإنجاب من جهة والعلاقة الجنسية من جهة أخرى بفضل وسائل منع الحمل، إذ بات من الممكن إقامة علاقات جنسية دون إنجاب أطفال. أما الآن فقد أصبح من الممكن إنجاب الأطفال من دون إقامة علاقات جنسية بفضل الدعم الطبي للإنجاب الذي أحدث فصلاً بين العمليتين. في البداية، كان الإخصاب الذي يتم عن طريق أنبوب الاختبار (طفل الأنبوب) يلبي حاجة الأزواج الذين يشكون

(1) فيلسوف الماني (1903-1993) عاش وتوفي في نيويورك. عمل على تحليل نتائج التقدم العلمي واقترح تأسيس المسؤولية تجاه الأجيال القادمة والطبيعة على علم الأخلاق- المترجم.

من العقم، فكانت هي الحافز لالتقاء أمشاج الزوجين. أما الآن فقد بات التلقيح الاصطناعي حلاً قديماً، فعندما يشكو الزوج من العقم، يعمد الزوجان إلى أخذ نطفة من رجل آخر، ليتم الإخصاب داخل الأنبوب، ثم فيما بعد تُزرع المضغة في رحم الأم مباشرة. وأخيراً، الحل النهائي الذي تستطيع المرأة من خلاله حمل طفل غريب عنها، أي لم يأت من خلاياها أو من خلايا زوجها. وهكذا أصبح بالإمكان استخراج خلايا البويضة من جسم الأنثى – وهذه العملية غير مسبوقة في التاريخ – ليتم استخدامها كمادة أولية تماماً كأمشاج الذكر.

– التبرع بالنطفة، والتبرّع بالخلايا، هل يبدو الأمر سيّان؟

– كلا، تسير عملية التبرّع بالنطفة من دون أية خطورة أو مجازفة بينما تبدو عملية التبرّع بخلايا البويضة أكثر تعقيداً، فهي تستلزم معالجة بالهورمونات من نوع خاص. يمكن شراء خلايا البويضة لكن بإخضاع النساء لمحرضات خاصّة بالمبايض على درجة من الخطورة. وهؤلاء النسوة هنّ غالباً من اللاتي أعيتهن البطالة والفقر المدقع ومنهن من يعملن في تجارة الدعارة، وهناك الأمهات اللاتي يتاجرن ببطونهن كما هو شائع في أوروبا الشرقية. والجديد في موضوع "تصنيع الأولاد" هو وجود كلا الجنسين في الحمل لكنهما على شكل مواد وليس على شكل أشخاص. فتجارة الإنجاب لها علاقة مباشرة بالنساء.

– لا داعي إذاً والحالة هذه للبحث عن الآباء والأمهات للتبرع بالنطفة والخلية؟

– إنهما ليسا أباً وأماً، إنهما مجرد متبرعان. يجب الاختيار بين منطق تصنيع الأطفال الذي يَعتبِر الأجسام مجرد مواد تصنيع (إنهم مورّدو النطف، والخلايا الأنثوية والخلايا الذكورية المتحركة أو الرحم) وبين منطق الإنجاب الذي يقوم به أشخاص غرباء بحمل الأجنة، حتى لو لم يكونوا الآباء الشرعيين الذين سيهتمون بتربية الطفل وتنشئته. تكمن المشكلة هنا في الطفل نفسه، هل سيستطيع التعايش مع فكرة أنه وُلد من آباء لا على التعيين أو أنه سيتقبّل واقعه على أنه كائن مصنّع، لا أصل بشري له ولا تاريخ بشري. نلاحظ اليوم أن الأطفال الذين يولدون نتيجة تبرعات نطف وخلايا مجهولة الهوية يبحثون بقنوط عن وجه إنساني، عن إنسان معيّن قد يشبهونه في ملامح وجههم وفي شيء من شخصيتهم. يشهد عدد

كبير من الدول الأوروبية اليوم تحوّلاً نحو إلغاء كتم الاسم للمتبرعين بالنطف أو بعطايا الإنجاب كما تصفهم إيرين تيري Irène Théry.

– مما يستدعي إعادة النظر في الولادات التي تتم في السر، هذه الإمكانية التي أتيحت للأم في فرنسا لإنجاب طفلها من دون الإفصاح عن هويتها، والانفصال عنه حال الولادة، من يدري قد يأتي أحدهم لتبنيه.

– إنه أمر مؤلم للغاية. كان الهدف من هذا القانون هو اجتناب جريمة قتل الأولاد. إننا نعلم أن هناك نساءً، وغالباً في سن المراهقة، ممن يجدن أنفسهن في مآزق أو أنهن يشعرن بذلك، فيجدن في الولادة تحت اسم مستعار مخرجاً لمشكلتهنّ. ومن ناحية أخرى، تفتح هذه الطريقة الباب أمام عملية تبنّي الأطفال. لكن يبقى هذا الأمر مخالفاً لحقوق الطفل في معرفة أصله وتاريخه، الأمر الذي يجب أخذه بعين الاعتبار.

– لكن ألا تساهم هذه النقطة في تعميق الهوة في قضية عدم التجانس بين الرجال والنساء؟ حيث يحق للمرأة أن تنكر أمومتها عندما تكتم هويتها عند الولادة بينما لا يستطيع الرجل إنكار أبوته التي يفرضها عليه القضاء بعد صدور نتيجة تحاليل الحمض النووي.

– هذا صحيح. يتيح القانون الفرنسي للطفل الحق في البحث عن والده، وفي حال نجح في الوصول إليه، يفرض عليه القانون تحمّل مسؤوليته تجاه الطفل وبخاصة في موضوع الإنفاق. وفي بعض قضايا الميراث، يتم نبش القبور وإخراج الجثة ليتم إثبات الأبوّة. بينما تستطيع المرأة بفضل حقها في اللجوء إلى وسائل منع الحمل، والإجهاض، والولادة تحت اسم مستعار، أن تختار ممارسة أمومتها أو رفضها. تظهر الخطورة في الأمر في عدم المساواة بين الأطفال أمام قضية الوالد والوالدة المتبرعين. بمعنى أن المؤسسة الغفليّة للمتبرعين بالنطف أو المتبرعات بخلايا البويضة أصبحت خارج نطاق السيطرة، فهي تعتبر المتبرعين مجرد موردين للخلايا وتنسف الفوارق بين الأشياء والأشخاص، مع أهمية هذه الفوارق في إثبات حقوق الأطفال.

– ألا يبدو أن البحث عن الآباء المتوارين عن الأنظار – الأب المجهول أو الأم التي وضعت طفلها تحت اسم مستعار – هو طعم اصطناعي في أغلب الأحيان؟

– يشكو بعض الأطفال الذين يجهلون أصلهم معاناتهم ويبحثون عن أهلهم

بضراوة. ويعتقد أنصار الولادة تحت اسم مستعار أن الأضرار التي تنجم عن معرفة الأهل الأصليين غالباً ما تكون أخطر من الجهل نفسه. وعلماء النفس على اطلاع بهذا الموضوع: يلجأ الأطفال إلى نسج قصص حول أصلهم من وحي خيالهم حتى بعد التوصّل إلى اكتشافه. يتخيلون "رواية عائلية" ويضيفون عليها لمسات من الجمال، ويتعلقون بذلك الفرع من العائلة من دون سواه... وتُفتح الآفاق أمام الخيال باتجاه السلف. يحلم الأطفال الصغار بأصول غير مألوفة، فهي إما من السلالة المَلَكية أو خارقة، تماماً كما يحدث في القصص. لم يأتِ أحد بدليل ينفي تفوق الخيال على الحقيقة التي قد تأتي مخيبة للآمال. لكن تبقى هناك مشكلة المؤسسات: قد نتوصّل إلى تسوية موضوع البنّوة بطرق عديدة، لكننا لا نستطيع تسويتها بتصميمٍ، معتمدين في هذا على الأسرار والأكاذيب.

لنتجنّب إنكار الاختلاف بين الجنسين

– هناك حدود مُحدَثة للبنوة تتمثّل في رغبة الأزواج المثليين بالحصول على الأطفال أو بتبنّيهم – وهذا ما أصبحنا نشهده في أيامنا هذه. لكي نتطرق إلى هذا الموضوع، يجدر بنا أولاً توضيح نقطة معينة: لقد قمتِ بالفصل في قضيتي الاختلاف بين الجنسين (رجل وامرأة) واختلاف الهوية الجنسية (هناك الجنسية الغيرية؛ وهناك الجنسية المثلية وبخاصة نحو الذكور؛ وهناك الجنسية المثلية وبخاصّة للإناث، وهناك ثنائيي الجنس، وهناك من يشعر بأنه من الجنس الآخر ويرغب في تغيير جنسه ويُخضِع نفسه للعمليات... إلخ).

– إن مفهوم الهوية الجنسية بحد ذاته موضوع خطير. فالجنسية هي ممارسة متقلبة وغير مستقرة، ويجب أن تكون حرة من كل التزام ولا تشكّل هوية مدنية. فالتمييز بين الجنسين (الذكر/الأنثى كما يقول الإنكليز) يمكن أن يحدد الهوية مع أنه غير حصيف في أغلب الأحيان. لقد أثرنا موضوع الرياضة، وتوقفنا طويلاً عند موضوع الإنجاب، لكن تقسيم العمل تبعاً للجنس في المجتمعات الحديثة التي تشهد المساواة بين الجنسين آيل إلى الزوال، لتبقى أشكالٌ من العنف الاجتماعي يطال النساء بشكل مكثف، كما هو حاصل في مجال الدعارة.

– خضع المثليون عندنا حتى عهد قريب للتمييز العنصري باسم ميولهم الجنسية ولا يزال يمارس عليهم في جزء كبير من العالم حتى اليوم.

– هذا صحيح وغير مقبول. لذلك يأتي النضال ضد التمييز العنصري الخاص بالجنسية ضمن الأولويات. لكن المطالبة بالمساواة بين الجنسين ومنح الحرية لكل واحد باتباع أذواقه وميوله يجب ألا يقودنا إلى إنكار الاختلاف الواقع بين الجنسين أو اعتماد قابلية التبادل بين الرجل والمرأة. فلا يمكن إجراء التبديل بين الآباء. نستطيع أن نصبح أباً أو أماً تبعاً لجنسنا رجلاً كنّا أو امرأة وليس تبعاً لشذوذنا الجنسي (ذكراً كنّا أو أنثى) أو لشعورنا بالانجذاب الجنسي نحو الجنس الآخر.

– يَعتبر بعضهم أن التمييز بين "النوعين" – أي كوننا ننتمي إلى فئة "المذكر" أو "المؤنث" – هو حصيلة بناء اجتماعي بحت. حيث إن طبيعتنا وجنسنا لا يسهمان في تحديد هويتنا، إنما هو تكييف المجتمع الذي يمنحنا هذا الدور أو ذاك.

– صحيح أن تمييز النوع (مذكر/مؤنث) يختلف عن تمييز الجنس (ذكر/أنثى). الأول هو بنيان ثقافي وتاريخي ينال مظاهر عدة من الحياة الاجتماعية (المظهر، والحركات، والسلوكيات، والوضع، والدور... إلخ) ويحدد العلاقات بين الجنسين (التي تُمنح مع الوضع البشري). والتمييز الآخر يتعلق بالفعل بكوننا كائنات حيّة فانية. وبالنسبة لتحديد الجنسية فهو شرط خاص بعلم الحياة متعلّق بنسبة الوفيات، كما برهن عليه فرانسوا جاكوب François Jacob. لكن هذا الوضع الجنسي لا يعتمد على الاختلاف الجسدي البسيط (أي علم التشريح مثلاً)، إنما يعتمد على كون العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة قابلة للإخصاب. إنه مخطط التوالد (أو إذا أردتِ الإنجاب) الذي يحكم التمييز بين الذكر والأنثى ولا شيء سواه. وتعتمد كافة الثقافات على اختلافها على هذا التمييز وتعطي المعاني الاجتماعية للولادة وللعلاقات الجنسية والموت. وإذا تمّ تنظيم المذكر والمؤنّث فإنهما يشكلان تعارضاً مماثلاً للتمييز بين الجنسين.

– هل نعتبر أن تمييز النوع مرهون بالعصور والثقافات؟

– نعم، لكن استند بنيانهم المثنوي إلى التمييز بين الجنسين. لقد تمّ بشكل خاص، تنظيم التسلسل التاريخي للاختلاف مذكر/مؤنث، كما تمّ ذلك في العلاقات بين الرجال والنساء في ما يعرف بالزواج البطركي، مما استدعى وجوب هدم هذا البنيان. لكن عملية هدم البنيان والتراتب لا تكفي للقضاء على الوضع الجنسي. هنا يعود السؤال مجدداً: كيف نتصرّف تجاه هذا الوضع؟ يجب قبل كل شيء التمييز

بين مناطق التجربة التي لا تؤثر فيها وتلك التي تؤثر فيها، والمناطق التي تتدخل فيها المصالح الجنسية. وهذا لا علاقة له بالفكرة القديمة السائدة حول تحديد "طبائع" الأفراد تبعاً لنوعهم أو لنشاطهم الجنسي. كما لا يمكن استبدال التضاد ذكر/أنثى بالتضاد بين الجنسية المثلية/والجنسية الغيرية، فهذا منتهى السخف من الناحية النظرية. فإذا أنكرنا حقيقة وضعنا الجنسي نحصل على بشرية غير متمايزة، حيادية من الناحية الجنسية، وفي الوقت ذاته تفقد مفاهيم الجنسية المثلية والجنسية الغيرية معناها. كما أننا نفقد القدرة على التفكير بتعابير التوجّه الجنسي. عندئذ يكون السؤال إلى أين نتوجّه؟

– هل يحق للزوجين المثليين تبنّي الأطفال أو اللجوء إلى الإنجاب المدعّم طبياً، وإلى أي المبادئ يمكن تصنيف كل هذا؟

– يُسمح باللجوء إلى الإنجاب المدعّم طبياً بما يخدم مصلحة الطفل وبإمكانية استخدام جسد الآخرين. فعلى سبيل المثال، لا يمكن أن نوحي إلى أي طفل أنه ابن أو أنها ابنة امرأتين أو رجلين، وإلّا فإننا نكذب عليه (عليها)! لا يمكن أن ندعي تشييد نظام عائلي، مؤسسي ورمزي، منطلقين من إنكارنا للحقيقة. فإذا أقامت المؤسسات على مر التاريخ بنيان العائلة على أساس الوالدين – الأب والأم – ووطّدت الصلة الشرعية بين الأولاد والآباء، فإن ذلك لم يأت بمحض الصدفة: لقد استندت هذه الصلة إلى وجود حقيقي لزوجين شرعيين متبرعيَن، وعلى حقيقة الإنجاب وليس وفق قرار اعتباطي. وإلّا فإننا نستطيع أن نخلق قرابة قائمة على ثالوث سلالي بدلاً من سلالتين. فالبنيان الثنائي ينجم عن الذرية ويوحي بالمؤسسة.

– ألا يزال الإنجاب الطبيعي، لنقل "على الطريقة القديمة"، يثير إلى اليوم فكرة أطفال التبنّي؟

– هذا سؤال جدير بالاهتمام، إذ تساهم التكنولوجيا الحيوية في تعديل خيالنا. لكن إذا انتقلنا إلى والدين لا يخضعان لأي اختلاف جنسي فلماذا لا نتصوّر قرابة مؤلفة من ثلاث أمهات أو أربعة آباء؟ قد يستطيع ثلاثة أفراد أو أربعة المشاركة في تربية طفل، حيث إن مفهوم صلة الوالدين لم يعد محصوراً بين اثنين. ثم إن الزوجين الجنسيين والزوجين الآباء غير متشابهين، لكننا نلمسه ذلك في العائلات التي أُعيد تأليفها والتي تفتح الباب واسعاً أمام حريات مستحدثة.

لكن قد نتساءل عن شرعية إعادة تكوين الوالدين على أساس علاقات جنسية مثلية اعتباراً من لحظة الفصل بين الذرية والجنسية. يجب على كل حال عدم اعتبار التوجهات الجنسية لفرد ما كعائق أمام التبنّي، أما مبدأ المساواة بين الأفراد فيجب أن يُسخّر لحماية هذا الحق.

– من الناحية العلمية، نستطيع تخصيب بويضة بأخرى. ماذا لو فكرت النساء بإنجاب الأطفال فيما بينهن؟

– حافظ موطن الخيال المذكر على استيهام وراثة أبوية بحتة (انتقال جينات الصفات الأبوية إلى الأبناء)، كما بيّن ذلك جان بيير فيرنان بالنسبة للإغريق القدامى. هل بإمكان النساء تصور مثل هذا الخيال لنقل جينات بصفات أنثوية بحتة إلى الأولاد. ثم إني لا أرى أية مصلحة من جراء إنكار الغيرية. ثم هل علينا مرة أخرى الخلط بين الخلايا والأشخاص واعتبار الطفل وكأنه مادة مخبرية؟

تأجير البطن

– لقد أقحَمَ الإنجاب المدعّم طبياً ممثلين جدداً في هذه القصة: هناك المتبرع بالنطفة وهناك المتبرعة بخلايا البويضة. كما أن هناك شخصاً ثالثاً محتمل وجوده ألا وهي الأم التي تحمل الجنين بالأجرة. هل هذا مبعث للأمل أم أنها الحرية أو أنه شكل من أشكال الدعارة؟ هل علينا إباحة كل شيء لمجرد أنه "ممكن"؟

– غالباً ما ترتبط التقنية وتطورها بوهم القدرة الكليّة وبعلم الأفكار المتعلّق بالفردانية القصوى. عندما نلجأ إلى استخدام الحجج كأن نقول (بما أننا نستطيع فعل ذلك، لا يوجد سبب يمنع من فعل ذلك...) فإننا نقولها تبريراً لأفعالنا. يقدم العلم الصلاحيات بينما يبحث الفرد عن إمكانية استغلالها من دون قيود. لكن لا وجود للتقنيات – وبصورة خاصة في مجال الطب – التي لا تَخضَع لأدبيات الطبيب وواجباته أو للمبادئ العامّة. هناك قيود وقواعد تمّ فرضها على كل ما هو اجتماعي ومتعلّق بشكل أساسي بقيم حضارة ما. فالعلوم والتقنيات والأخلاق والتشريع، جميعها تخضع لقيود. وهنا يطالعنا سؤال خاص بالأمهات اللاتي يحملن الأجنّة مقابل أجر: هل نقرّ باستغلال جسد الآخرين بحثاً عن إرضاء رغبات البعض؟

– قد يجيب البعض:" لمَ لا إذا تمّ ذلك بموافقة الطرف الآخر؟

– لكن علينا الوقوف ملياً عند قيمة هذه الموافقة وحرية اختيارها. يعتبر البعض أن القانون الفرنسي – الذي يرفض مبدأ الأمهات الحوامل بالأجرة – متخلّف عن عصرنا. لكن ماذا لو كان هذا القانون على العكس، سابق لعصرنا؟ ترتكز حضارتنا على مبادئ تمت صياغتها عام 1789؛ فهل نعتبر أن الزمان قد تجاوزها؟ يؤكّد إعلان حقوق الإنسان والمواطن:" الحريّة هي أن تقوم بأي عمل لا يسبب ضرراً للآخرين." كما أن القانون الفرنسي حظّر منذ عام 1946 أي اعتداء على كرامة الإنسان، كما ضَمِنَ احترامه واحترام جسده. هل يجب خرق هذا القانون بحجة أن هناك من يخالفه على مستوى العالم وأن بمقدور الأزواج الميسورين مادياً شراء "الخدمات" المحظورة من خارج فرنسا (علماً أن عدد هذه الدول محدود للغاية)؟ إن أي تصرّف جائز في "الخارج" لا يجعل منه تصرفاً سليماً.

– التبرّع بالدم والحليب والأمشاج، وفي بعض الحالات المحدودة، بالأعضاء، لا يعتبر كل ذلك هدراً للكرامة. فبماذا يختلف إذاً التبرّع بالبطن؟

– صحيح أن العيادات المتخصصة تحاول إقناع المتبرعات ببطونهن المحتملات مستغلّين باب العطايا والكرم، حيث يقال لهن: "هبّوا لنجدة النساء اللاتي يعانين من الضيق والشدّة، امنحن الحياة!" بينما يظهر في واقع الأمر أن هذا الأمر ما هو إلّا صفقة تتم ضمن إطار الصناعة والتجارة لصالح مؤسسات الإنجاب. مما لا شك فيه أن لا أحد يثير موضوع الشراء أو السعر أو التبادل التجاري بين الأطراف المعنيّة – أي الوالدين بالتبنّي والأمهات المتبرعات ببطونهن والعيادات الطبية– بل يكتفون بذكر كلمة "تعويض" مقابل الوقت والنفقات. لكن المقابل المادي للأم المتبرعة ببطنها موجود، كما أن هناك عملية بيع للمنتج الذي هو الطفل في هذه الحالة. يصبح الأزواج مموّلين أو زبائن يبحثون عن مواد وراثية أو بطون يحتاجونها عند اللزوم، ويجري هذا البحث في الدول الأكثر فقراً أو وسط الفئات الشعبية المنسية. مما يخلق شكلاً جديداً من الكراهية ومن استغلال للنساء الفقيرات اللاتي يعانين إضافة إلى كل ذلك من الدعارة.

– إننا إذاً نرتكب خطأً فادحاً عندما نقارن الرحم بشقة للإيجار؟

– دعينا نفكر بشخصية لا فانتين la Fantine في رواية "البؤساء" التي

اضطرت لبيع شعرها وأسنانها... عندما نعاني من الفقر المدقع فإننا لا نتوانى عن بيع أي شيء. هناك محاولة متشددة اليوم لإحكام السيطرة على المتاجرة بالأعضاء مع أننا متيقنون بوجودها. ويحظّر القانون في فرنسا من بيع الأعضاء – فيقال عن الأعضاء أنها "غير قابلة للتصرّف". ويترك القانون حيزاً ضيقاً "للحالات الاستثنائية" لتداول الأعضاء بين الأحياء وذلك "مساهمة في علاج الآخرين"، وينحصر موضوع هبة الأعضاء بين الأقارب المقرّبين ومن دون مقابل مادي – لكن هذا لا ينفي وجود الضغوط النفسية. كما يلعب القانون دوراً آخر يتجسّد في منع الناس من إلحاق الضرر بأنفسهم ليقعوا فريسة لتجّار الأعضاء العديمي الذمّة. إننا إذا أعطينا المرأة البائسة الحق في بيع بطنها أو في تأجيره، فإننا نكون قد فتحنا الباب على مصراعيه أمام شكل جديد من أشكال البغاء.

نفي الرغبة والذات

– هلا بينتِ لنا... ما هو وجه الشبه مع البغاء؟

– تضمّن تقديم الخدمة الجنسية المأجورة (خاصة وأنها كانت منذ زمن سحيق تحت سيطرة القوّاد) التضحية بحرية الرغبة الخاصّة وتوظيفها في خدمة رغائب الآخرين. إننا عندما "نرهن أمومتنا لصالح الآخرين" فإننا نلغي حياتنا الخاصة ووجودنا الشخصي لنضعهما بين قوسين، فنعمل بذلك على إنكار ذاتنا. إذا توقف الجسد عند كونه أداةً، ووُصفت الرغبة الشهوانية بأنها منفّرة، يتحوّل الإنسان عندئذ إلى كائن منفّر، إذ إنه وضع ذاتَه في خدمة الآخرين. عندما تتبرّع المرأة ببطنها رغبة منها بحصولها على طفل فإنها إنما تلبّي هذه الرغبة وتنكر الرغبة الخاصة بالمرأة المستخدَمَة، ومن هنا ينجم الالتباس في دورها.

– إن المدافعين عن الدعارة والمدافعين عن الأمهات اللاتي يتبرعن ببطونهن هم أنفسهم. إنهم يجزمون الا فارق أبداً بين أن تبيع المرأة جسدها أو أن تؤجره (الذي غالباً ما يكون ضد إرادتها) وبين أن تبيع قوتها في العمل.

– قد نُشرك أطرافنا ودماغنا في العمل الذي نقوم به – حتى لو كان هذا العمل منفّراً أو غير مرغوب فيه – لكننا لا نشرك وظائفنا العضوية وأعضاءنا التي

تدعمها. فالرئتان والجهاز الهضمي والأعضاء التناسلية، كل هذه الأعضاء تساعدنا على العيش. لا يتساوى بيع القوة أثناء العمل مع بيع الجسد. إن حمل الأجنّة ليس بالمهنة الجديدة، ولا يُطلب من المرأة المعنية القيام بأي عمل سوى العناية بغذائها وصحتها وأسلوب معيشتها. إنها لا تمارس عملاً قد يتوقف عند المساء لتعود إليه في الصباح. يجب على المرأة التي رهنت بطنها لجنين غيرها أن تتناسى وجودها كجسد وروح ما تعاقب الليل والنهار وذلك طيلة تسعة أشهر. يترتب عليها تحويل جسدها إلى وسيلة بيولوجية لرغبة الآخرين. إن العامل الذي يشقى في عمله طيلة اثنتي عشرة ساعة كل يوم والذي من حقه أن ينعت نفسه بالمعتوه، يجد في نهاية اليوم شيئاً خاصاً به، يجد حياته الخاصة الحميمية خارج أوقات العمل. إن استخدام المرأة لتحمل أجنّة غيرها يسحب منها حقها في الأمومة من حياتها الخاصّة، حيث إن كل فرد في هذه الحياة الخاصة له دوره لا يقوم به الآخرون لكي تُحوّل المرأة إلى عامل. يمكن استبدال بطن مكان بطن آخر. في كل الأحوال نستطيع أن نجزم أن الحياة الحميمية دخلت دائرة العمل لتبقى كل من الدعارة والأمومة وظيفة تؤدى للآخرين.

– كيف هو الحال داخل العائلة الواحدة؟ ما الذي يحصل بين الأخوات وبين بنات العم وبين الأمهات والبنات؟ يتعلّق الموضوع هنا بالهبة لا بالتجارة.

– هنا تبدو الهبة حقيقة أكثر قبولاً. لكن هل فكرنا ملياً بالإرباكات التي تنشأ داخل العائلة الواحدة؟ وهل فكرنا بخاصة بتحريم زنا المحارم؟ عندما تحمل المرأة مضغة أختها فإنها تحتضن داخل جسدها بطريقة ما نطفة زوج أختها. وإذا استقبلت امرأة عقيم خلايا البويضة من أختها، عندئذٍ تلتقي الأختان بتماس مع نطفة رجل واحد. وفي حال حملت الأم مضغة ابنتها أو حملت البنت مضغة أمها فإننا نساهم في إفساد الأجيال. ترى ألا يفترض بالطب أن يلبي "الرغبة في إنجاب الطفل" بأي ثمن وبأية طريقة؟ قد نتقبّل هذه الإجراءات إذا أثرنا موضوع "الحمل للآخر" وليس الحمل أو الأمومة، ولكنها ليست سوى طريقة لإخفاء المحنة الحاسمة – والتي لا تخلو من المخاطر– التي تمر بها المرأة، ألا وهي محنة المخاض.

"جسدي ملكٌ لي"

– ذاع الحديث في الماضي أن الولادة تجعل من المرأة أُمّاً.

– ولا يزال يتردد إلى يومنا! فالمرأة التي تحمل أجنة الآخرين تصبح حاملاً، فهي تعيش كافة تطورات الحمل. تشعر بالجنين ينمو ويتحرك في داخلها، ويمر الجنين في أحشائها بمراحل مختلفة نتيجة التفاعل مع الجسد الذي يحمله. إنها هرمونات الأم التي تؤثر على نمو دماغ الطفل. ولن تتحوّل المضغة إلى طفل ما لم تخضع لمراحل النمو الخاصة بالوراثة أثناء تكوّن الحمل. فالعناصر الوراثية لا يمكن أن تنتج طفلاً. ثم إن المرأة ليست أداة حيّة. فحياتها الجسدية هي التعبير الأول عن وجودها الشخصي والعاطفي والجنسي. كما عبّر عن ذلك موريس ميرلو – بونتي Maurice Merleau-Ponty[1] "جسدي ملك لي".

– في خضم هذا النفي لجسد المرأة، ألا يوجد هناك رغبة شبه واعية للسيطرة مجدداً على جسد المرأة من جراء إلحاقه بالمخبر؟

– ونتّجه إلى الإنجاب البريء، الخالي من الشهوة، كما كان يحلم به القديس أوغسطين؟ قد نتساءل أيضاً إذا كان الإنجاب المدعّم طبياً يختص بالنموذج الذكوري... فالإنجاب بالنسبة للرجال لا يتم إلّا خارج جسدهم. وليست التكنولوجيا الحيوية في أيامنا سوى طريقة لإخراج عملية الحمل من جسد المرأة. إني أتساءل أيضاً عن الهدف الحقيقي للأبحاث التي تجرى حول مراحل التكون الخارجي، أي تلك التي تتمحور حول إمكانية نمو الجنين خارج الجسد البشري داخل رحم اصطناعي. هذه الأبحاث مكلفة للغاية، لكن من سيسعى للاستفادة منها؟ وما هو أثرها على الأطفال؟ ترى هل ترغب النساء فعلاً بالتخلّص من خوض تجربة الأمومة بعد أن تخلّصت من آلام المخاض بفضل المخدّر؟ لست واثقة من هذا.

– إذاً ستبقى الطريقة التقليدية في إنجاب الأطفال هي المفضلة لدى الأزواج طالما كان ذلك ممكناً؟

---

(1) بونتي (1908-1961) فيلسوف فرنسي، مؤلف لكتاب "علم الظاهرات (كما تبدو بصرف النظر عما وراءها من حقائق) الإدراك الحسّي" عام 1945 – المترجم.

– تخلو عمليات الإنجاب المدعومة طبياً من أي مظاهر المتعة! ولا أعتقد أن هذه العمليات ستلغي الرغبة في إنجاب الأطفال المرتبطة بالرغبة بين الرجل والمرأة. لا نستطيع بجرة قلم إلغاء الرابط الحميمي بين الشهوة الجنسية والرغبة في إنجاب الطفل. كلاهما متعلقان بالجسد. لكن قد يجوز أن تُساهم العصرية التقنية في تحرير وجود الإنسان من حاجاته الجسدية.

جسر مشيّد بين جيلين

– هل تقع مسؤوليةٌ ما على عاتق النساء في تعريف أخلاقيات الإنجاب؟

– إنهن لسن الوحيدات المعنيات بالأمر. أعتقد أن المرأة بانفتاحها على الأجيال القادمة عن طريق أطفالها أو أطفال آخرين باتت تدرك أهمية المستقبل والزمن. إنها مسؤولية جسيمة تشمل الثقافة والسياسة والفكر، ولا داعي لأن نكون أباً أو أماً لنشعر بذلك. عندما نتوسّط جيلين، السلف من جهة والخلف من جهة ثانية، فإننا ندرك تماماً مسؤوليتنا كورثة (ما هو الإرث الذي نريد الاحتفاظ به عن سلفنا؟) وكناقلين (ما هو الإرث الذي نريد أن نخلّفه للأجيال القادمة؟) "ما معنى منح الحياة"؟ سؤال لا نتوقف عنده بالقدر اللازم في هذا السياق. ولكن كيف لنا أن نفكر بماهية الحضارة والثقافة والسياسة إذا لم يساورنا شعور بمسؤولية عظيمة تجاه أولئك الذين سيأتون من بعدنا؟ إننا نعجب لعدم اهتمام الفلاسفة العالميين بهذا السؤال بالقدر اللازم. مما لا شك فيه أن التربية كانت دوماً مسألة فلسفية لكن الإنجاب أصبح في أيامنا هذه يطرح مشكلة أخلاقية وسياسية بوجود تقنيات الإنجاب الجديدة وإمكانية التدخل في مجموع الجينات لجسم ما.

– قد تَخلق هذه المشكلة تصادماً بين حرية الفرد واختيار المجتمع...

– تَفتح التكنولوجيا الحيوية إمكانية تعديل وتصنيع الكائنات البشرية. يتجاوز هذا الحقل الجديد الذي نطلق عليه اسم "تقنية الإنسان" حقل حرية الفرد في التصرّف بجسده كما يشاء (تعديل سنيّ العمر بإزالة التجاعيد، بل وتغيير الجنس ولون البشرة): يتعلّق هذا الحقل بالتخطيط والانتقاء وتعديل الجينات الوراثية "لخلفنا". تمثّلت عملية الإنجاب حتى يومنا هذا بإفساح المجال أمام كل ما هو

مجهول. لقد انحصر دور الآباء في نقل شروط الحياة التي لا يملكونها بالأصل، كما أنهم لا يسيطرون عليها. ويستطيع كل فرد جديد أن يتطابق مع جسده وميوله كما يفعل بنتيجة تطور لاشخصية.

– هل تغيّر الحال عندما أصبحنا "نصنّع" الأطفال؟

– إن إمكانية تصنيع البشر، وليس الإنجاب، تفتح المجال أمام تصور ذهني لأجساد حيّة هي حصيلة عمل مؤلّفها، على غرار تمثال العاج بيغماليون[1]، مع كل المجازفات التي تنتج عن تطوير علم تحسين النسل، كما أشار إلى ذلك هابرماس[2] Habermas. سيعمل هذا الوضع الاصطناعي بالضرورة على تعديل وعي الإنسان لنفسه، هذا الإنسان الذي تمّ "تصميمه" بهذا الشكل، كما سيعمل هذا الوضع على إلغاء المساواة الخاصة بعلم الإنسان بين الأجيال. تَعْمِد الهندسة الوراثية بتدخلها في مجموع جينات الجسم إلى إقحام الرغبة إلى جانب مشروع الطفل أثناء عملية الإنجاب. وبتعبير آخر، فإنها تُدخِل تصور النهاية في الوجود المادي للأجيال القادمة. فالطريقة التي ستبعد القادمين الجدد عن سلفهم لن تتعلق بتغيرات احتمالية كما في الإنجاب الطبيعي، بل بمشروع متحرر عن السلف. تخلق هذه الإمكانية غير المسبوقة عبر التاريخ مسؤولية مريعة، إذ إنها تنال من حرية ذريتنا. لقد طرحت الوجودية الفرنسية مسألة الحرية في الحاضر، من دون أن تبدي اهتماماً للنسل القادم. لكنه موضوع مختلف...

– في حقيقة الأمر اشتهر كل من سارتر وبوفوار بالفردية (الأنانية).

– نعم، بطريقةٍ ما. بالنسبة لسارتر وبوفوار كانت الحرية تعني لهما "حريتي الخاصّة". إنها طريقة في التفكير ترفض الخوض في موضوع الموت، تناقش موضوع الحرية وتطرحه من دون التطرّق إلى مرحلة ما بعد الحياة التي ستستمر من بعدنا. إننا لسنا سوى عابري سبيل في هذه الحياة الدنيا ولا يمكن لنا أن نجعل من وجودنا أمراً مطلقاً. إننا عندما نتقبّل استمرار الحياة من بعدنا متمثلة بالأجيال القادمة بمفهوم الحرية كما تراها هذه الأجيال، فهذا يعني أن نتقبّل فكرة

(1) ملك قبرصي أسطوري، عشق تمثال امرأة كان قد نحته بنفسه، ثم طلب من أفروديت آلهة الجمال والحب أن تمنح الحياة لهذا التمثال، ففعلت، وتزوج منه - المترجم.

(2) فيلسوف ألماني (ولد سنة 1929)، حلل العلاقة بين التقنية والسلطة والاتصال- المترجم.

الموت المتربص بنا. بل إنها أيضاً طريقة أكثر رفعة وأكثر غنى للتفكير بموضوع المسؤولية، بمعنى أنا إنسان مسؤول ليس لأنني باقٍ أبد الدهر بل لأنني سوف أموت. فالدنيا لا تتوقف عند الحياة القصيرة لإنسانٍ ما، إذ إن هذا الكائن البشري موجود بين جيلين، جيل سبقه وجيل سيخلفه. ففي مجال السياسة، يفكر المختصون بالقضايا التي تربط الثقافات بالشعوب بشكل أفقي، ولا يتبصرون بالتضامن الذي يربط الأجيال بعضها ببعض بشكل عمودي. قد تتمكّن النظرة التأملية الفلسفية للنساء من فتح آفاق جديدة في هذه القضية.

– ومن خلال الطريقة التي نتبعها في تربية أطفالنا، فإننا نطرح السؤال الذي يتناول عالم الغد.

– هذا صحيح. من المؤكّد أن قرارات أطفالنا ستنبع من داخلهم، وسيتصرفون بإرثهم كما يشاؤون. قد نرتكب أخطاءً في تربيتنا لأطفالنا، وقد نغرس في عقولهم مبادئ تتفاوت في صلاحها. أما إذا كنّا لا نملك أي مبدأ لننقله إليهم، فإننا سنحقق فشلاً ذريعاً في تربيتهم! ما هو شكل العالم الذي سنورثهم إياه؟ هذا سؤال جوهري يجب أن نتوقف عنده لنعطي توجّهاً خاصاً لحياتنا الشخصية. فإذا لم نحدد معنى لحياتنا فمن أين لنا أن نورّث عالماً له معنى؟ إنها حلقة متصلة لا يمكن الفصل بين جزئياتها.

الجنس الديمقراطي

– ألم يعد بالإمكان إنشاء الخيارات الجماعية على أساس قوانين يُفترض أنها نزلت من السماء أو فرضتها الطبيعة؟

– لمسنا ذلك عندما تطرقنا إلى موضوع التقنيات الطبية: فقد تطايرت المعايير التي كنا نظنها شاملة في كل اتجاه. أصبحنا مسؤولين عن أنفسنا ضمن نسب صُنِّفت في الماضي بأنها تفوق الخيال، وأصبحنا نواجه حرية تسبب لنا الدوّار. لذلك أعتقد أنه يتحتّم علينا عرض قضايا المجتمع الهامة بعقل منفتح وبحذر شديد. علينا أن نتقبّل أن ما هو ممكن تقنياً أو ما يريده الفرد يجب حتماً أن يباح، وهذا سيؤدي إلى "استقالة" الحضارة. يكمن التنازل الأخلاقي في التخلّي عن كل القيم المتعارف

عليها، والتوقف عن تصنيف الأشياء تحت لواء الجيد والوسط والسيئ. يجب أن يتوصّل البشر فيما بينهم – ولا يتوقف الموضوع عند القساوسة أو الباحثين أو الفلاسفة – إلى لحظة يتناقشون فيها بطريقة ديمقراطية بحتة ويصرّحون بكل ما هو مرغوب فيه على صعيد البشرية. فالحضارة هي نتاج عمل مشترك. وكأن زماننا يتراجع أمام هذه المسؤولية ليتركها للتقنيين.

– ألا يعود السبب في حصول التقدم الاجتماعي الذي أحرزته القرون الأخيرة إلى تزايد الحريات الفردية؟

– تأتي لحظة تنقلب فيها الفردية إلى ضدها. فإذا تسببت سلوكيات فردية بانهيار النظام الاقتصادي أو المؤسسي في مجتمع ما فإن الآثار السلبية ستنعكس على المجموعة بأكملها لا على الفرد وحده. يندرج موضوع حمل السلاح عند الأمريكيين – كما تعلمين جيداً – ضمن نطاق الحرية الفردية، لتأتي النتائج مأساوية ويحصدها المجتمع بأكمله. يتحدد الانتشار اللامتناهي للحريات الفردية بمفهوم المسؤولية تجاه المجتمع والأجيال القادمة. لذا يترتب علينا إدخال التعديلات على الحضارة في كل لحظة.

– في العلاقات بين الرجل والمرأة، هل نعتبر أن الأمر مماثل؟ ألا يوجد تقدّم نهائي؟

– كلا، لا يوجد محصلة نهائية قابلة للانتقال بالضرورة. لنذكّر أولاً أننا إذا استطعنا أخيراً التخلّص من سيادة النظام الأبوي فإن أجزاءً كثيرة في أنحاء العالم لا زالت تفتقد هذا الوضع. يبدو أن النزعة إلى السيطرة ورفض فكرة المساواة تعودان إلى السطح من جديد، لذا يجب باستمرار استعادة الأرض المحررة. يجب أن ندرك تماماً أن الصراع بين الجنسين لن يؤول إلى الزوال بشكل نهائي. وسواء شئنا أو أبينا لا يمكن استيعاب فكرة التبعية التي عاشتها جداتنا من دون أن ندرك مفهوم الرجولة المسيطرة. وهذا يقودنا دوماً إلى الشكل الذي كانت عليه العلاقات الجنسية. علينا باستمرار إعادة طرح الفكرة التي تصف النساء بأنهن سلبيات "بالفطرة" وبأن جسدهن متاح. لا يشمل الرهان الأكبر الذي تعيشه نساء اليوم التباين القانوني داخل العائلة أو في الحياة السياسية. فإذا لم تحصل المرأة على المساواة بشكل كامل فإنها بصدد الحصول عليها. وكذلك الأمر بالنسبة للحياة الاقتصادية. في المقابل، يلاحظ أن جاهزية جسد النساء والفائدة التجارية التي يتم

جنيها في إطار صناعة الجنس وصناعة الإنجاب في انتشار مستمر. تشكل النساء طبقة كادحة نوعية في حقلي الصناعة والتجارة. تشهد نساء اليوم خطراً من نوع جديد يتهدد أمنها ويتمثّل في التحرر الفائق.

– يبقى جسد المرأة "رهناً للبيع"، كيف نفسّر هذه النظرة التي لم تتبدّل عبر العصور؟

– بالتأكيد تختلف الأسواق التي أتحدث عنها فيما بينها لكنها كلها تزدهر بفضل توفّر بعض الشروط. قد نسرد بعضها: الخيال القديم والجنسي الذي يجعل من النساء طائفة مُعدّة للخدمة ويُبقي جسدهن تحت تصرف من يريد؛ فترات أزمة أو بطالة أو فقر مدقع وبالتالي محاولة من النساء الأكثر فاقة لبيع أجسادهن بدل أن يبعن منتجاً ما لعدم توفره؛ وأخيراً ميل الأسواق إلى الانتشار اللامحدود للاستيلاء على كل ما يصلح لأن يتحول إلى مادة استهلاكية، ولا تُستثنى من ذلك أجساد البشر. وأضيف هنا شرطاً أخيراً: علم الأفكار المتميّز بالتحرر الفائق والداعي إلى الحرية المطلقة وإلى الفوضوية، الذي يدّعي بأنه يتكلم باسم الحرية الجنسية – بالنسبة للزبون على الأقل – وباسم "حرية بيع الجسد" للنساء اللاتي "يعملن في حقل الجنس" أو باسم "النساء اللاتي يحملن أجنة غيرهن".

– نعود مرة أخرى إلى قضية الحرية الجامحة التي تقلب شريعة الغاب رأساً على عقب...

– مع هذا الدافع للحرية نصل إلى أحد بنود المغالطة المنتشرة والتي يتم اللجوء إليها في كثير من الأحيان لتبرير أي شكل من أشكال النفور أو الاستثمار. بالفعل، ما معنى أن ندافع عن الحرية الجنسية من جهة (حرية الزبون) في حين نقبل من جهة ثانية أن تُباع هذه الحرية نفسها وأن يُضحَّى بها كاملة؟ عندما تتنازل المرأة عن حريتها وهي تشعر بالمهانة فإن الطرف الذي يشتري يستفيد من هذا التنازل عن طريق استمتاعه. فإذا كانت الرغبة الجنسية جزءاً من أبسط أنواع الحرية، فإن ادعاء الحق في شرائها يتناقض مع مبدأ الحرية. فضلاً عن أنه مخالف للقانون الحديث الذي يفرض احترام جسد الآخرين وشخصهم، لهذا السبب أدان القانون الاغتصاب والتحرش الجنسي. رغم كل ذلك، نتغافل عن الشروط الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بتجارة الأجساد ونتجرأ ونُضفي الشرعية على البغاء وعلى "حمل أجنّة الآخرين" من خلال "الحرية" في بيع الجسد، بينما تعتبر تجارة

الأعضاء تخلّياً عن الذات بشكل كامل. لا يزال الدعم مستمراً لكل من يريد أن يرهن شخصه للاستغلال من قبل الآخرين أو لخدمتهم حتى لو أسيئت معاملته أو حُطَّ من قدره أو تعرّض للتعذيب، فلا بأس إذا كان هذا يروق له. هذا كلام غير مقبول عندما يفترض من القانون حماية حرية المواطن وكرامته، رجلاً كان أو امرأة.

– في القرن الواحد والعشرين، لا يزال بيع جسد المرأة وارداً، كما يمكن إخفاؤه بشكل كلي بحجاب كامل...

– لم يثبت شيء من هذا القبيل، خاصة عندما يتعلّق الموضوع بحرية النساء! فالحجاب الكامل هو عودة لظهور عادة قديمة سادت في دول البحر الأبيض المتوسط التي كانت تدين بالوثنية: فقد وجد الحجاب الكامل في القرن الثاني، أي قبل ظهور الإسلام بكثير. أما الوشاح الذي يغطي رأس المرأة فإننا ننسى أنه فرض على نساء النصارى خلال فترة طويلة.

– هل تضمن الديمقراطية حقوق المرأة وشيئاً من حسن الكياسة بين الجنسين؟

– كلما اتسمت الحضارة بالديمقراطية والمساواة تحسنت العلاقات بين الجنسين. عندما يُستعبد الرجال تخضع النساء لاستعباد أكبر. أما عندما يتحرر الرجال ويسلكون طريق العدل، تتبعهم النساء في الطريق ذاته. "فأجمل تاريخ للمرأة" لا يتناول فقط تحرر النساء البطيء بل يطال أيضاً الصراع ضد عبودية الرجال والنساء على حد سواء.

الزوجان، تلك التحفة الفنية

– هل كان من الممكن إقامة علاقة "حقيقية" بين الرجل والمرأة قبل المساواة؟

– لا أعتقد أن هذا كان ممكناً. كيف يمكن للثقة الحقيقية أن تُبنى في ظل ظروف كان ينظر فيها إلى النساء على أنهن قاصرات، وغير قادرات على فرض إرادتهن أو ممارسة حريتهن، ومضطرات للجوء إلى الحيل لمواجهة السلطة الذكورية؟ طالما كانت المرأة تخضع للأب والأخ والزوج، كانت العلاقات مشوهة فيما بينهم. لقد تكلمنا عن تاريخ النساء، لكن تاريخ النساء والرجال لم يبدأ إلّا منذ فترة وجيزة. لقد ولد عالم جديد جاء من الاختلاط. وددتُ لو أني فكرتُ ليس بمستقبل الرجال أو

النساء فحسب إنما بمستقبل المجتمع الذي يعيشون فيه جنباً إلى جنب. لقد توسعت حدود الحرية إلى درجة أصبح الأزواج فيها تحفة فنية. لم يعد أحد مضطراً لأن يبقى ضمن بوتقة الزواج ولأن يلعب الدور الذي تم رسمه له مسبقاً. أصبح الزواج عملية إبداع يشارك كل طرف فيه في تحديد الأمور التي يرغب فيها وتلك التي يرفضها كما يحدد ما يجلب. إننا شهداء على ثورة حقيقية قامت داخل الحياة الخاصة، وهذا أمر في غاية الصعوبة، مثل كل أمر يخلو من نموذج يُتبع. تبدو حياة الأزواج اليوم اقتراناً لشخصيتين (بأسلوب وإرادة ورأي مستقل) أو اقتراناً لفرديتين. لكل طرف عمله وأصدقاؤه وحياته الاجتماعية الخاصة به.

– في نهاية هذا التبادل، قد نتساءل عن ضرورة وجود الزواج، ألا يجدر بنا إيجاد البديل...

– لا بأس بالعزوبية. إنها تشكّل واحدة من مراحل الحياة. لقد كثرت في هذه الأيام حالات الطلاق المتأخرة وكأن التنازلات والتسويات الضرورية للزوجين بات من الصعب تحملها. وعندما تتحول حياة الزوجين إلى مأساة داخل البيت، وعندما يتحول الزواج إلى نار متقدة كما في مسرح ستريندبرغ أو في بعض أفلام بيرغمان Bergman، وعندما يتحول الحب إلى تنافس أو إلى كراهية ونفور، فذلك من أسوأ المخاطر. وددتُ أن أقول إن الزواج سلاح ذو حدين. لكن الشيء المثير فيه، أتكلم هنا عن زواج المثلية سواء للرجال أو للنساء، هو التواطؤ والتضامن اليومي. حيث إن الطرف الآخر هو الشاهد الدائم على وجودنا، ذلك (أو تلك) الذي نروي له (لها) أحداث اليوم، والحوادث الطارئة الاعتيادية، والأفراح والأتراح، والنجاح والفشل. عندما نشارك شخصاً ما في حياتنا فإننا نخلق حيزاً من الحميمية، نظهر أمامه من دون مساحيق ومن دون أقنعة زائفة، قد تمضي ساعات نقضيها في صمت تام جنباً إلى جنب، إشارة واحدة تكفينا لأن نتفاهم. من أهم ما يطالب به الزوجان لاستمرار علاقتهما، إضافة إلى الرغبة الجنسية والحب العاطفي، شكل من أشكال الصداقة المطمئنة. لكن يبدو لي أيضاً أن حياة الزوجين تصبح في بعض الأحيان خانقة بل وقاتلة إن لم يكن هناك انفتاح للطرف الثالث، الذي يتمثّل بالعالم المشترك، والآخرين، والأهل أو المعارف. إننا لا نذهب لملاقاة الآخرين انطلاقاً من علاقة الزواج بل العكس هو الصحيح. إنه الانفتاح نحو العالم، نحو الغير الذي سيخلق حديث الخلوات، وسيسمح بوجود الأزواج والأحاديث الخاصة الغرامية والوديّة.

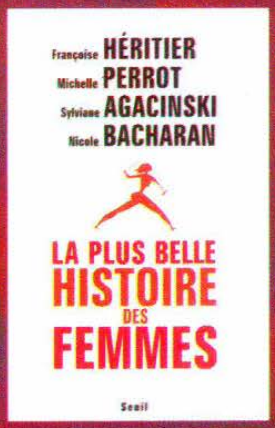

أجمل تاريخ للمرأة

أن أُخلق أنثى؟ كيف أحيا كأنثى في كوكب يحفّه الرجال من كل جانب؟ لكل عصر حجته الدامغة، لتبقى الفرضية هي نفسها: هذا الجنس هو الأضعف، إنه يأتي في "المرتبة الثانية"، إنه الأدنى، إنه التابع.

هل مرّ عصر استطاعت فيه الأنثى أن تعبّر عما يجول في خاطرها بكل حرية؟ كيف عاشت جداتنا في الزمن السحيق قصص الحب وفترة الأمومة؟ في أية حقبة أراد الرجال السيطرة على بطون زوجاتهم؟ كيف عاشت النساء أيام عمرهن عبر العصور، بدءاً من مرحلة الطفولة مروراً بالمراهقة وصولاً إلى النضج وانتهاءً بالشيخوخة؟ كيف كان المجتمع ينظر إليهنّ؟ إلى أين وصلنا اليوم في زمان المفارقات حيث تحظى الخصوبة بالدعم وتُرتكب "جرائم الشرف"؟

تلك هي رواية النساء العظيمة. من خلال حوار جريء يعمل على تنحية بعض الأوهام المتسلطة، تحكي أربع نساء متميزات، بلغة بليغة، الظروف المعيشية للمرأة عبر القرون. لقد كشفت هؤلاء النسوة قصة الصراع الخارق ضد النظام – الأخلاقي والاجتماعي والجنسي – الذي تعاقبت على فرضه أجيال من الملوك والكهنة والآباء والأزواج. إنها مسيرة طويلة بدأت مع الخليقة وستمتد لعهود قادمة طويلة.

هل نستطيع أن ندّعي اليوم أننا تحررنا من الأحكام القديمة المسيطرة على مجتمعاتنا، وداخل بيوتنا، وفي حياتنا الزوجية، وأخيراً في حميمية فراش الزوجية؟

- فرانسواز إيريتييه: اختصاصية في علم الأعراق، أستاذة عضوة في كوليج دو فرانس
- ميشيل بيرو: مؤرخة واختصاصية في تاريخ النساء
- سيلفيان آغاسينسكي: فيلسوفة
- نيكول باشاران: مؤرخة واختصاصية في العلوم السياسية.

9 789953 378145